أسود دانتيل

obeikandl.com

الكتاب : أسود دانتيل
المؤلف : حرية سليمان
تصميم الغلاف : عمرو الحو
تدقيق لغوي : محسن عباس غريب
رقم الإيداع : ٢٠١٤/١٤٧٧٦
الترقيم الدولي :٩-٧٤-٦٤٣٦-٩٧٧-٩٧٨
الطبعة الأولى : ٢٠١٤

٢٠ عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧
Noon_publishing@yahoo.com
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

obeikandl.com

أَسود دانتيل

"عن مكيدة الذاكرة"

رواية لـ

حريَّة سُليمان

للنشر
والتوزيع

obeikandl.com

obeikandl.com

أنتَ نصفٌ يغرق

أنا نصفٌ يحترق

لماذا لا ننقذنا معًا؟!

obeikandl.com

obeikandl.com

وقعت صدفة بطريق تدويناته، بالطبع لم يطلعني على ما فيها من "نظريات عَلَوية"؛ لأن القواعد التي أخفاها هي الشيء الوحيد الذي كان بيننا، وجدت بها نظرية أسماها "الميدالية" تنص على أن لكل رجل ميدالية ،ولكل ميدالية عدد من المفاتيح، ومفاتيح الرجل نساؤه، فعليك أن تملأ ميداليتك بكل ما تستطيع منهن، واستعملهن واحدة تلو أخرى خوفًا من أن يعلوهن الصدأ . كانت مشكلته مع " سارة "أنه دوما معها لا يستطيع أن ينشغل بشيء آخر سواها، دوما يحرسها.. يراقبها.. أيًّا كان المسمى، وكانت عقدتها أنها دوما تبحث عنهم فيه؛ مرة بهدف أن تثير غيرته.. وأخرى إرضاءًا لغرورها، ومرة لأجل متعتها الشخصية .

أما "ليلى" فلم تكن غير عصفورة أعياها الغناء فاستراحت فوق نافذته بشفاة مرتبكة، في البداية شغله صوتها الأنثوي عن صمتها الذي كان عليه أن يدفعه إلى الضجة برغم بغضه للدمى؛ لذا حين شعر بعجزها عن إيصال الماء لغابات مشاعره، أدرك أن اللحظة عبث، وأن الطريق حتما مغلق في وجهه، فذهب قبل أن يغرس بها شجرة ، ربما اعترف أن اللكنة الفرنسية لـ"شانتال" حين تنطق "je taime" أذهبت عقله، لكنها أصرت دومًا أن يترك نقودا تحت

الوسادة، لا يعرف لماذا فعلت ذلك، برغم أنها احترقت بين أصابعه.. عندما سألته عني أجاب بطريقة شاعر" ماذا أُخبِرك عنكِ ،وأنا لا أعرفني بدرجة كافية إلا حين أراكِ "

كنت مندفعة إليه دون حذر، متذرعةً بألف سبب، أما هو فكان مبتكرا للأكاذيب، وكنت أصدقه برغم انتشار رائحتها العطنة، لم يكن غير أفَّاقٍ حين دعاني لكهفه السريّ بغياب أمه، ولم أكن غير ساذجة يقودها قلبها حين قبلت خشية أن نضبط متلبسين بقبلةٍ بهو السلمِ أو بسطح البيت، برغم أن القبلة وقتها حدثًا عارضًا حاولت مرارًا الهروب منه، أتراني فعلا رغبت بمسافة! .ألم يدفعني الخدر الذى يلف كياني حين أحدق بعينيه الخضراوتين لارتشاف قبلةٍ من شفتيه الممتلئتين ذكورة بضعف أنثويّ !.ألم يعني كونه كولومبوس الذى اكتشف القارة الشفقية؛ فأمنحه بالمقابل نضارة الجسد، وأهرع لأستدفئ بالأنفاس، وأحارب البرد المعتمل بأوصالي بسخونة احتراقنا، كنت أفعل كل ذلك بمجرد أن تبدأ طقوس غزله. فيمد كفه ليرفع ذقني؛ لأعلن بعدها الهزيمة بين ذراعيه، منذ لحظاتنا الأولى أيقنت أن الوقوع في الحب سبب كافٍ لتدمير حياتي، بماذا يمكن أن أصف عالَما تشاركناه بسيجارة ،وبعض الكلمات لجبران ،وكثير عبث؟ وماذا يمكن أن يكون هذا العالم لو أن كل هذا العبث أصبح حقائق أعيشها بكم من الحب غريب؟ .

. بحبك.. فيه حاجات بأتمناها يمكن لو حصلت تكرهيني بسببها ..أنا مش ممكن أتحمل ده، صدقيني.

هل كان عليه دائما أن ينهي كلامه بـ "صدقيني" ؟ سألته عن سر ترديد الكلمة كلازمة، ولما لم تأتني إجابة زهدت السؤال، وكففت عن تصديقه، كان يؤرجحني بمكر ساحر، وكنت أتقبل حروفه كطائر احترف السقوط بطلقة صياد يعرف من أين تؤكل القلوب.

*****

أرتشفه كسكيرة كلما تمددت بالفراش.. ببطءٍ شديدٍ.. شديد جدًا.. هذا الماضي بكل ما فيه" حي الزيتون" بتفاصيله القديمة وشخوصه الرمادية المشوشة، كل الصور تنساب برفق لتتشكل روائحا أشمها، وتستحلبها أنسجة الحلق على مهلٍ، تتسرب للروح مشاهد مخضبة بالحنين، أسفلت الشارع المتهالك بشقوقه الطولية، بالوعته المستديرة بالمنتصف لم تبتلع طفلاً لعامٍ كاملٍ بعد أن دفعوا شرها ببعض عروقٍ خشبيةٍ متقاطعةٍ، توسطها شاخص حديدي بارتفاع نصف متر كخيال مآتة يحذرهم من الاقتراب، بالمقهى يجلس داود النوبي بعمامة وجلباب أبيضين فوق دكةٍ خشبيةٍ صنعت خصيصا له، يزعق في الصبية ، ويجادل الزبائن بأسلوب خبير، أمامه طاولة يعلوها كوب شاي بحافةٍ مذهبةٍ، كان يقبل حفيدته فتداعب بياض اللحية بأصبع منمنم،

obeikandl.com

وتشير للافتةٍ قديمةٍ مثبتةٍ بصدر الشارع - تحمل اسم ريحان - فيعيد عليها الاسم بلكنةٍ جنوبيةٍ.

" يافتاح ياعليم يارزاق ياكريم، أِصبحنا وأصبح الملك لله "

يتداعى الصوت رخيمًا، تتبعه تواشيح النقشبندي بالراديو المرتكز على عارضةٍ المقهى، يتحرك سعد صبي المقهى كبندول ساعة ممسكًا بدلو الماء متابعًا نثر المياه على أرض الشارع طولاً وعرضًا، ترسم بعض الظلال الداكنة كفرشاةٍ تنثر رذاذها بعشوائيةٍ محتضنةٍ الغبار، مصدرة صوتًا مطمئنًا يشبه الربت على حزنٍ قديمٍ، ترسل عبقًا يشبه أريج المطر فى غير موسمه.

رائحة الفول الطازج تباغت الأركان ،وتثير لعاب أمي ونظرة غائمة بعينيها تحفزها نهنهات الحنين لماضٍ بعيدٍ وحدها تملكه ولا أدرك ما فيه، أندفع من دون إرادة لشراء حصتنا اليومية ، أدلي" السبت " بانتظار الصاوي بعد انتهائه من وضح حصص الزبائن الوقوف أمام العربة الملونة، يتأخر فى إعداد طبقنا بينما يتتابع توافدهم على العربة، مسبلي الأعين بفعل حاسة يغريها صحن من الفول الساخن مغطى بالزيت الحار.. مصحوبًا ببعض أرغفةٍ "مقمرةٍ"

عيناي عالقتان بالمدى، تلمحان البعد اللانهائي، يشغلُ حيزَ الرؤيةِ تجاورُ البيوتِ والتحامُها، أستمع لأهزوجة فتح النوافذ وارتطامها بالجدران متسعة عن آخرها، مستقبلة الصباح بانتظارٍ شغوفٍ

books4all.net

للمساء .. تأتيني أحاديثُ النسوة، همهمات متصلة فى غياب الرجال، وشوشاتُ البنات وعراكهن، ألمح إشارات متبادلة بالأيدي خجلةٍ وموحيةٍ لفتيةِ الحي المتنطعين بمقهى النوبي . يروقني عبثهم بالخارج عند تشابك خيوطُ الدوبار المشبوكة بالطائرات سداسية الشكل بالسماء، وانحناء ذيولها فى تناغمٍ تامٍ بحركةٍ ثعبانيةٍ ناعمةٍ متسائلين أيها أكثر ارتفاعًا وأكبر حجمًا وأكثر مرونةً برقصةٍ مع الريح، أتأمل أصصَ الفخار على الحواف بزهورها الحمراء و البنفسجية، قطع الغسيل المتراصة بعشوائية الألوان والترتيب كاختلاف ألوان أمزجتهم . لمحته عائدا من عمله بوزارة التموين، دعوت الله بسري ألا يكتشف القطة أسفل السلم قبل أن تذهب بصغارها، كان يمسك بذيولها ويطيح بها على امتداد ذراعه قبل أن تفرج عنها أصابعه لتصطدم بأسطح الجيران .. كل حسب اتجاهه. بظني كان يمنحها الموت بروعة التحليق، في الأيام العادية يكون مبرمجا كمؤقت زمني، تدق الثالثة ليظهر أبي ببزته الرمادية وحذاء أسود بنعل عريض ينقر أرض الشارع، متأبطًا الجريدةَ وكيسًا مجهول المحتوى، تشبثت عيناه ببعض الفتية بالأسفل، وكان أحدهم يرسل صافرةً معلق النظرة بشرفتنا. أشار بأصبعه لأدخل قبل أن تأتي كلمته بشيء من حدة " ادخلي"..

تغير كثيرا معي في اللحظة التي أدرك فيها أنني كبرت، ثمة أشياء ودَّ لو قالها وخذلته، يأمرني أن أجلس قبالته، ليظل يحدق بي، يدور رأسه يمينا ويسارا، يدقق بالسقف، ينقر الطاولة، يجرب بدايات مختلفة لجمل لا تأتي، يزفر زفرات حارة تكاد تذيب رأسي ،وفي النهاية يتخلى عن

كرسيه وينصرف، في كل عام يزداد تحديقه وتتكثف جهامته، ترسم خطوطا طولية وعرضية بجبهته، يفقد تدريجيا تفاصيل الطفلة التي كنتها ؛لأصبح مجرد امرأة ستتعرى في يوم لرجل .لم أكن غير صغيرة تركض خلف باعة الأحلام ، وبجيوبها خبأت بعض السكاكر، تلتقي عيناي أحيانًا بعينين حنونتين، نتبادل حديثًا وديًا لا يدوم، يعبرني بصمتٍ وينزوي خلف الجدارِ، تنكرت لأنوثتي بثوبٍ طفوليٍّ لا يناسب تطوري فلا يعتريني الخجل كلما أرسلت نظرتي للمرآة ليفاجأني جسدٌ جديدٌ لامرأةٍ أكاد أعرفها؛ فأدَّعي كَذِبا أنني أنبذ أشياءها وأزدريها وأغادرها ناقمة، لكني لم أنس يوميًا مساءً أن أمنحها قبلةً بالمرآة ،وتنهيدة حارة ؛لأني أدرك بقرارة نفسي أنه في يوم ما ستنبت الأجنحةُ، وتذعن الفراشةُ لمواسمٍ من التحليق.

كنَّ مختلفات عني، لم تعن لهن تحذيرات الأمهات أكثر من عدد حروفها، كان عليهن فقط ألا يتسللن للخارج من دون إذن، وألا يعبرن للميدان من دون سبب، يتواجهن صباحًا بالشرفات، لم تأتني منهن حصاة تنقر النافذة كعلامة لموعد، لكنهن دوما يفعلن، تداعب الأصابع فتحات النوافذِ، تلتف الأذرع حول الأعمدة .مامن شيءٍ بلوريٍ يؤشر للأشياء فيها السحر، ولكنه الفرح بأعينهن يعكس ألوان الضحكات وبريق الأناشيط، يلتقين ويتبادلن القبلات، يتشابكن ويدرن بحلقات، يتعثرن أحيانا فلا يكترثن ويقفن من جديد، تعصب إحداهن عينيها وتحاول الإمساك بالأخريات، يدغدغنها ويجرين، يقتربن ويبتعدن، يضحكن ويرسمن بالطبشور مربعات على الأرض الرمادية، ينزوين

بأحد الأركان أو خلف العربات، يتهللن، يصرخن فرحا أو فزعا، بالنهاية يجلسن على السلم العريض بمقدمة الشارع، يتسامرن حتى الخيوط الأولى للصباح، في المساء يشترين الحلوى، يمزقن الأغطية، يبرز المحتوى الأحمرُ منكَّه بالدهشة، يلكْنَه بتلذذ، يمنحنني نظرةً عابرةً، أرقبهن بابتسامة لم تشغلهن لزمنٍ طويلٍ، لم يتوقفن عندها ..تتسع حلقات اللعب، أدور بانحناءاتها وأكبر، يكبرن أيضا، يتابعن وشوم الحياة، أتابعهن بالمكان ذاته، بالروح ذاتها، بلا أي نقوش لوشوم . يفاجئني صوت أمي ..

. جورية ..!

يتسلل عبر المطبخ بزيوته وأبخرته يحمل كثيرًا من الروائح ؛كما هو الحال مع البقع اللزجة والشحوم بنهاية الجدار، متباينة الشكل ومتشابهة التأثير .تشكوه لجدتي عندما تشد الرحال إلينا ؛فتجمعنا جدران الغرفة الزرقاء، أندس بينهما، يشغلني المصباح بمنتصف السقف، أزجر خيوطه الصفراء بتضييق عيني فتتفرق مبتعدة، ينبعث منهما أنين محموم حين تتكلمان عنه، حتى جدران الغرفة تجيد إحكام زرقتها عندما تدفن رأسها في الصدر الشائخ، يكاد صمتها يصرخ " دي مش عيشه، مفيش ست في الشارع سابها ف حالها "حتى حنان بائعة الخضر،

بيقيني لم يكن رجلا، بل ذُلًّا جديدا تضيفه يوميا، تحمله كما الأطباق للمائدة، بين وسخ الصحون، بأكواب الشاي، بين أوراقه المتناثرة بالمحبرة ، بجواربه وياقاته، ومع ذلك لم يسلم جسدها من أنامله الخشنة التي تمتد إليها من خلف ثيابها؛ فتعاقبها كل خلية ؛فتحفظ رائحة لا تتبخر عن جلدها، كادت تسبه لكن انعقد لسانها، ظلت تبكي، بحثت جدتي عن كلمة مواساة فلم تجد- غالبا كنت مثلها- لم تتخيل لحظة أن تتلصص عليهما طفولتي لأفتح بابا للطوفان، وجدتها هزيلة بين أحضانه، جافة كعود قمح يابس، يكاد يصرخ شبقا فيغرس أسنانه بها لتتألم وتدفن رأسها بالوسادة، خلتها تموت ,لم أجد مكانا يخفيني لاتساع الصالة، أيقنت بعدها بوقت أن ما يحدث بينهما مجرد خطأ تجيزه نواميس الحياة، بعد أن تصلب جسده وتوقف اللهاث انزاح عنها، استجمعت نفسها وتكورت، ألقى عليها الثياب وانزوى يلملم ذاته .. التجأت لغرفتي، تساءلت بنفسي ما الذي يفعله بها؟

في الصباح تواجهنا بانتظار إفطار لم نمسسه، مذيع الراديو يردد كلاما عن اغتيال بذكرى النصر.. تبادلنا النظرة والوجوم، ظل الراديو كما التلفاز يبثان آيات من الذكر الحكيم وصورا ومشاهد مكررة .التفتت إليَّ بينما الضوء ينعكس على وجهها عبر النافذة الكبيرة، بدأت تعد خليط السكر والشاي الجاف في قعر الكوب، صبت الماء الساخن من البراد النحاسي، تناولت ملعقة صغيرة، تأملت خطوط وجهها الذي بت لا أعرفه، كانت شاردة، بدا غاضبا من طريقتها في تقليبه، انسكبت بعض القطرات على الطاولة، عبق المكان برائحة الشاي، التقط

الكوب من بين أصابعها في ضيق وبحذر استدار ليضعه على حافة النافذة، جلس على كرسيه العالي وتطلع إلى الشارع الكبير ..رفع الكوب لشفتيه ولم يعجبه مذاقه، تركه كاملا ليغادر،

نظرتْ إليَّ بوهن، طلبت مني الذهاب إلى حيث وضعت زينب أجولة حبوبها لأبتاع العدس؛ أدركت أن للشمس بهجة حين تقرر السطوع، فما بين عتمة الليل ووضوح نهار محض خيط رفيع كنت قادرة على إفلاته كلما اختلست النظر بينما أمر بينهم كساحرةٍ صغيرة ..عليَّ فقط أن أختبئ خلف شال جدتي البني، كان درعا يسترني من فضولهم ومن عقولهم التي شاطت كتبغ السجائر، استسلمت لطلبها مؤقتًا مستترة خلف سحبي البنية.. بالشارع كل شيء كان غريبا، لم أعرف ما الذي يجري، الحركة غير عادية والناس تركض؛ وكأنها القيامة، وقعت عيني على امرأة تداري وجهها بطرحة سوداء، كانت ترقبني في صمت، حدّقت فيها طويلا؛ كأنني أبحث عن ملامحها، لم تسمح لعيني أن تخترق المسافة، اقتربت لتلمس وجهي، قالت بشيء من دهشة ...

. قتلوا السادات .

*****

بمرحلة من التدوين تصبح مضطرًا لأن ترفع رأسك لتستطلع الأمر، فأحدهم هنا، هم دوما على مقربة منك وعلى ذهنك أن يكون حاضرًا بقدر استطاعتك تمييز طعم الملح، بقدر ما يفعله فنجان قهوة الصباح

في غيمة كسولة، بقدر ما في الوجوه من أعين لترى، ومن آذان لتسمع ومن ألسنة لتبرر، عليك دائما أن تكون مستعدًا، مستعدا جدا للانفجار، ليس كحلزون عاش طويلا ممتلئا بكل الأصوات، ممتلئا بكل شيء وأي شيء، متخما بما لا يدفعه على المسير بشكل أخف؛ لو أن الحلازين اختارت ألا تزعج نفسها بالإنصات، ربما لو جاءها صوت الباب وقررت ألا تفتح لنعمت كثيرا بالصباحات المفرغة من الإجابات والأسئلة .

مع آخر كلمة بتلك الجملة أجدني مدفوعة للكتابة عنه، تنهشني رغبتان، واحدة لاختبار مشاعري بعد تلك السنوات، ورغبة ثانية بالخلاص من حنين مجنون للحكاية الأولى، وربما نمَتْ رغبة ثالثة بكتابة كل ما عرفته عن رجال حياتي ..لكنه الأكثر صخبًا، عليّ آلة قراءة منسجمة التروس، كان يقول أننا لسنا في حاجة للآخر ما دمنا نقرأ، فوجود الآخر يعني استهلاك غير مبرر لكل شيء، مخزونك من الشاي، من البن، من المياه الباردة، من الظل، وجود الآخر يعني بالضرورة افتقادك لمساحة أكبر من الصمت ؛لأن المشكلة الأكبر أنك تصغي حتى لو لم ترغب، وأن هذا الآخر في مساحته المفترضة تلك يتوقع أن تنتشله من كل الأشياء المملة والسوداء، ومن دون وعي تجد أنك استحلت لنوع نادر من جذوع الأشجار، تحديدا النوع البني الموغل في السمرة، هذا الذي يركنون إليه، يبولون، يصوبون إليه خيبة تلو أخرى وفي صمت يرحلون .

عليٌّ يتناول قهوته المرة، يجعلها مرة للغاية فهكذا تحدد المذاقات الحقيقية للأشياء، يدخن كماكينة ديزل، يقول إن التدخين طريقته الخاصة للبصق على سخف العالم. لا يحب القطط لأنها تمارس الجنس من دون حياء ،ويفضل كلاب" البول دوج" لأن لها تعابيرًا مضحكة، يؤمن أن الله لن يعاقبنا بذنوبنا لأنه أكبر أكبر كثيرا من أن يعذبنا بها ،ونحن الفقراء الفارين إليه .حين ناداني بـ سارة ، سمحت لأذني أن تمررها من دون سؤال: أين ذهبت يا عقلي؟ أأذهبك اخضرار عينيه؟ أمر محبط أن يدخلك أحدهم من الجنة للنار ليقلِّب فيك كيفما شاء، أسماني دمية السُكر، مازحني قائلا : "كفي عن تناول غزل البنات،

قلت: أحبه ولا أشكو التسوس،

قال :أنت لا تعرفين أن تلك الأشياء الحلوة تضيف لك من اللذة ما يفوق تحملي.

تحسب كل امرأة أنها قارة من شفق، لذا يجيد الأفاقون لعب دور كولومبوس ،ونميل غالبا إلى التصديق، سألته ذات مرة :

.كم مرة قلت أحبك لامرأة غيري؟

فأجاب :

obeikandi.com

. قلبي في مهمة إنسانية .

حين كررت السؤال أجابني :

. مرة واحدة،

.ولما أقول مرة صدقي .

سألته عن اسمها ..فكر كثيرا قبل أن يقول :

. وفاء .

وقبل أن أسأل عن سبب الفراق قال بحسم :

. انتحرت يا جورية ...

ما إن أتم كلامه حتى انعقد لساني، لم أتوقع أن تلجمني الإجابة ؛فأقف عاجزة عند حدود السؤال، وبرغم هذا الغموض لا زال يملأني الرضا.. أخذت عليه العهود والمواثيق وفعل، وبعدها اتسعت شفتاه عن ابتسامة ساخرة .عندما كنا صغارًا كانت السماء تمطر أحلامًا وقرنفلات، وسمائي أمطرت سلمًا وكلمات، كانت ليلة حارة من ليالي أغسطس، دخل أبي بقطبة جبينه ، بينما حروفه تتعثر على غير العادة، وجه كلامه لأمي :. الشقة جالها ساكن، هاتي المفتاح ...لم ننم ليلتها، كيف يكون البيت مع جيران؟ انتبهت لحظتها لشيء غاب عن

obeikandl.com

إدراكي تماما، من المنطقي أن يكون لنا جيران، أعوام تمر، كنت أختلس النظر كلما لمحت بابهم منغلق على ذاته لأتساءل: متى ينفتح ؟.. لمحت ارتيابًا بعينيها، نظرات اتهام غير مبررة، بدا الأمر غريبًا لي، هو لم يرتكب ذنبًا، على الأقل حتى الآن، استحال الأمر واقعًا بعد أيام من مناوراتٍ غير معلنة، زعق نفير التويوتا صباحًا ليعلن عن قدومهم ،وأخيرًا ضمَّنا بيت واحد، التصقت أمي بالباب، كتمت أنفاسها لتسمع الهرج الحاصل على السلم.. وعندما طال أمد الضجيج سحبت جسدها بتثاقل باتجاه الأريكة التي تجاوره .أطالت النظر إليَّ وقرأت ملامحي، مرت الدقائق رتيبة وبوجهي تعبير واحد، شعور بالبهجة كنت أداريه وتلمحه، أيقنت أنهما الجحيم ،وأن الباب الموصد بيننا آخر فرص النجاة،

انتابني الذهول عندما جمعنا السلم لتتقاطع حياتنا بالدرجة الثلاثين...

- مش ممكن.. إيه ده؟!..

- في إيه؟!..

- ربنا مش هايسامحك.. صدقيني.

حاولت جاهدة وأد الخوف الذي تسلل إلى جسدي متخللا عروقي، ومع ذلك بدت جملتي مضطربة .

.تقصد إيه؟!..

. مين قال إن الشمس بتشرق بالليل، إزاي تعملي كده؟ !

غبت في ملامحه للحظات قبل أن يقشعر كياني ،ويتسلل صوته من جديد .

. بأقصدك أنتِ.. مالك مرتبكة ؟

لم أجد شيئا لأقله

. إيه؟ مش مصدقة ؟ أكيد اسمك شمس .

. لا مش شمس..اسمي جورية .

اندهشت لاقتحامه المفاجئ لعالمي، لم أدرك ما حدث، ولا لماذا عليَّ أن أصدق أنه هنا من أجلي، لسبب ما، لقدر ما، التفت في خجل متجهة للداخل فاستوقفني ممسكا بذراعي متسائلا . هاشوفك تاني ؟ !

ألم يكن غريبا أن يأتي بليلة عيد فيصبح هو العيد؟ .مرت ساعة أو ساعتان، يوم أو يومان، لا أدري بالضبط كم مر قبل هذا اليوم ،كنت أراه في صعوده وهبوطه، لم يرفع عينه للنافذة مرة، حتى صوته لم أسمعه غير مرة.. في ذلك اليوم ناول أمي إيجار الشقة، وكنتُ أعدُّ العشاء، لم يزد حديثه معها على بضع كلمات" مساء الخير، تفضلي "..

obeikandi.com

كان السلم مظلما ولم نهتم، لم نكن نخرج على أية حال، بعدما جاء أصبح قضاء حاجات البيت حجة لأراه، تحسست موضع قدمي بصعوبة، لكني تعثرت، سقوطٌ مؤلمٌ لم يخففه غير انفراج الباب، انبعث الضوء من الفتحة لمساحة ممتدة بيننا، لم يكن الضوء مبهرًا بقدر خياله الرشيق المتعامد عليه.

. حسبتك قطة !..

. كنت هاقع ..

. أنتِ بخير ؟!..

اومأت بنعم . ...

برغم ما حدث استطعت تتبع ملامحه، كان مساء مراوغا، نهضت كالمجنونة غير قادرة على ترتيب أفعالي، بحثت عن أشياء في غير مكانها وارتد نظري إليه، قست طوله بالتقريب، يفوقني طولا بحوالي عشرين سنتيمترا، لفت نظري لمعان سلسلة فضية مندسة في شعر صدره الحالك السواد.

. فيه حاجة وقعت منك ؟!..

هززت رأسي بالنفي، تساءلت بنفسي ..كيف أبدو يا ترى؟ تسلل الفضول إلى عينيه لدرجة أنه أطال النظر إليّ..

obeikandl.com

. فيه حاجة ؟

. باشوف القمر .

. مش فاهمة؟

. أنتِ أجمل شمس ،وأحلى من أي قمر.

أمعنت النظر فيه.. يشبه وسيمًا بصورة على جدار جارتنا أخت الحلاق ..كانت عانسًا والصيف يشعل ضجرها، حينها تتمدد على سرير يواجه النافذة؛ فتسلم ساقيها لعجينة العسل المطاطة، فيستحيل بياضهما لكتلة لهب في دقائق ..أضحى العرض المذهل عادة تخلب لبَّ أبي في عمق الليل، تطير النوم من عينيه، ما إن نختفي أو نغفو حتى يتسلل في الظلمة إلى هذا الجزء من الشرفة، يمكث هناك دون أن يشعل الضوء، يتيح له المكان الذي اختاره الكشف عن مساحة كبيرة من غرفة الستائر الحمراء، لم يكن يتأملها فحسب؛ وإنما تتلوى بمقلتيه مخترقة مخه الملتهب، تحتشد الدماء بوجنتيه وأذنيه وتنفر عروقه اللحظة التي تقع فيها عيناه على الفخذين العاريتين، قامت لتواجهه بمرآتها ,ارتد إليه انعكاسها.. تدثر بنفسه خجلا بعدما طاف المكان ببصره بحثا عن لاشيء،

جارتنا تتمشى في الشارع بأزياء غريبة، بذوق امرأة فاجرة، بلوزات مفتوحة عند الصدر، تنانير قصيرة وفساتين ضيقة، تضع أقراطا كبيرة، وأحذية بنعول حادة، زينت الجدران بصورٍ لرجالٍ نصف عراة

obeikandl.com

وشديدي الوسامة، دومًا ما نضبط أبي يحدق عميقًا، عميقًا جدًا في الجدار ولامرأةٍ ينعكس ظلُها عليه، مذ عرفت أمي عادته وضعت ستارة كبيرة بطول شرفتنا لتحجبها عنًّا. قالت أمي يومها بلهجة ساخرة :

. مجدي في سن خطر يا أبو مجدي ..

سألت "عليًّا" مرة عن رأيه بجارتنا تلك ؛ فقال :هي امرأة مسكينة لأنها مدانة بارتكاب الشوق لرجل لا يأتي أبدا، وربما ضاجعت رجال الجدار في صورته.. لذا وبدافع إنساني بحت قرر أن يخلدها بقصيدة ليمنحها رجلها المنشود .

عليٌّ يقرأ الشعر، يكتبه أيضا؛ ولأن الجغرافيا امتلأت به تعلم أن يتعاطاه، عمل مدققًا لغويًا في جريدة محلية، حين تسلم خطاب التعيين كاد يطير فرحًا، أخيرًا سيغادر كل ذاك السأم اليومي، استيقاظ الظهيرة، ضجيج السيارات تحت النافذة، ضجيج الراديو على عارضة خشبية بالمقهى، مراقبة نهود اللائذات بالشرفات، هناك أشياء أهم عليه فعلها، أهم من أحلام يحشو بها وسادته، أهم من ضجيج مختلق يفتك به، يتعمد أن يصدر صوتًا حين يعد الشاي، صوت غليان الماء شيق، صوت سكب الماء في الكوب شيق، صوت دوران الملعقة في الكوب أيضا شيق، لكن هناك أشياء أهم من كل ذلك، مشاريع مؤجلة، خطط قيد التفعيل، كتبًا عن ذاته لم تُقرأ بعد . قال مرة أنه كائن يحاول ألا يموت، لذا فهو يقرأ كثيرا، يعمل كثيرا،

obeikandl.com

يرتشف الشاي بصوتٍ عالٍ، يعزف الهارمونيكا، يصطاد اليمام ويحبني.

*****

صباح بعيد، خُيِّل لي أني التقطت "رضوى" بمدخل الشارع وكأنها تقفز كأرنبة، دست أنفها بقرطاس الفلافل، مدت أصابعها والتقطت قرصا ملتهبا، نفثت فيه سريعا وبالنهاية ابتلعته- أظن كاملا- فعلت ذلك، وانحرفت يسارا واختفت، بعد وقت لم تعد تقفز كالأرانب، تمشي بالشارع بتؤدة وعيناها معلقتان بنافذة خضراء على اليمين، مبتسمة لقطعة ملابس رجالي على الحافة، بحس خفيض تدندن لحنا - هكذا اعتادت - فحبيبها يسكن قبالتها، لذا كل شيء فيها اختلف، روحها، عيناها، مشيتها، صوتها، وظل شارعنا كما هو، وككل بكور مجرد شارع هادئ، أبوابه مغلقة، وحركة ناسه لم تبدأ بعد...

بذهابي للمدرسة بدت السحب كأقرب ما يكون، المقهى مفتوح والرجال يجلسون على الرصيف يدخنون الجوزة، وبالزاوية بائع العرقسوس يؤرجح بضاعته، توقفت لشراء كوب برغم تحذير أمي، تمنيت لو يطول الشارع، أو أن يتوقف الزمن قبل أن يظهر السور الأصفر الكئيب برسومه المكررة، بوصولي كانت البوابة نصف مغلقة، وكانت الناظرة واقفة على الجانب، واجهتها بابتسامة، فزعقت عاليا كصفارة إنذار وحيدة النغمة، قرصت أذني وعاقبتني بجمع الأوراق من

الفناء، لم تكن قاعة الرسم مفتوحة لأتسلل، كنا نجهز للمعرض السنوي بمثل هذا الوقت من العام، وكنَّا مكلفات بإنهاء بعض القطع الفنية، كل واحدة حسب اختيارها، اخترت التطريز، طرزت نصف جناح لفراشة زرقاء بعدها اختفت قطعتي، بحثت عنها بكل مكان. سألت أمي فأشاحت بوجهها عني، وبختتني مدرسة الرسم واستبعدت اسمي من نشاط المعرض وكالعادة بكيت،

كان النهار قد انتصف حين عدت إلى البيت بقدمين منهكتين.. وبالكاد تناولت نصف الوجبة، قطع الهدوء نقر متقطع بالباب، ليس كما اعتدنا حين يكون رجلا البيت بالخارج، لا أحد يطرق بابنا عادة..اتجهت للصالة وبتردد فتحت الباب.. وجدتها واقفة أمامي...

. مساء الخير ...

حملقت في وجهها المصبوغ.. أدهشتني عيناها المتوحشتان كعيني بقرة شاردة، امرأة بجسد فارع واستدارة مغوية .تقدمت خطوة لتصافحني.. بينما تقطع عيناها الصالة بفضول ..

. ماما هنا ؟

. أيوه. مين حضرتك ؟

. تهاني.. جارتكو ..

وأشارت للشقة المقابلة .

. أهلا وسهلا.. اتفضلي ،

ابتسمت فبانت أسنانها الناصعة واتضحت أكثر نغازة ذقنها ، تراجعت خطوة لأترك لها مساحة للعبور فدخلت على مهلٍ، غيرتُ زاوية النظر تلقائيا من فتحة الباب المتسعة إلى عجيزتها المرتفعة، توقفت بمنتصف الصالة لتتأمل كل تفصيلة، أشرت لها باتجاه الغرفة المغلقة، ترددت لبرهة، ثم واصلت على أطراف أصابعها.. وقفت بالباب..تقدمتها بخطوةٍ قصيرة، خجلة "أخفيتُهما " مشبكة ذراعيّ،

فتحتُ بابًا عريضًا يفضي لغرفة مربعة بأرضية خشبية باهتة، توسطتها سجادة حمراء قانية ترتكز على أحد أطرافها كنبة كبيرة، توسطت الجدار صورة زفاف جلس فيها أبي منتفخا كطاووس تثقله زينة الذيل- لم أستبن ابتسامةً بالصورة - وكان شاربه أكثر غلظةَ، متموضعًا كوسادةٍ تخفي الشفتين ولم يخف كثيرا وسامته، أما أمي فوقفت إلى جانبه بجسدٍ ضئيلٍ تشتاقه الأنوثة، توسدت كتفه إحدى يديها واحتفظت الأخرى بباقة زهورٍ بيضاءٍ لها نفس تأثير بسمتها المؤرقة، بالحجرة أربعة كراسٍ مذهبة متقابلة وفوتيه بقطيفةٍ زرقاءٍ مموهةٍ على مايبدو أن ضيفتنا اختارته ليحتوي جسدها الذي يواجه النافذة الخشبية العريضة بلبلاباتها الصفراء .اتجهت للفوتيه وعيناها معلقتان بالصورة، راودني شعور مختلط ما بين ضيق ورضا وبالكاد

استطعت أن أخفيه، كانت الضيفة تقريبا الكائن الحي الوحيد الذى احتواه بيتنا منذ أعوام ،

كثيرا ما تخيلت أبي يعد لنا أكواب الشاي وسندويتشات الجبن والخيار، فنأكل كثيرا ونضحك كثيرا، ونشاهد التلفاز معا، كثيرا ما تخيلته يعبر بنا الشارع قابضا على أناملنا الصغيرة لنلهو بحديقة الميدان، ولم يفعل، كنت ومجدي نتقاسم عالما صامتا، يقطعه أحيانا بشرائط الكاسيت- بغياب أبينا- لنجاة وثومة وعبد الحليم، حتى وقت قريب لم يكن يعرف الحب، لكن مذ طرق بابه لم تفارقه الأغاني، صحيح أنه لم يشارك والدنا جلسته الشتوية إلى جانب السبرتاية، وصحيح أن له رفقاء يلتقيهم نادرا على الناصية حين يفتك به السأم والفراغ، ويسير مع بعضهم – في بعض الليالي- باتجاه الشارع الرئيسي، لكنه حين يضع رأسه بحجرها أحيانا بليال الرضا يدق قلبه ويغمض عينيه ويفر، يغرق في عتمة بيضاء دافئة ورطبة ..سألت نفسي كثيرا لماذا لا أفعل مثله؟ !

كنت أتسحب باتجاه الجرامافون القديم لأعيد تلميعه، ويقتصد هو من مصروف الشهر لإصلاحه، وحين فشلت خطته اشترى مسجلا بحجم كف اليد وأخفاه بخزانته، بعد فترة لم يكن الحب بقادر على منحه ابتسامات مجانية أو صورا للفرح مؤجلة، يظل واجما لأيام ومن دون حرف نقتسم قسائم البغض المجانية، بغض حاد كنوبات سعال أبينا وبصقه بأمسيات الشتاء، بغض رمادي كوجوم أمنا بالنهار، بغض

obeikandl.com

باهت كجدراننا الباردة وقطع الأثاث ولم تكن غير كتل تشاركنا المساحة، وتزينها بقع مستديرة تركتها أكواب الشاي اليومية لأبي .

خطوات أمي سبقتها، أطلت عيناها بشغفٍ لتلتهما جسد الضيفة التي حجب الكرسي نصفها. أخفت أمي ارتباكها بجملة ترحيب قصيرة، التهمت عيناها زوايا الغرفة واستقرت على فتحة صدر الفستان الأسود للضيفة ونهديها النافرين، لم تخف فراغات الدانتيل نسيجهما الأبيض الوردي، كان مبهجا بضًا، لكن سؤالا قاسيا ألح في عقلي وكاد أن يفجره. أترتدي تلك المرأة مشدا خاصا يجعلهما يطلان علينا هكذا. بادلتني ابتسامة لم تحاول كبحها حين ضبطتني أتلصص على نهديها ومالت للأمام لتعتدل في جلستها. أحكمت أمي وضع الإيشارب حول شعرها المهوش، بتوتر بالغ أغلقت آخر أزرار فستانها البيتي، وسحبت قدميها برفق لتخفيهما تحت ذيله الطويل، أومأت لي لأقترب، ذهبت متباطئة بعد تفكير، دعتني للجلوس ففعلت .تكلمت الضيفة عن زوجها المرحوم بأسى بالغ، قلت بنفسي ستكون معجزة لو لم تقل أمي جملة جدتي . سمعتها من "سناء" بائعة الذرة ، وكانت تهمس بها لامرأة تشكو من رجلها، توعدها بالطلاق لأنها امرأة شكاكة، يومها ضمتها سناء وأجهشت الثانية بالبكاء، فعلت مثلهما جدتي ، وكانت تنصح أمي بالصبر وتربت على وجعها" خليكي ناصحة، ضل راجل ولا ضل حيطة".. أرسلت بعدها نظرتها لرجل الصورة ذي الطربوش، مصمصت شفتيها وبكت..

كنت أصدق جدتي حين تتكلم عن جدي لتقول بأسلوب خبيرة، أن الكلام الحلو من فم الرجل لا يُقوِّم صدعا لكنه يطيل عمر المرأة دهرا، لم تعلم جدتي أن دكان العطارة لجدي أصبح قبلة الشاكيات، وأن كلامه الحلو للنسوة كان عادة يومية، فما إن تدخل امرأة حتى ينتفض كجندي يؤدي التحية العسكرية" صباح الورد على الورد، صباح السكر يا سكر" وقتها لم يكن يفطن أبدا لوجودي.. قطع أفكاري صوت أمي :

. كان بيحبك..

قالتها أمي بنبرة مشحونة؛ فردت الضيفة بتهدج ...

. كان مالي عليا حياتي .

. تعيشي وتفتكري .

. مفيش حاجة تكسر الست قد الحزن، المرحوم فاتنا في عز شبابه، كانت روحه حلوة قوي..

سكتت للحظة واسترسلت قائلة ..

. ومكانش بيبطل غُنا .

obeikandi.com

لم تبد الحياة لي جحيما من دون رجل، حتى أنني كثيرا ما تخيلت حياتنا من دون أبي، لم أجد فراغا كبيرا نعجز عن ملئه؛ بالعكس كانت صورة مبهجة نتسامر فيها حتى الصباح، نسافر لزيارة أقاربنا الذين انقطعت أخبارهم، يمكن وقتها أن يطول أمد الأجازة الصيفية؛ فبرغم قصرها كنت تدربت كثيرا فيها على اختزان التفاصيل، التنصت للأحاديث المسائية، ونقش وشوم الوجوه، يصبح قلبي وقتها كساقية ظمأى تشتاق إلى الماء، لأمنا خالة ضريرة تسكن بيتا بسيطا بقرية من قرى مركز المنزلة، لم تتزوج بحياتها، ظلت عانسا حتى ماتت، كنا نزورها أحيانا، أحببت عالمها وكثيرا ما اجتذبتني لمبة الجاز بطقوسها اليومية بدءا من الركض خلف بائع الجاز ومشاغبة حماره، مرورا بتنظيفها وملء فراغها الصغير ،وانتهاءا بتثبيتها على الجدار، وغالبا ما كان الدخان يتراكم بحلول المساء ليصنع خيوطا طولية على الحائط فتزداد كآبته أو على سطحها الداخلي فيخفت الضوء .بأحد المرات سألَت الخالة أمي إن كان بإمكانها منح غرفة نومها لونا مبهجا، فاشترينا أفرخا من الورق البنفسجي تزركشها زهور حمراء وصفراء، قضينا الليل كله نثبت الورق على الجدار مستخدمين عجينة بسيطة مكونة من الدقيق والماء، صباحا كانت الغرفة قد استحالت فردوسا مدهشا من الألوان،

كانت حكاياتها لا تنتهي، أدخلتني دنيا شاسعة من السحر، دنيا الخرافة والعفاريت والجن والملائكة والبشر.. تساءلت مرارا..هل لونت الغرفة من أجل فارس لن يطأها إلا في الخيال؟ هل ينمو الحب بزاوية

oberkanal.com

معتمة خلف عينيها يروى بملح دموعها وحزنها الدفين وفقرها الذي لا يرحم؟ هل لن تصحو الأميرة أبدا من دون قبلة؟ هل كتب على ست الحسن أن تنتظر شاطرها لتكتمل الحكاية أو لتموت قهرا؟ ليت الزمان توقف عند هذه اللحظة ولم يتحرك، نطقها لسان حالي بينما اتأمل ضيفتنا الثرثارة، بدت واحدة من النساء اللواتي يلكن العلكة، يتثاءبن ولا يتوقفن عن الكلام، ضحكت بصوت عال، عادت بظهرها للوراء لتكمل كلامها عنه، قالت أنه بإحدى مرات استحمامه صدح صوته بالغناء، وتلك كانت عادته ، وإذ بالباب جلبة، جارهما الأعمى يدق الباب بكلتا يديه، قال لها بالحرف الواحد "اغلقي الراديو أو أكسره". سخرت منه فاستمر يزعق، سحبته من يده وادخلته على زوجها الحمام، استمر العجوز يتحسس موضع قدميه حتى لامس الجسد الزلق، زعق زوجها، طارده في الشقة عريانا بينما الرجل يتخبط بفزع، خاصمها بعدها لأسبوع كامل، لا أعرف لماذا كانت تصر أن تخبرنا عن طريقتها الخاصة للصلح!

كدت ألمح بعيني أمي إشارة سماح بالذهاب غير أنها سرعان ما عادت فيها، فمؤشر موجة الكلام قد انتقل لأثير آخر .أخبرتنا أنه سجل للإذاعة موشحات صوفية وأدعية، وفي سنة الحرب غنَّي النشيد الوطني بفاصل إذاعي وبعدها سجل أغنية للنصر أذيعت لعام كامل، سألتنا إن كنا نعرف عن ذلك فبُهِتنا.. كيف لنا أن نعرف؟ !

قالت والابتسامة تملأ وجهها أنه وقع في غرامها وكانت ترافق أمها للسوق، اصطدما فجمد مكانه، لاحظت ما اعتراه من ارتباك فمدت الخطوة دون أن تنظر إليه، لمحته بطرف عينها يرسل قبلة وهمية، تتبعهما حتى البيت، وأصبحت زوجة له قبل مضي أسبوع، حكت عن أشياء غريبة أثارت حنق أمي وحيرتي ..كان يتسلل فجرًا لحديقة بطرف المدينة كلما جاء موسم التوت ليقطف لها بعض الثمار، كل ذلك كان عاديا لكن هل يمكن أن تشاركه غسله فيتجردا عاريين ؟ كانا يستحمان معا، فتضع بزوايا الحمام أعواد بخور وتنثر بماء الغسل ورقات الورد الجاف ..تساءلت بنفسي.. أي امرأة تلك؟ من أي كون جاءت؟ حكت عن مرة عاد فيها مرهقًا من عمله، فوضع قدميه في الماء الساخن وبعض الملح، تركته وذهبت لإعداد العشاء لتجده نائما برجوعها بينما "علي" ابن العامين يركل الماء بجسد نصف عار.. أما ما استدعى شجنها أنها نفذت وصيته بالحرف لدرجة منحها حملة النعش جلابيبه الصوفية ،واللحاد ساعة إنجليزية قيمة بمدلاة .ظلت تتحدث لساعة، تبادلنا فيها الإيماءات، بعدها استعادت بعض هدوئها، غادرت الكرسي بحركةٍ مفاجئة .. ضمت شعرها برفق خلف أذنيها فظهر قرطها اللؤلؤ، لمعت عينا أمي كمن اكتشفت رسالة تحت الوسادة، أدركت أنها تجاهلت تحيتها ولو بكوبٍ من الشاي، فاعتذرت عن النسيان، أجابتها الضيفة بابتسامة باهتة، تفهمت أن ما حدث كان متعمدًا، وأنها غير مرحب بها فى أنبوبنا الدقيق، استأذنتْ للانصراف، كان عبورًا سلسًا كعبور قطةٍ تسمح لها المسافات الضيقة بالخروج .

أغلقت أمي الباب خلفها، سحبت جسدها بتثاقل، التهمت عيناها المرأة بمرآة البوفيه.. كانتا متماثلتين- أمي ونسختها المكررة - أزاحت غطاء رأسها بتأفف، ففعلت الأخرى مثلها، ألقته بضيق، وفعلت الأخرى مثلها، تأملت شعرها، جذبت واحدة بيضاء، خيل إلي أن الأخرى لم تفعل مثلها، دققت النظر ..كانت كتمثال من الزجاج لا يخفى على من يراه شيء فيه، حتى ما يدور برأسه من أفكار.

يلجمها احتياجه لها، يعاتبها على تأخرها، يريق على جسده زجاجة عطر ليخفي رائحة قميصها، أفكارها عنه تثيرها، تلهبها، التحامهما الكامل، كل ما يفعله، عشرون سنة مضت على أول اجتياح ،ولا زالت كما هي .. لم تر في نفسها غير وتر مشدود من القلق بانتظار رجفة لا تأتي، حتى هذا الجزء منه بداخلها لا تعرف أكثر من طوله بالتقريب.. ما الطائل من علاقة تريحه من أثقاله لتضيف لها؟ مارس الأولى على عجل وفي الثانية نزع الجلباب، سارع إلى زر قميصها العلوي، تمرغ عاريا، تحرك بشكل آلي، راقبت انعكاسه بالمرآة المشطورة، جسده المتأرجح، قميصها المرفوع .. ثمة جوع يفتك بها، لكنه لم يأبه..استحالت لخرقة بالية بين ذراعيه، لم يزحها جانبا واستمر يتحرك برتابة حتى فاجأها شلاله .

ما الأسوأ من أن أعرف عن لقائهما كل مرة؟ أن أسمع سعاله؟ يخرج من الغرفة، يبتلعه ظلام الصالة وباب الحمام، يغيب لنصف ساعة، يتبع الهدوء المشحون توتر الماء على جسده وفوق المربعات الملتصقة

بالجدارن، ظننتها عادة لم يؤجلها إلا لمرض أو سأم، لم يمنعه سوى ليل الشتاء البارد واضطراره لمضاجعتها كدمية ومع ذلك يترك بنسيجها الباهت بعض علامات يفزعنني، كانت تخجل من مواجهتي حين أجدها، علامات زرقاء مدممة، بالرقبة والشفة السفلى ورأيتها مرة بسمانة ساقها، وما بين تلعثمها وارتباكي تخرج حروفها دوما خجلة.

. أنا بخير، ما تبصيش كده.

فضحتها عيناها، أفصحتا عن كل شيء، تخيلت دفئا يلف شتاءها البارد، ونسيما يراود لياليها الصيفية، كانت تراكيب لاثنين غيرهما، ومواسم لاثنين غيرهما، ووعودًا لاثنين غيرهما، تماما كتنسيق رائع لزهرات التيوليب بغلاف رواية رمادية الشخوص، طالعت وجهها المتعب، بدت كتمثال متصدع يصارع معول الريح .دلفت لحجرتها، تبعتُها، قدمت رجلا وأخرت أخرى، ناديتها أكثر من مرة وكانت شاردة، سألتها :

. ليه بتبكي .؟

اقتربت ففاجأني تعرق وجهها، حين أحست بي قالت بضيق.

.ما تبصيش كده، أنا مش مجنونة.

تكلمت بهلع عن خوفها من عالم يسحق الساذجات ببرود، كنت في سن لا يسمح إلا بتصديق أكاذيب الكبار، وربما ساذجة تلون الوهم فسكتت مضطرة، واجهت نفسها بالمرآة، الشرخ كبير يمتد من أسفلها لأعلاها فى خطٍ متعرجٍ، لم يتقابل نصفا الوجه تماما، أحدهما يسبق الآخر، أجزاء الأدنى أكثر شحوبا، الشفتان مدلاتان، العين غائرة بظلال سوداء، الأنفُ مدببٌ حادٌ، حتى شعره الأبيض كان جيريًا باهتًا، بالمنتصف مسافة مشوهة متعرجة التأم فيها النصفان .. هزت رأسها بضيق وأمرتني بالذهاب لغرفتي .شعرت بالأسى لحالها، انتابتني مشاعر متناقضة ما بين شفقة وغضب، وددت لو أبكي لتضمني بصدرها فتذهب عني رعشة الخوف تلك أو أغفو، لكنني لم أفعل ولم تدعني هي، غادرتها وعيناي مثبتتان بالشرخ الآخذ فى الاتساع مباعدًا ما بين شطرى وجهها، لم أفهم إلا ما استوعبته مشاعري من براكين غضب لا تخمد .

اصطدمت عيناي بصورة على جدار الردهة، كانت لحوذي يعتمرُ قبعة، ويجلس فوق عربةٍ تجرها أربعة جياد تركض بوادٍ يتوطنه القمح، أما شمس اللوحة فحمراء تميل للمغيب، والسنابل تميل كلها للجانب بفعل الرياح، أكثر ما يوجعني كلما تأملتها رغبةٌ بالركض خلف العربة، ليس كفتاةٍ جميلةٍ تداعب الريح فستانها، وليس كفراشة رقيقة يغريها اتساع المروج، وليس كطفل عابث يستهويه التعلق بالعارضة الخشبية ؛وإنما كجروٍ صغيرٍ يلهو في أقصى اليمين .

لا أدري لماذا كان عليَّ دائما أن أحمل تلك اللحظة معي ؟!

*****

ساعات من نومٍ متقطعٍ، انتفضت على حلم أضعت نصف تفاصيله، اخترقت الشمس النافذة وأرسلت وهجها بفتور، وفي روحي فيروز تردد " أديش كان فيه ناس"، يوما ما سألفظ هذا العالم، سيختفي كل البشر، سينتهي كل شيء ، ويظل يلح سؤالٌ واحدٌ: "كيفَ أسامحه والمسافةُ بيننا أطول من جملة "طمني عليك ؟ "

أفقت من شرودي على صوت رنين الهاتف.. كانت غيدا ء..

. كنتِ فين، طلبتك كتير.؟

. نمت .. ساعة يمكن .

. مش مصدقة !

. حقيقي نمت .

.يااه ..ساعة بحالها.. إجازة بقى !

كنت قد طلبت إجازة وبوقت لا تسمح فيه المجلة بإجازات، لم يتفهم خالد حالي حينها، وظنها محاولة لاتخاذ موقف سينتهي كالعادة بقبلة

opeikandi.com

لصالحه.. في مساء ما قبل الضجر، لم أجد مفرا من الرد على هاتفه، جاءت عباراته ثائرة، سألني بضيق: فينك؟ موبايلك مغلق من يومين !

تركته حتى أفرغ ثورته، وعندما سكت أخبرته أنني أرتب لمفاجأة، وعندما أصر أن يعرفها أقسمت ألا أفصح عنها حتى أتمها، وطلبت منه إجازة مفتوحة من العمل حتى أنتهي منها .

سألتني غيداء عن أول أيامي كعاطلة، حدثتها عن وقت مشحون بالحركة مابين خزانة ملابس تنفجر كأنثى بمخاض، وغبار عالق بشيش الشرفة والنوافذ، ونصف ساعة من الهرولة ما بين الموقد والبراد، كان لابد بعدها أن أنفذ لبقعة هادئة تسمح لعقلي المعتل بالعودة تحسبا للكتابة .

رتبت البيت كمن تترقب زيارة من مسئول، انتبهت لشاشتي الحاسوب والتلفاز وقطع الكريستال بالمكتبة، بعض البقع الداكنة تحت أصص الزرع، البخار المتراكم على سطح مرآة الحمام، لم يكن مخيفا أن يستغرق العالم في غيبوبة ،ووحدي أقاوم رغبة بالنوم لأعيد تنظيف قرميد المدفأة أو مقابض الأبواب، أو ألواح الباركية أو حتى لتبديل مياه حوض السمك بزاوية ينعكس عليها الضوء، لم تكن الطحالب الخضراء بالحوض سيئة من وجهة نظري :لأنها منحته مظهرا أكثر عشوائية، حتى الأعمال الكاملة لدرويش وجدتها أكثر بهجة حين وضعتها بدون ترتيب كمزاجي، وكذا رف المناشف بخزانتي, اكتشفت

obeikandi.com

أنني أضعت بشقة روكسي الكثير من الوقت أقاوم الوحدة بأصوات أصدرها عمدًا، هذا الاحتكاك المبهج حين أزيل الصدأ عن الشمعدان، هذا الصفير الخافت حين أنفث الدخان ،وأنا منهمكة بغسل الصحون، أزيز محضر الطعام حين أديره فارغا، بندول الساعة الذي أحفزه للمسير، وإمعانا في الصقيع تخلصت من عاداتي الشتوية السيئة بركل أغطيتي الثقيلة ،ونزع ملابسي الصوفية بينما أخطط لغزو ماكر مباغت لكل الفراغات .

كثيرا ما حفزت اليقظة بفناجين القهوةِ .. سئمت الأقراص المنومة ،واضطراري للقبول بها كحلٍ مؤقت ينقذني من أفكاري، ومن وسواسٍ يتداعى بنفس الهاجس يوميًا، يلازمني كقرينٍ، ماذا لو لم أنم، ماذا لو لم أنم، ماذا لو لم .. أنم ؟ !لمَ يعطونه تلك الأهمية.؟! تراه يهادن أحلامهم أم ينسيهم عذاباتهم!

كتبت عن الذين يسعون للنوم بطقوس غزلٍ آليةٍ تتركهم منهكين، وفي حالة استسلامٍ تامٍ للنعاس، أو الهاربين إليه عمدًا بدخان الماريوانا والماري جان، أو هؤلاء الذين يربطون بين السكتات الدماغية المحتملة ونوم يسبقه فيلم مكرر بتلفاز أو قراءة متأنية لصحيفة قادرة على إفساد مزاجك حتى الرمق الأخير .

همس كريم الرفاعي بأذني ذات مرة، وهو مصورٌ صحفيٌ زميلٌ بالمجلة ومتعاط للماري جان، قال أن ما أظنها سُحبا زرقاء هي معجزات

obeikandl.com

صغيرة قادرة على التعامل مع الروح بمنظورٍ أبعد من فهمي المحدود، جادلته في البداية حتى هاجمتني نوبة صداع كادت تفتك بي، وربما أن الميزة الوحيدة بعدها أنني استوعبت نوعًا جديدًا من موسيقى الريغي، استمتعت به وكنت أظهر العكس، كنا نتجادل حتى نصل لمنطقة اللاعودة فأصنِّفَه كهيبي؛ فيثور وينعتني بالتافهة ،ويظل يتحاشى كلانا الآخرَ ليومين، ثم يعود ليفتعل حديثًا وديًا لينهي الأزمة.

قررت أن أتعامل معه كمجنونٍ، من ذا الذي يجادل مجنونًا، تباهى هو الآخر بقدرته على الاستمرار بلا نوم لأسبوعٍ كاملٍ ،ومن دون إغفاءاتٍ ولو قصيرة.. وحين تنتفخ عيناه ويسوَّد جفناه يلف إحداها؛ فتنسحق إراداته متماوجة مع دخانها الأزرق، ويغيب العالم ويذوب الإحساس وتعتم الرؤية ، أطلق على نفسهِ الدرويش، أدهشني جفناه الثقيلان وكفه التي تمسك بالمسبحة، وتعض عليها كما تتقن لف السجائرِ، كفٌ منكهةٌ بالمسك، والأخرى تعطرها زيوت الحشيش، فوحده الحشيش-برأيه- قادر على ترتيب حياته المعقدة، ينسيه وجوههم، سخافاتهم المتكررة، حتى أنه يقربه- بظنه- من الله، مثله يخلق عالمه حسبما يريحه، ومثلي على قناعةٍ تامةٍ بوجوب عوالمنا؛ لأنها منح المتاح بقائمةٍ محدودةِ الخيارات، ومع ذلك كله كنت أدرك طيلة الوقت أنني لو استطعت القبض بروحي على لحظةِ عشقٍ صوفيٍّ خالصٍ لكانت النجاة، لذا لم أنتظر الإشارة، أهمُّ للصلاةِ بباطنِ الليلِ كدواءٍ ناجعٍ ، ودوما ما يكون النهار مزعجًا وسخيفًا ومزدحمًا وحارًّا، وهناك تخذلني الإرادة ؛ فتجذبني فخاخهم .

obeikandi.com

لا أدري كم من الوقت مر منذ اختفى صوتها، حتى فاجأني الرنين من جديد.

. كنا بنتكلم، رحتي فين؟

. أسفة ..

. عادي ..

بدت لهجتها كما لو كانت تكز على أسنانها فبادرتُها قائلة ..

. قلت لك آسفة ..

. مش هاتصدقي شفت مين !..

كنت بمزاجٍ لا يسمح بحل الأحجيات، وعقلي مسافرا إلى حيث يمكن أن يكون، طالبتها بالتوقف عن أسلوبها أو لتصمت فأذعنت مضطرة وقالت:

. ديبو !..

. عبد الرحمن؟!

. أيوه عبد الرحمن ..

obeikandl.com

. بتهزري؟

. لا بجد ومكانش لوحده، كانت بنته معاه ..

. يعني بلد فيها ٢٠ مليون بني آدم ما تشوفيش منهم غيره !..

. هاكدب عليكي ليه؟!..

. وبعدين؟

. لما آجي هاحكيلك .

اعتدت أن أناديه بـ ديبو وكان يكره ذلك؛ فعلى الأقل ديبو أفضل من بيدو التي كانت نيفين تداعبه بها، ديبو أقرب روحًا وملامحًا إليه، كانت عيناه بعمق وحدة عيني ذئب، في يومي الأول بالجامعة بدت الأمور غريبة، دخلت من الباب الرئيسي، الشبان يقفون مع الفتيات بشكل عادي، أو يجلسون إلى جوارهن، يتبادلون النكات وكثيرا من الكلام، هذا المشهد جعلني في حيرة من أمري، إذ كان على بليلة سابقة أن أقسم لمجدي أنني سأصبح حاسمة فيما يخص علاقاتي ، سألت طالبًا يقف أمام أحد المدرجات عن مكان كلية الإعلام ؛فنظر إلي بتمعن وقال: خدي الاتجاه ده للآخر ولفي مع الدوران.. هتلاقي المبنى في وشك، نفذت ما قاله بالحرف، بسيري تأملت الفتيات المدهشات ببلوزات ملونة ومكياج صارخ، وقصات شعر مودرن، يتضاحكن ويتحدثن

obeikandl.com

بصوت عال، وكنت قد حملت ضيقي ومخاوفي من العالم ،واختبأت خلف بلوزة قطنية فضفاضة وجونلة كلوش ،ورفعت شعري بشكل ذيل حصان، فوجئت أنني عدت لنفس المكان أمام نفس الشاب قلت له: مش من الذوق اسألك وتتعمد تتوهني ، اعتذر عما أسماه دعابة ،وقال بتهذب: عبد الرحمن يوسف ،ومن النهاردة اعتبريني دليلك في الجامعة، ومنذ يومها اعتبرتني نيفين منافسة قوية لها .

أغرمنا بحماسه، كان ثوريًّا ممتلأً بالشعارات، متخما بالسياسة حتى ظننت أنه يتنفسها، تراهنا من فينا يمكن أن تسأله عن أجمل اللقبين ليختار بينهما، لم أظن بنت الحسب والنسب تفعل، سيمنعها كبرياؤها من دون شك، لكنها فعلت، اندفعت إليه بالكافيتريا لتسأله ببساطة، فقال" أكره الاثنين كرهي للعدس وجوركي "جاء عبد الرحمن بعدها يشكو حصارها، تارة تصر أن تقله بالسيارة، وأخرى تدعوه لغداء فاخر. وثالثة تهديه عطرا رجوليا من نوع غالٍ، أدهشني صموده، تلك هي الحالة الشعورية التي سيطرت عليها وملأتها تصميما على الفوز به، فأصبح دائم الهروب منها وكثير اللجوء إليَّ، ولما حسبت البنات الزواج حينها منتهى الإنجاز، كان من الطبيعي أن يحلمن بحلقة من الذهب تحيط بأصابعهن، وبقينا نحن الثلاثة ننتظر ويرقب أحدنا الآخر، كنت الأخيرة سعيا للمنافسة والأولى انبهارًا بمجلات الحائط التي يصممها كمحترف، وبمقالاته السياسية شديدة اللهجة، لم يرفع شعارا بعينه، بل ناور في كل الاتجاهات، أهداني كتبا عن الاشتراكية، وكنا نتناقش دوما ،وعندما استحال النقاش لكتلة من المصطلحات

المفخخة على شاكلة " ليبرالية، بيروستريكا،ماركسية، لينينية، سياسة مالية توسعية" توقف عقلي عن الاستقبال، وظللت أسمع باهتمام، أفرد لي مساحة لكتابة القصص بمجلته، وظلت الموضة ورحلات الصيف شاغل نيفين الشاغل مع محاولات مستميتة للاستئثار باهتمامه، استحلبت لذة شريرة أقرب للشماتة عندما نعتها بالتافهة، درست ردود أفعالها المختلفة بينما تختفي عن الأنظار لتخطط لشيء جديد، لمحتها مرة تتعثر بظلها، وضحكت.. منذ يومها تناديني غيداء بالشريرة.

غريبٌ هذا الأمر فكل ما تبقى مجرد محاولة للتعرف على الكنية وأسبابها، بضع أحاسيس تدافعت ،ولم يكن بينها شيء ذو قيمة، بدت في المجمل تفاصيل بعيدة أتابعها ببلورة من زجاج، تذكرت جملة قرأتها لروائية معذبةٍ بأنوثتها ومكبلة بذكورتهم تقول: " حين يلوحُ في البعيدِ سربُ يماماتك الموشومِ بكفِ القدرِ, أدرك أن الانتظارَ خدعةٌ يمارسها الزمنُ بحقي ليهذب من رعونتي ."

كنت على قناعة تامة أنه أكثر لحظات الانتظار مللاً وأكثر الخدع سخافةً على الإطلاق، حاولت كثيرا بعده أن أطبب الجرح الذي تركه لي، يوم أن اتهمني بعد ثلاثة أعوام بالجامعة بأنني رومانسية أكثر من اللازم ،وبأنني أصدق " كل الشعارات الكدابة" وأن الحياة من دون قرش لا تساوي قرشا، يومها أدركتُ أنني راهنت بحياتي على حصان أعرج يسابق وحيدا في ميدان .

أفقت من أفكاري لأجد صوتها قد غاب، لطالما احتملتني بصبر غريب، ظنتني مريضة يئست من الشفاء فاستسلمت للمرض - أو هكذا خُيِّل لها - كنت ألمح بعينيها أمومةً مفتقدةً، ولم تفلح وظيفتها كمذيعة بإحدى القنوات الخاصة أن تشغلها، برغم الراتب الكبير والأزياء المبهرة ،وحتى لون الشعر المثير الذي اختارته، يكمن عذابها في رفضها حقيقة أنها الزوجة الأولى لرجلٍ لم يحتمل عزوف رحمها عن الحياة ففاجأها بزيجةٍ ثانيةٍ من امرأةٍ أول ما اجتذبه إليها اسمها بصفحة التواصل الاجتماعي، رهف سورية الجنسية خارقة الجمال، مازحتها قائلة بأنه "انجذب لنهديها النافرين بصورة البروفايل، وليس لاسمها بالغ النعومة " .أكثر ما أرقها فكرة الناس عن الشاميات كونهن مكتملات الأنوثة مفعمات بالغنج ،وموهوبات في افتعال مواسم الغزل الشهية، وقادرات على اجتذاب أكثر الرجال شهوة وفحولة، كانت لتحتمل غريمةً مصريةً برضا مصطنعٍ؛ بينما تفتك بها الغيرة لأن شريكتها فيه من جنسية أخرى- تماما كحالي- ربما لم يشغلها عن تلك المشكلة غير مرض أمها بالعامين الأخيرين، ضبطتها تبكي أكثر من مرة أمام مرآة الحمام، لتخفي وجهها بعدها ،وتتصنع ابتسامة ميتة، ليتها ما فعلت، تعابيرها ذبحتني .

اتسعت القطيعة بينهما، واستحالت لقتالٍ موجعٍ، كلاهما يراهن فيه على الصمود، قامر على أشواقها ،وكانت توقن أنه سيعود، أرهقت لياليها المؤرقة بانتظار هاتفٍ يبثها أشواقه- فقط لو يتخلى عن جموده- ومع ذلك احتوت اسمه بجوالها طيلة المساء، قاومت خوفها من

التصحر ببعض ومضاتٍ منبهةٍ بالذاكرة، فهزمتها الهواجس ، فتكت بها حنينًا إليه، ذكرتها بأنه من لملم حاجياته ورحل، دفعتها لبغضه وحبه وانتظاره والملل منه، بثتها صورًا ليليةً ساخنةً عن لقائهما كل ليلة .

. وكأنك عارفة عنهم كل حاجة ؟

. نفسه في طفل .

.كلهم بيعملوا ده طول الوقت ومن غير مبررات .

. كل ما أتخيلهم مع بعض بأموت .

. حتي المخلص بيتخيل في مراته" ميج رايان" عشان يستمتع .

. مش عارفة أعيش ...

. اشحني نفسك ضده تلات مرات في اليوم، هاتبقي كويسة .

خدعتها حين قلت ذلك، ولكنها محاولة قد تفيد، لن يكون القدر بخيلا فيضن علينا بفرص جديدة لننسى عذابنا، ولن نستغلها أبدا كلما داهمنا الحنين لأحدهم، سيحركُ دائما العلاقةَ انتظارك لهاتف صباحي منه - كنوعٍ من الدعم التقني لذاكرةٍ ترفض أن تموت – لعله الخوف من الغد الذي لا يحمل رنات هواتفهم، ولا حروف رسائلهم ولا اخضرار فصولهم .للمرة الأولى منذ فترة تخونها دموعها أمامي وتبكي ...

obeikandi.com

. أنا ميتة من غيره ...

. هاتنسي مع الوقت، ويمكن تسألي نفسك عن اللحظة الفارقة بين زمنين، تمام زي إحساس الدايت، جوع في البداية، وفي النهاية بتتعودي .

كنت أهاتفها يوميا لأكثر من ساعة ؛لأمارس دور طبيبة نفسية لامرأة تخلت عنها نفسها، وسلبتها الذاكرة كل فرص النجاة، تقول: يفعل شادي، يضاجع شادي، يقبل شادي، يثور وينفعل، يروغ وينفلت، كما لو أنها رتبت الأمور بذهنها من أجل أن تحكيها لي، ربما انتظرت هذه اللحظات بفارغ الصبر لتفرغ جعبتها، أمور كثيرة مربكة ومحيرة، لا تقولها إلا امرأة لامرأة، أشياء حميمة وخاصة، فآمرها لتكف عن استحضار صور رجولته، ولتهب كل أوراقه وصوره للعدم .

صديقتي التي ضمدت جراحها أهدتني جرحًا بحجم نافذة ،وغمامة بوجه الصباح حين حدثتني عنهم، حين ذكَّرتني بأنني أواجهها بثورة حين أشتم ضعفها، وأنا أكثر هلعًا منها حين يمرون بالذاكرة .

كانت ترقب الوقت بصبر لتذكرني بموعد البرنامج الأسبوعي للداعية الوسيم، لتغرق في وصلة بكاء حين يرق صوته بالدعاء؛ فينهنه الحضور، ولتظل تلوم نفسها على انشغالها بأمور دنيوية زائلة، مدت إجازتها، وبنفس الصيف غطَّت شعرها وكثيرًا من الألق احتجب، حضرت دروس الدين، صلَّت قيام الليل، ناقشت عرض عمل بقناة

فضائية خاصة بالمحجبات، كان برنامجا يناقش أزمات الفراش بين المتزوجين وأزمات ما بعد الطلاق، وفي النهاية اعتذرت، ازدادت عزلة وتعلقا بدرس الداعية ،وأصبح التلفاز ملاذًا هانئا للمحبطة .

. شوفي إزاي حصَّن نفسه بالقرآن ومسابهاش للشهوات، شوفي كام فنانة مشهورة ربنا هداها بسببه ..

في الشتاء الذي يليه ازدادت شحوبا، وغريمتها جمالا، وزوجها بُعدًا، وصلاتها تقطعا، وبعدها خفَّ إحساسها بالذنب، عادت لعملها بحجة الفراغ ،وصبغت شعرها بلون جديد، وسواء كنت مقتنعة أم لا تركتها تفعل من دون أن أعلق بحرف، كنت شبه متأكدة من أن ما كتبه الصحفي "ضياء الحسينى" بعموده اليومي عن الشفاء بالقرآن، وحلقات الذكر بأضرحة الأولياء لم يكن مجرد بدعة؛ لأنه تكلم عن تجربةٍ واقعيةٍ خاضها بعد وفاة زوجته وجنينهما بحادثٍ، وكيف أنه تخلص من آلامه بالذكر في حين فشل طبيبه النفسي في علاجه، لم أجده درويشًا ككريم. وكما أدهشني الأول بأسلوبه البوهيمي، أقنعني الآخر بوجوب العودة لله ؛لأنها محطة مؤكدة للذات؛ لذا حين أفعلها أكون على قناعة تامة، أمارس طقس استرخاء أقرب للتطهر، أغمر نفسى بالماء بحوض الاستحمام لوقت يقارب الساعة، تحتضنني فقاعات الصابون ممتزجة بعبير الياسمين، أوقد شمعتين كبيرتين فتطلقان عطرهما الطيار، أشم اشتعال الزيت وطقطقاته، أتعرف على نفسي حين يزداد الوميض، لا أتوانى في غمرة انتفاضتي على نفسي

أن أدفع روحه مؤقتًا، فلا يعتريني شعور بالذنب حين أنشد الخلاص، بلحظةٍ محددةٍ أعلن أنني اكتفيت، وبرحلة كشفية للتنقيب عن الحقيقة أقر بأنهم ليسوا بأشباحٍ مخيفةٍ تسعى للنيل مني، ولا قتلة بانتظار دورٍ رئيسي بمشهدٍ دموي، هم على الأرجح مجرد كوابيس ليلية انتابتني بعد عشاءٍ ثقيلٍ، أو ربما ضلالاتٍ وهلوساتٍ سببتها الوحدةُ واللوذُ بالوهمِ.

أخرج من الحمام، بعد أن اغتسلت وتوضأت، أبحث عن سجادة الصلاة، أصلي، وبين دفتيه الآمنتين أعلن الشفاء بـ "طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى..." أعود بظهري للوراء، ارتكن للجدار، أزفر زفرة حارة، لتلتهم عيناي نصوع السقف، ودائرةً مضيئةً بالمنتصف، بأحد الأركان تدلى خيط رمادي رفيع لنسج عنكبوت ينتهي لشبكةٍ سداسية التكوين، ترتكز عيناي إلى بؤرتها، اتساءل مدهوشة: كيف أفلتت مني؟!..

*****

كان المطر الذي تساقط ليلة أمس قد توقف وترك بركًا صغيرة يتقافز عبرها الصغار، وكان البشر القليلون يمضون بسرعة لا تتطلبها الأرصفة شبه الخالية، ارتدت عيناي عن المباني المبتلة لتركض خلف الهررة بالشارع، كان نهارا غائما أمضيته كله بالفراش، لا أذكر أنني غفوت ساعة على بعضها، عقارب الساعة تشير إلى السادسة مساء.

تطرق لأذني صوت تلفاز الجيران، هممت بالذهاب للمطبخ لصنع كوب من القهوة ،لولا الشعور بالحرقان بكلتا عيني، تذكرت الأمس وما حمله من كآبة، قفزت لذهني صورة مدير النشر بعد أن سمحت لي حمراء الشعر بالدخول، كان جالسا خلف مكتبه، واضعا على أنفه نظارة للقراءة- لم يهتم بدخولي كثيرا- أشار لي بالجلوس، قال بالحرف الواحد .

. مش عارف .. عاجباني فعلا بس فيه حاجة ناقصة.. أنا متأكد .

قلت بضيق :

. من فضلك لما تعرف كلمني .

نهضت من مقعدي، نزلت إلى الشارع، تذكرت كيف قدت السيارة ،وكيف توقفت بها بشارع جانبي؛ فلا يلحظ الناس بكائي، أحتاج لزوجين من العدسات، أحدهما طبي والآخر يمنحني نظرة مرنة للأشياء.. أشعر بعدم الإنصاف، لا أعرف ما الذي يعيب الرواية، أمضيت عاما كاملا أضيف هنا وأحذف من هناك.. وكانت النتيجة غير مرضية، سألتك عن نقاط ضعفها قلت إنها البدايات، وقلت اذهبي، واجهي أشباحك، جديهم تماما أو لا تكتبي عنهم .

للذهاب إلى الزيتون وجع لم أكن مستعدة له.. لكنها ظلت فكرة تواجهني بوطأتها المعذبة، تركتها مؤقتا لكتابة مشاهد لحلقات إذاعية

obeikandl.com

مدتها ثلث الساعة، وجهتها للذين يتعاملون مع مدمني المخدرات، والمرضى النفسيين بشكل خاص.

حلقة الأسبوع الماضي كانت عن الفصام، لم أكتب عن تفاصيل المرض، وعقب عنه بنهاية الحلقة أستاذ علم النفس الشهير، فبعضهم يقضي الليل محدقا بالسقف تأهبا لسقوطه، رافعا يديه إلى أعلى، متوهما أنه يسنده بهما، عرفت أن لهذا المرض اسم" كتاتونيا"، وأن المريض يظل على تلك الحال لساعات، ربما ليوم كامل، حتى أن من يراه يظنه يمارس رياضة اليوجا، قرأت عن رجل ظل بمخبئه طوال ثلاثين عامًا خوفًا من نشوب حرب، ومات مؤخرا ليس من ضيق تنفس، وكذا لم تطبق عليه الجدران؛ وإنما التهمت الفئران نصف جسده المتيبس، بعضهم يقلقه الموت، فيتحسس فراشه وأغطيته في كل لحظة خوفا من لدغة حية، أو يعزف كليًّا عن نوع طعام سبق أن عرضه للتسمم، وآخر يراهن على أسباب الموت المختلفة ويربطها بكوابيسه ورؤاه، ترددت على عيادة لأحد الأطباء النفسيين قرابة شهر لأكتب عنهم.. أصبحت أعرف تماما كيف ينشأ الجنون، وفهمت كيف أميز بين مرضى الهوس ومرضى الهياج، لحظات فاصلة فيختلط الصوت بالضوء والساكن بالحي، ويتدفق كله كنزف بركاني ولا ملاذ، على الرغم مما نشر لي من تحقيقات وقصص بالفترة الأخيرة شعرت بحالة من عدم الرضا، شعور باللاجدوى يتملكني، لا جديد مهما نلت من تقدير، لا شيء يثير الدهشة، أو يستحق الاهتمام.

بالمساء جلست للحاسوب، أضاءت نافذة الرسائل بستٍ جديدة، لم أفقد الأمل في رسالة منك، تفقدتهن، بعث الناشر بتقرير مفصل عن الرواية، حدد بنهايته التعديل المطلوب في نقاط، وشدد على ضرورة إنجازه لتلحق بالمطبعة.. ثم قصيدة عمودية من سلفي يكتب الشعر سرًا ويسميني الملهمة، وبرقية شكر من أحدهم لقبول الصداقة مع رغبة مشددة بضرورة التواصل، ودعوة لحضور كورس ببرنامج تنمية بشرية بأحد المراكز الثقافية..وأخرى للمشاركة بوقفة صامتة احتجاجا على مقتل الشاب السكندري بأيدي عناصر شرطية، والأخيرة لم تكن غير اقتراح مهذب من قارئ باستبدال عنوان عمودي اليومي ليصبح " رؤية " بدلا من" لمحة .."كنتَ تراسلني يوميا بهذا الوقت، ترسل قلوبا وأيقونات مضحكة، بعض زهور برية وصور جياد وجُملا معكوسة لن يفهمها سوانا.. طال غيابك هذه المرة، لم تجب على رسائلي، ولم تتصل .تذكرت كل ليلة كنت أستيقظ فيها لأجد خيالي بجواري، أفقت ليلة الأمس أكثر من مرة، رفعت رأسي لتطالعني صورتك، كنت وسيما برغم أعوامك الخمسين، فكرت أن أتصل لأصرخ فيك" ألم تنتهيا بعد ؟ كنت أتساءل كيف تحتمل امرأة رجلا يضاجع غريمتها يوميا؟ وكيف تستمر في الحياة برغم يقينها من ذلك، ثم تعود ببساطة لتخط اسمه مفردا " خ ا ل د " بكل صفحة قبل أن تكتب حرفا.. الأمس حلمت بك برغم أنني أقاوم حبي و جنون مشاعري، نهضت من فراشي، أمسكت هاتفي، ترددت كثيرًا قبل أن أكتب"أيها الخالد .. كل هذا الغياب من دون وداع" وفي النهاية حذفت الرسالة .

كان صباح اليوم التالي أكثر غرابة، لم يفتح الباب طوال النهار حتى لبائع اللبن..أزحت ياقة القميص عن عنقي، داومت على تمرين الاسترخاء لثلاث دقائق، امتلأت بالرضا، أعدت على نفسي الاكتشاف ذاته، فاليوم الذي عادوا فيه كان عاديا، عاديا جدًا..فعلت نفس الأشياء، بغير ترتيبها ربما، قرأت نفس الجرائد، تناولت قهوتي، تجاوزت عيناي نافذتي المتسعة.. الضيقة جدًا، حاولت أن أرى شيئا غيرهم فلم أجد، واربت النافذة، التقطت عيناي فوضى الخزانة، واجهت اصفرار فستاني بوجه باهت ممتقع، أزحته بعيدًا، اتصلت بالشقراء ذات اللثغة لأؤجل موعد الأديب الكبير، استلقيت على الأريكة وعيناي تتساءلان هل مروا فعلا من هنا.. سيدة الشال، والرجل الضخم ذو الشارب وأنثى العلكة وصياد اليمام من دون أن يتأذى أحد؟! اكتشفت أنني لم أكن مضطرة للجلوس على عتبة منزلي لخمسة عشر عاما ؛كما فعلت" برتا" برواية "باولو كويلو" لأعرف أن ثمت شياطين تذهب وتجيء في كل لحظة من دون أن يؤدي حضورها بالضرورة لارتباك الأمور، لأنها ببساطة تطوف العالم لترى ما الذي يجري، ولتختبر هذه الروح أو تلك ". أدركت ذلك حين تفقدت صورهم فوخزني الجرح القديم، سبع مرات كافية لأدرك أن الغرس بغير موسم خطأ كبير، لماذا اضطررت لفعل ذلك سبع مرات؟ لعله الخدر الذى ينتابنى كلما لمحت نصوع أسنانه وانفراجة شفتيه حين يهمس "أحبك". كم مرة تلزم الهرة لتدفع خجلها قبل أن تلتهمها فتحة الباب لتظفر بوجبةٍ "عَلَوِية"؟ كم مرة عليها أن تقاوم هذا الهاجس لتبرهن على مرونتها ،

ولتثبت أن الفراغ المحدود قادر على استيعابها، تسللت برشاقة منجذبة لشعاع الضوء النافذ مابين شطري الباب، متوسطة الردهة بقدمين بيضاوين، غريب أن يبدو المكان بهذا القدر من الاتساع !

كان النقر الخفيض على الشراعة آخر المسافات الآمنة، ذاب الخجل كما يذوب الثلج على سطح ملتهب، بدت الصالة أكثر اتساعا من براح السطوح، تساءلنا مرارا من فينا يصعد إلى السطح أولا، أذكر أننا مرة تسابقنا إلى الدرج الخشبي لنمسك بيمامة قال أنها تشبهني، عجبت له، كان يكتب الشعر ويهديه لطيور الكون التي صادفت وجه حبيبته في تحليقها البعيد، لم تكن غير يمامة بعينين وادعتين وقلب من حرير . كان الفجر إشارتنا، ننتظر بشائر الصباح، يسبق أحدنا الآخر للسلم ومنه للدرج الخشبي، ويفضي لعارضة معدنية عريضة يرتكز عليها اليمام ليحدق فينا بنصف عين، تجاورها عشة للدجاج، تربع شبحه على العارضة، سبقني كالعادة للصعود وأسبقه دوما للنزول، تحدثنا عن كل شيء، خصال والدي الصعبة، ما إن أصف حالنا حتى يضحك، قال بثقة أن من له بنت بمثل جمالي لابد أن يصيبه الجنون، وإن الجمال أحيانا ما يكون نقمة على صاحبته، وربما كانت قسوته نوعا من الحرص الزائد بدافع الحب،

ملأني القهر وقلة الحيلة، أذهلني منطقه وعجزت أن أستوعبه، فالوضع برمته غريب، فمجدي كرجل يعاني من جبروت أبينا وبكل طاقات الإحباط الممكنة استحال لخيال ظل يمارس رجولته في

الخفاء.. حكيت عن حسناوات يسكن المجلات ويختبئن بدولابه مع بعض الكتب السرية، ناقشنا غموض المعلقات وصعوبة المفردات بقصائد امرؤ القيس، وزُهَير ابن أبي سُلْمَى، فألقى عليّ قصيدة سهلة للسياب، قارنت بين لغتها والأخرى بالغة التعقيد للأبرص والأعشى والذبياني ،وحين فعلت ضحك ساخرا مني، تناثرت بحديثنا كثير من الأسماء ..فدوى طوقان، مي زيادة، فرجينيا وولف، نجيب محفوظ ، يوسف أدريس، يوسف السباعي، دستيوفسكي، ديكنز .. كانت أحاديث طويلة منمقة، لم أتخيل أن عالما كهذا يفتح أبوابه لي، لم يكن عالمي سلسا إلا معه، وحده يلونه من دون رتوش زائدة ولا بهرجة، دهشتي كانت كبيرة وإعجابي به أكبر، قررت أن الساعات الطويلة التي أقضيها خاملة بغرفتي يمكن أن أستغلها في القراءة، اتفقنا أن يعيرني بعضا من كتبه، وأن أعيره بعضا من ضحكاتي.. لا أعرف أبدا سر الرضا الذي تسرب إليَّ عندما تأملته بظهيرة هذا اليوم، هل كان قميصه الجديد أم الشمس التي داعبت عينيه فتلألأتا؟ وددت أن أترك لعيني حرية التجوال بملامحه، لكن شيئا ما حدث حين قال ..

. وحشتيني ..

وصلني صوت أمي، تلفت خلفي، صفر "علي" بحدة وأشار للسماء، رفعت رأسي، لمحت الطائرة الورقية لـ لجارنا الأخرس"عمر" تتماوج مع الريح بشكل انسيابي وعلى ارتفاع كبير،كان ولدا مدللا ومكورا كدب باندا، وحيد أمه مع بنتين، التفت إليه لأتذكر صراخها قبل عامين

ومداسها ينهال فوق مؤخرته بينما يضحك ببلاهة ممسكا بذيل أسود فاحم؛ لم يكن غير ضفيرة أخته وثبتها كذيل للطائرة.

فاجأني علي بقبلة على خدي، أطل "عُمر" برأسه من السطح المجاور بينما عيناه تجحظان، برز كشيطان، نادت أمي بصوت أكثر حدة، قهقه عُمر فالتجأت للركن وبكيت.

. شافنا

. أنتِ جميلة قوي.

. شافنا يا علي.

.حتى وأنت بتبكي جميلة.

.بقلك شافنا

. أنت إلهة يا جورية ..

رسمت ابتسامة شاحبة.. أسرعت للنزول قبل أن يعود صوتها، كنت أحدث نفسي بأنه لقاءنا الأخير، ليكن موجعا إذن حتى يبقى في الذاكرة، افتقدت علي وبدا السطوح كابوسا كلما أمرتني أمي بالصعود لأطعم الدجاج، تعللت بكثير حجج، لم يمنعني سوى عيني عُمر الجاحظتين وبياض أسنانه وبسمته الصفراء.

obeikandl.com

أسبوع من ترقب مخيف وانتظار لأشياء ربما لا تأتي..بهذا الأسبوع كان عليٌّ يكتب الرسائل ويجمعها بصندوق متحينا فرصة للقائي من دون فائدة، صباحا وقبل أن يمررني الميدان إلى المدرسة فاجأني وقد وقف قبالتي، أنفاسه قريبة إلى حد كبير،تضرجت وجنتاي بالخجل، وتصاعد الدم إلى رأسي، دس بيدي رسالة وانصرف، ألجمتني المفاجأة؛ فأخذتها بينما أتلفت مضطربة، لمت نفسي بعد أن قرأتها ..دفنتها عميقا برمال الحوش.. جاءت البنات مسرعات يتفقدن الخبيئة .. قذفتهن بحفنة من الرمال فانصرفن مهرولات.. لملمت خبيئتي قبل أن تلحظني المشرفة ،ويصبح فصلي أمرا حتميا.. بدورة المياه كان المستقر لقطع صغيرة من الورق أكبرها بحجم ترددي. " أنت لا تفهمين جورية.. توحشتك كثيرا، هذا قدري أن أنتظرك فجرا كل يوم من دون فائدة أو أرقبك بذهابك في الصباح وأيضا من دون فائدة .. ثمة أسباب تدعوني لرؤيتك، أولا المجلات الأمريكية التي وعدتك بها، ثانيا آلتي الموسيقية الجديدة، ثالثا وقبل كل شيء وربما لن تصدقي .. توحشتك أكثر من يمامتي المدهشة.. تعالي جورية في الخامسة.. ستغيب أمي ليومين.. ستكتشفين أشياء كثيرة عني فقط لو تحضرين.. عديني أن تفعلي .

أحبك "

ما الذي أفعله بنفسي؟! ما الذي أفكر به؟! إنه الجنون بعينه. خرجت من الباب في الصباح الباكر، تمهلت في استعداد مهيب للغياب عن المدرسة للمرة الأولى من دون إذن، ملأت الوحشة قلبي، جلست على

الدرج للحظات، كأنني أرى الباب لأول مرة، صارعت هواجسي، تساءلت عن معنى انتظار رجل لامرأة وكلاهما مفتون بالآخر، رغبت في التراجع، قدماي تقوداني إليه وروحي تخذلني، طاردتني صورة لعاريين يمارسان الجنون، طمأنت نفسي بصوت عال" لن يحدث طبعا"، أزحت العلل جانبا، وقفت ببابه، ضغطت أصابعي زر الجرس، لم يكن بحاجة لأكثر من هذا، كنت بالفعل هناك بتلك الغرفة الوردية تحيطني جدران ومروحة سقف وبعض صور لجيفارا وصورة لها، هل جننت لهذا الحد حتى أني هيأت نفسي لقبلة على الجبهة واتكاءة على المقعد بينما أتصفح مجلاته؟ ربما أسرتني صورته بينما يداعب الآلة الموسيقية، يهبها بعضا من أنفاسه ويهبني بعضا منه، وربما همست لنفسي وقتها أنه من المستحيل أن يحدث بيننا أكثر من ذلك ببساطة لأنني أستمتع بأكاذيبه وأسميها " مراودات". ربما لأن كل مارغبته مجرد إغفاءة على صدره، بعض عطوره، بحة صوته، لكن لم يخطر ببالي أبدا أن نتصفح معا فن الهوى "لأوفيد".

. إيه كل ده؟ !

. تكاوين الأجساد كلها سحر.. ده فن يا جورية مش مجرد عري.

. يا ريتني ما جيت.

. يا ريتك ما اتأخرتي.

. أقولك سر ؟

. أنتِ أجمل أسرار عمري .

أي سر هذا الذي أخفيه؟ شعرت بخجل كبير، حتى الحماقة لها درجات، لم يرقني هذا التحايل على الضمير لكن شيء مايقهر مقاومتي ، ليته طيف نوراني يأخذ بيدي لنصُلي .. لكنهما يداه بدأتا مناوشة ..

. مش بإيدي يا جورية، أنا ما حسيتش إني عايش غير لما لقيتك .

مخيف هذا الإحساس، لم أستطع تخطيه برغم أن كل خلية بي تنطق باسمه، فكرت في الله، ذكرتني بصلاة لم تتم لهذا السبب تحديدًا، بحثت عن النقطة المضيئة بداخلي ،وكان في الوقت ذاته يسارع بمحوها..حدقت في السقف، ماذا لوسقطت المروحة الآن؟ سأكون آخر لوحات الجدارن ويسكن كل شيء .

. إنت مش عارفة أنا حاسس بإيه، لو كنت مكاني هاتعرفي، تعملي إيه لو ربنا بعتلك أنثى بروح طفلة لو بكت يرتعش القمر ولو ضحكت يغني سرب يمام .

كانت روحي موارِبة كـ " شبابيك" منير، اللحن خافت، ترك خدرا يليق برهاب اللحظة، رحت بغيبوبة و لم أشعر بسواه . وحده هنا، لم أدر إن كنت أوصد نوافذي أم أفتحها عامدة بيوم ريح، أغلقت عيني وملت

برأسي للوراء، برفق ضغط كفي،انحنى ليقترب من وجهي، لم تبتعد شفتاه سوى سنتيمترات عن شفتي.. استكنت، ذوبتني أنفاسه، التقت الشفتان، لفتني قشعريرة حين منحني قبلة أولى وتسلل ريقه لفمي، أخذني بين ذراعيه، قال أن لي جسد آلهة أوليمب يليق ببعض مئات من القبلات، لذا عليه ألا يختصر رغبته في مجرد واحدة، بعدها بدأ موسم التقبيل، رفع خصلات شعري من على جبيني في رفق، تطايرت فوق جسدي قبلاته المحمومة، فتحت عيني بذهول، تململت، لم يكن خوفا وإنما .. لماذا لمحت رضوى حينها؟! ولماذا كلما تسلل نواح الكناري تذكرت أمي؟.. ما الارتباط بين اشتباكين والتحامين وصمتين وصخبين برضوى ولماذا يهرب مني وجهي بالذات ؟

. أمي بتنادي يا علي .

الباب أبعد من القطبين ..

. هششش.. بيتهيألك ..

. كفاية يا علي .

أشحت بوجهي عنه، واجهني انعكاسنا عبر صورة كبيرة على الجدار.. بدا فيها شعر صدره كغابة من كافور وسنديانات، تساءلت عن اللحظة التي ستسقط فيها آخر أوراق التوت، حدق بي عميقا وكأنه يعيد اكتشافي، مرر أنفاسه وصنع زمنا من همس، تسللت أصابعه ببطء

obeikandi.com

لتتشابك مع أصابعي..أفلت أزرار القميص، إلتقمهما واحدا تلو الآخر، أسنانه الناصعة ضغطت نسيجهما الوردي، ارتد كطائش ليبيح لذة الافتراس ، وكأن الأرض والسماء والبحار والتخوم كلها تهيأت لتلك اللحظة، لمحت بعدها بعض زهيرات حمراء تتشكل أسفلنا والتقطت أنفي رائحة لم أشمها من قبل، همس بأذني :

. بحبِك ...

صرخت بعمق ووجهي مدفون به ...تصبب العرق من جبينه إلى عينيه ومن أسفل ذقنه إلى وجهي، مالحا حارا ..ترك نكهة من كل شيء، صخبا، جنونا، وجعا، جسدا موارا بالرغبة، وعند اقتراب النهاية عناقا حميما .

. صدقيني بحبِك .

فتاة السابعة عشر تفتش عن أرض مسحورة، أحلام اليقظة تعاودها، لن تتركها، خلاصها أصبح مستحيلا، لم تعد تتمنى لو تستعيد ثوبها المغلق، ساقيها المضمومتين، زهورها النازفة، وضميرها المثقوب، تتعاطف مع جسد أمها الساكن كبحيرة، لم يمنحها رجلها قبلاته الحارة.. لم يتركها مبعثرة لقطع من نار.. بعد جولة سريعة على مسامي سحب كفه بتأن واضح كي يعيد تدوير المشهد، موجوعة أنا يا الله، أطلق خيالي في سمائك، جردني من ضعف يصهرني، ومن صور تتأرجح لتعود إليّ، جناح الفراشة، كوب الشاي على الحافة، حبل اللبلاب

obeikandl.com

المتهرئ، روائح الشارع، غبار الكنبات، مصابيحنا المرتعشة ..وزجاج المرآة المشروخ، لكن من تلك هناك؟! أخرى تبصرها روحي عند انعكاس الضوء على الصور، أطرقت خوفًا، رفع وجهي، اعتصر الشفتين، تلاشى الضوء كما كل شيء، عاريان كنا إلا من نزق وشبح ابتسامة تخبو وبقايا مقاومة.. أربكتني ضحكته ونشوة عينيه، أخبرني لن تكون آخر ليالينا، كيمامة ذبيحة انتفضت، اقشعرت روحي، تمنيت لو يمنحني ضلوعه مرفأ فأغفو حتى الصباح، أو أنها الغيبوبة الأبدية، فلا يصلني صوتها، ولا تسألني الرجوع، حين هممت بالذهاب همس لا يريد أن أغادر، تثاءب الحزن بروحي فعدت لحضنه من جديد.

*****

لا أذكر شيئا من مراهقتي غير تلك الأوقات، تهبط من دون مقدمات كعصا لا تقرع دماغي، وإنما كآداة تنبيه تشير لهم في الصحو كما تدنيهم في المنام، تلزمني بالصمت أيضا، ذاك الشيء الوحيد الذي تعلمته والتزمت به كعادة يومية، في البداية كان الخوف من البوح فلكل منا سره الذي لا يعرفه سواه، والآن هو السكون الصاخب الذي يسبق تحقق النبوءات، الآن أردد كثيرًا أني خائفة، ربما من أن يتسع الفراغ أكثر فيلتهمني، فراغ الغرفة لا يمتلئ بدخان السجائر ليحجبني عن المرآة، ولا المطفأة تكف أبدا عن استيعاب رمادها.

كان مجدي يكره رضوى أو هكذا ادعى، كدت ألمح غيرة بعينيه، حتى ضيقه منها لم ينف تعلق عينيه بها حين تظهر على ناصية الشارع ولا احمرار وجهه وعبوسه حين اكتشف أن لها قلبا معلقا بنافذة أخرى تجاور نافذتنا .

. مش عاوز بينكم كلام بعد النهارده..

وجه كلامه لأمي بعدها :

. إيه يخلي بنت في سنها تلبس كده؟ وليه يجوزوها بدري؟

لم يعرف شيئا عن همسها بقاعات الدرس، ولا عن أسرارها المخجلة.. تخيلت لو عرف عن رسومها المبتذلة لفضحها.. شيء يتسلل رغما عني حين تبدأ الحكي، ترسم أشياء كثيرة، أتابعها بشغف، يتقلص إحساسي بالدو والري والمي والفا حتى ينتهي الدرس أو تقرع ميس زينب أدواتها لتنبهنا" بنت أنت وهي "، حكت عن قبلته الأولى على خدها الأيسر..انتابتها قشعريرة وتهدجت أنفاسها، وضعت أصابعها على فمه، وقالت محذرة بغضب" أنت قليل الأدب" صفعته بغيظ، قالت أنها لم تكن تعرف بأنها ستسمح له بعد ذلك بتقبيلها عشرات المرات، فضحكت، ما إن تكتشفه أمام المدرسة حتى تتعلق بذراعه، ويسيران متجاوران كرقم " عشرة" يفوقها كثيرا في الطول.. تصورتهما مرارًا يتبادلان القبلات، خلتها مرة فوق كرسي، ومرة يحملها بين ذراعيه، ومرات ببهو السلم متعانقين بينما يجلسان، رسمت قلوبا كثيرة بدفاتر

obeikandl.com

الدراسة يتوسطها حرفه، وكثيرا ما نثرت العطر على الرسائل المختبئة بين طيات الكتب، لم ينقطع كلامها عنه لحظة، حكت عن أشياء فعلاها معا، أشياء لذيذة ومضحكة .

خطت حاجبيها ونزعت الشعر الزائد بينهما وفوق شفتيها، استعرضت ساقيها النظيفتين تماما، رسمت قميصها الفاقع وأخفت أصبع أحمر شفاة بحقيبة المدرسة وتباهت بأنها التقطته خلسة من أحد أدراج أمها، أهداها حسام زجاجة عطر مركب من عطرين لم يعجباني، برغم اشتياقي لرائحة لم تحتويها أدراج أمي ولا أي من أدراج بيتنا .كان طبيعيا جدًا وقتها أن تشرح أستاذة هدى مدرسة اللغة العربية يوميا أبياتا من الشعر الرومانسي وتزفر بارتياح غريب، وأن تتناقض والصورة التي ركبتها لغرام رضوى بحسام، بدت صورًا ملموسة تتحرك على قدمين، تفرز أشياء، تصنع زمنا مسحورا وتبرر الحاجة للحب، وتدفعني لتأمل المرآة ؛لأكتشف امرأة تسكنها. تشبهني تماما، لها الوجه ذاته والتفاصيل كلها..لكنها أكثر جوعا للحياة، مؤكد أن لأستاذة هدى نفس الصورة المتطابقة في المرآة برغم أنها تنسل بهدوء باتجاه نافذة الفصل ثم تعود لتدون شيئا رومانسيا بدفتر وردي، بعد عام ارتدت الأسود، لم نعرف منها من مات ولم نعرف فيمن نعزي، لم تترك للحزن شيئا ليلتهمه حتى شعرها الناعم، الذي اختلط سواده ببياضه.. وبعضا من روحها..أذكر أني ضبطتها مرة تبكي بغرفة المعلمات، وكنت أحضر لها الدفاتر.. وقتها صرخت بي: سيبيهم وروحي فصلك .

لم تخلع السواد لعام كامل, جف جسدها ونحل، اكتسى وجهها بمسحة صارمة، أصبحت كئيبة ضيقة الصدر .كثيرة التشاحن مع البنات .انتهى العام الدراسي بحلو ومره،انتظرت رضوى لتحكي عن عطلة صيفية مختلفة عما اعتدته لكنها لم تأت.. تزوجت وانقطعت عن الدراسة ولم تنقطع أخبارها، سكنت بيت أمها، نفس الشقة وبغرفة نوم تجاور غرفتها، انضمام رضوى لعالم النساء الخبيرات في أمور الحب والزواج جعل شرفتها قِبلة يومية للمتعطشين للمعرفة، تارة نضبط أبي يمعن النظر لقطع ملابسها الكاشفة على الأحبال، وتارة مجدي بينما يقاوم فضول النظر لمر شهي بين نهديها، عددت أمي ملاءاتها لشهر كامل، أما أنا فكنت مشغولة بالأهم.. شعرها المبتل دوما، بشرتها المتوردة ونظرتها الصافية، بصفنا الثالث الثانوي تزوجت أستاذة هدى من مدرس الإحصاء الذي ماتت زوجته بنزيف أعقب ولادة طفلهما الثاني، وبدت نهاية درامية لعلاقة حب أنهكت خيالها طوال عامين،

نهتني أمي لعدم الحديث مع أي من زميلاتي اللاتي انقطعن عن المدرسة لزواجهن أو حتى لخطبتهن، تخيفها سيرة رضوى ربما لميوعتها، نهتني لعدم الوقوف معها بعد أن ضبطتنا نتكلم بالشارع مرة نهرتني، بعدها تفرست بملامحي ؛وكأنها تود استنباط شيئا تعرفه .

ـ اتكلمتوا في إيه ؟!..

. مفيش .

. بتخبي ليه؟ أنا خايفة عليكي ...

عندما تفرست برضوى أدهشني خلوها من العلامات المدممة التي كثيرا ما اكتشفتها بجسد أمي، لكن شفتيها كانتا أكثر امتلاءًا ونضارة ، اختفت تشققاتها الشتوية المزعجة, وحلت مكانها لمعة الطلاء .

. اتكلمتوا ف إيه،ما قلتيش . ؟!..

كان هذا ما يقلقها.. ما يدور خلف الجدران ،وما يسفر عنه الليل من مآسٍ، أشياء مريعة تلك التي تحدث وتلمح لها مشاهد ساذجة يسحق فيها قطار كل ما يقابله.. كائن هش يلتهمه صقر بكهف ما، جسد ضئيل يتلوى بنشوة بينما تفضح عريه إضاءة ماكرة لمصباح مرتعش، و ربما أن ثقب الباب نفسه يشي بكل تلك الأشياء المخجلة، شعور ثقيل كلما اضطررت أن أخفي وجهي عنها كلما مدت عينيها، وأرهفت السمع للكروان بالفيلم العربي، بدت شفتاها متحفزتين للكلام، كانت تود تمرير رسالة ما وأحجمت، لم يكن الكروان يغرد وقتها ولكنه كان ينتحب، رغبت بسؤالها :

. ليه الكروان بينوح؟ !

*****

أعاني حنينا هيستيريا لصور خلتني عشتها في زمن لا أعرفه ،وأعتقدها دوما تخص امرأة غيري؛ لذا فأنا على قناعة تامة أنني أسكن جسد امرأة أخرى، وربما أنها تبحث عني لنتبادل الأجساد، وتعود كل منا لحياتها

هبط الظلام وما زلت في مكاني مستلقية على الأريكة، فِرَاشي البارد روادني عن حرارة جسدي لكني لم أذهب، صوتي مبحوح، أصابعي مرتعشة، وأوامر المخ لا تنتقل بسهولة عبر الحبل الشوكي إلى الأطراف، نوافذي المغلقة تشي باصطخاب الشارع، بالجانب ضوءُ خافتُ لمصباحٍ جانبيّ، تفرقت بعض الكتب على الأرضية الخشبية بلا نظام، ذبابة الأمس ما زالت تطير بتثاقل، استقرت بعلبة الطعام الصيني لتنهل من فتات وجبة المساء، قطعة السوشي غير طازجة ،واتخذت مظهرا بلاستيكيا منفرًا، زجاجة الكولا الفارغة تركت أثرًا مستديرًا لزجًا على حافة المنضدة، وفنجان القهوة المرة له يومان بنفس المكان،أم كلثوم تغني ..

وقلبي سلم لك أمري ..

. أنتِ فين يا بنتي؟ ..

. هاكون فين ..

. شكلك تعبان ..

نظرت إليها بارتباك وعيناي تقاومان الضوء بصعوبة، ومن دون إرادة تتفحص الروزنامة على الحائط ..

.قلة نوم، إيه أخرك ؟ !

. الشوارع مش طبيعية، مصر كلها والعة ؟ !

. ربنا يستر .

وضعت الكوبين على المنضدة، انفلتت بعض القطرات، وانسكبت على الحافة ..سارعَت بتجفيفها بمنديلٍ ورقيٍّ وتململَت ضجرة، تفعلها دائما ويظل الأثر المستدير يشاغب عند انعكاس الضوء، تمطت مجهدة ثم جلست، أمسكت بأحد الكتب الملقاة على الأرض، قلبت فيه مبتسمة وألقته على الجانب بلا اهتمام ..

. مفيش دماغ في الكون تستوعب كل ده .

. أنتِ بس شايفة الدنيا من خرم إبرة..متوقعة تشوفي إيه من مساحة مخنوقة بالشكل ده ؟!..

وضعت يدها على خدها ،وتفرست بي كأنما تنتظر تتابع الكلام .

. معقول في عمرك مفيش كتاب واحد له قيمة دخل دماغك، إيه الدماغ دي؟!

obeikandl.com

. على الأقل مرتاحة .

. ساعات بافترض إن كلامك صح؛ لأن المنطق نفسه فشل إنه يلاقي حل لكراكيب دماغي .

. يبقى مجنون اللي يقلك إنه فهم الدنيا، صدقيني مفيش نتيجة .

واجهتني بوجهٍ عبوس، ربما لأنها اعتقدت أنني لم أكن بحاجة للرقص فوق رمال متحركة، وربما لم أكن مضطرة لأن أغرس هواجسي يوميًا صباحًا لأجنيها مساءً بشكل نوباتِ صداعٍ نصفي ،وعشرات من الأوراق المكرمشة مبعثرة في الأرجاء .بدت غير مهتمة بأي شيء.. ابتعلت ريقها, ورفعت رأسها وهي تسحب شهيقا أخرجته زفيرا حارًا .

. عارفة، لو بإيدي كنت فضلت معاكي .

. أنتِ مرتاحة هناك أكتر..مش بس كده.. لا كمان عارفة إنك لو احتاجتيني هتلاقيني .

. أنتِ فاكراني مرتاحة عشان مش بابكي؟! أنا متعلقة.. لا طايلة سما ولا أرض، ساعات باحسدك إنك قادرة تتعايشي برغم كل الوحدة دي، ساعات بأحس ريحة الصدا ف كل حاجة، عرقي.. دموعي، حتى الحمام لا مؤاخذة ..

تنهدت بمرارة ،وسألت :

. إيه الهدوء ده !..فعلا مش عاوزة تسألي؟!.

واجهتها بنظرة جادة فتدثرت بنفسها خجلا لثوان، وقالت :

. اتغير بجد.. مش ده "ديبو" بتاع زمان .

. ومين فينا ما اتغيرش؟!..

. ده تغيير تراكمي..يعني مش مجرد يوم ، ومش بس تغيير ملامح إنما تفاصيل روح، وبعدين سهل تتوقعي حياة اتنين مش شكل بعض أو على الأقل مع ست بتحسب كل شيء بالورقة والقلم، حياة باردة سخيفة تشبه قاعة اجتماعات، يتقابلون فيها ،وكل واحد عارف عاوز إيه من التاني، كل اللي كان محتاجله ست تحبه مش واحدة ينام معاها..

. مش صحيح، مكانش بالمثالية دي .

. أنتِ دايما كده، خاصة لما بتيجي سيرته .

. لا .. بس أنتِ كمان نسيتي إنه كان بيحسبها بمنطق المكسب والخسارة.. تمام زيها.. يعني فعلا مفيش فرق.

ـ مهما كان، مكانش يستاهل اللي عملتيه معاه.

ـ لأ يستاهل.. مفيش حد أصلا ممكن يتحمله .

ـ أنتِ السبب

ـ ليه بتقولي كده؟!.

ـ أنتِ عارفة قصدي

كنا قد سمعنا عن الخلافات التي نشبت بينهما، والتي تصورتها غيدا وقتها نهاية العالم، كانت تتدخل للصلح، وفي كل مرة يخالفان شروط الإتفاق، فتعود نيفين للسهر وجلسات النميمة، ويعود عبد الرحمن للبحث عن ذاته المفقودة بضربها أحيانا وهجرها أحيانا ومضاجعتها أحيانا أخرى، افتعل شجارًا معها بالنادي، صفعها على مرأى ومسمع منهم، كاد يفتك بالنادل لتدخله لصالحها، كان يتعمد القيادة المجنونة بشوارع القاهرة، وصدم ابن دبلوماسي معروف في حادث أثار ضجة وقتها وانتهى بصلح مشروط، كلها أشياء تزامنت وانفصالنا..

قلت بشيء من حدة :

ـ أعراض جنون.. يعني كان ممكن يقتلني .

زفرت عميقا حين اكتشفت أنني فعلا نجوت..

obeikandi.com

تعجبت من عالمٍ ضيقٍ استثنى الذكور لدرجة أننى ظننتهم كائنات فضائية غريبة التكوين، وأن النموذج الأول بحياتى متمثلا فى جبروت أبي، ما هو إلا استثناء؛ لأنه- ومن المنطقي جدًا -وجود حارس قاسي الهيئة ،ورث المضمون على كل بابٍ يفضي لكنز، فما بالك بباب ظننته يخفي عرش كسرى .لم نكن نتحدث معه، كان هو من يحدثنا، وإن فعل أجبنا باقتضاب" نعم، حاضر " نجلس متململين بضجر، نحرك أقدامنا، نتثاءب، نتبادل الوجوم، نعد أصابعنا، نفركها، في كل شهر يعيد الجلسة ذاتها، ونجلس بالملل ذاته، نحدق في عينيه الحمراوين وأزرار منامته .اليوم حين أفكر بحالي أجدني عرفت رجالا كثيرين، على كل لون، أغبياء، أذكياء، مثقفين، ومدعين، كل منهم أضاع عمرًا كبيرًا يطارد فكرة من نسجه ؛ بل وأخذ على عاتقه مهمة نشرها وإقناع الآخرين بها، كل منهم استمات فى مطاردة حلمه الكاذب، أعترف أن جزءًا منى بالبداية كان مبهورًا بعوالمهم السحريةِ، حتى اكتشفت تشابها بينهم يصل حد التطابق؛ فكلهم يدعون لفكرة ما، كلهم وطني ومتدين وماركسي، لكن بالنهاية كل منهم يفكر فيما بين فخذيه، عبد الرحمن كان أحد أبرع هؤلاء الأفاقين.

زواجه من نيفين لم يكن غير مواقعة مشروعة لاسم أبيها" سالم المغربي"، راقبها منذ وقعت عيناه عليها، وادعى العكس، لفتت انتباهه بثقة متناهية وسيارة فاخرة تقودها مسرعة، وقبل سنة التخرج فاجأها بعرض الزواج، أما الشيء الوحيد الذي برر قبولها كونه يصل لأهدافه من دون ضجيج، برغم اعترافها بفترات تعثر ببداية العلاقة،

قبل نيفين كان يكره مصر التي تسلبنا أحلامنا وتطلقنا للحدود، وبعدها تغنى بها وطنًا للشرفاء متشدقا ملء فيه بعصامية مزعومة، وضع صورًا بعرض الحائط وشهادات تقدير وأسماها "المنجز الحياتيّ"، رمى بنفسه عاريًا بين أحضانها والتهمها بشبق، كنت أشمه فيها وأشم أنفاسها فيه، ببزاته وقمصانه وياقاته حين يجمعنا مكان، عبد الرحمن كان اشتراكيًا ثوريًا قبل أن ينظم حملات الدعاية لشركات أبيها ،وقبل احتفاظه برصيد كبير بأحد البنوك، بعدها تنصل من رفاقه القدامى ووصفهم بالحاقدين، حتى سامح الجيار أحد أقرب رفقائه لم يسلم من نقده وهجومه بأكثر من مناسبة، عبد الرحمن لم يحب كائنًا سواه.

. صدقيني يا غيدا، كان بيشتهي الحاجات اللي ما يقدرش يملكها لغاية ما تبقى ف إيده، بعدها يرميها بطول ذراعه .. يمكن عشان كده اتجنن لما سبته.

نظرت لي بشرود.. تحسست المنضدة، رفعت كوبها وواصلت احتساء النسكافيه من دون حرف.

*****

لم يكن حُبًا، ليس لعلاقتنا مثل ذاك المسمى، على الأقل من ناحيتي، كل ما في الأمر أنني سمحت له أن يكون رفيق الحكايات، برع في استدراجي لمنطقةٍ لم آمل ارتيادها.. وجع اللحظات، وكيف يصبح

محتملاً حين تتقاسمه وشخص ما . راقتني ومضةٌ حنون تغلف عينيه عندما يسحقني البكاء، فنتقاسم مرارته وعذوبته. قايضته وجعًا بوجع، وفرحًا بفرح. تلك كانت طبيعة الحال بيننا، قواسم مشتركة، وتشوهات نفسية كالأجنة غير المعترف بها، أصابتها اللعنات وأجهضت ذاتيا .

كان غيورًا جدا، أتذكر لقاءنا بـ كوستا، أربكتنى عيناه وتلعثمه ،ورغبة لم تقوض بأن نرقص حتى الصباح . كنت سجينة بين ذراعيه. كعصفور بشرفة جانبية يختبئ في ليلة ماطرة، سألني إن كنت استسلمت قبله لعاطفةٍ محمومةٍ بدافع الحاجة للاحتواء، أذهلتني جرأته، أنكرت من دون تردد، عجبت من نفسى حينها؛ وكأنني خفت فقدان اهتمامه، لم يهمني في ذلك الوقت أن أبدو كقديسة فلست بقديسة على أي حال،

نظر لى متمعنا وقال :

- قللي الماكياج، أنتِ جميلة بطبيعتك .

قلت بأنها مجرد رتوش اعتدتها؛ فأتبع حديثه بطلب آخر أكثر غرابة ..

- بطلي تلبسي ضيق، شوفي بيبصوا عليكي إزاي! لو سبت نفسي لغضبي هاتزعلي من رد فعلي .

obeikandl.com

انتبهت للنظرة الجادة التي كست ملامحه ،ومن دون وعي زفرت بضيق لكنه أردف بطريقة ناعمة.

. حاولي تقدري مشاعري، يمكن شايفاني ببالغ، بس على الأقل تحترمي إحساسي.

واجهته وكنت أعود للطاولة.

. عبد الرحمن، إيه الداعي لكل ده ! أنا ما عملتش حاجة ثم إن مفيش بيننا اللي يخليك في الحالة دي، أنا حتى لسه مش محدده مشاعري تجاهك.

. يمكن أنتِ، لكن أنا ..

قاطعته بشيء من حدة ..

. ولا أنت، أنا مش مقتنعة.

. هاتصدقي لو قلتلك إني مش مهتم حتى أدور على أسباب تقنعك، كل اللي ممكن أقوله إني مش قادر أمنع إحساسي .أجبته بكم من الثقة ..

. فترات تعثر محتملة، ملل، فتور، برود، لا مبالاة . مفردات كتير أوي نقدر نوصف بها علاقة جواز بتمر بأزمة السنة السابعة.

obeikandi.com

ابتسم وأردف قائلا :

. لالا .. مش زي ما أنتِ فاهمة، أنا ما بقيتش أحس مشاعر ناحيتها، أي مشاعر، لا بالسلب ولا بالإيجاب، كل اللي بيننا شوية ورق..

ارتبك حين اكتشف أنه لم يعدد البنت من ضمن أشيائهما المشتركة.

. ونورهان طبعا.

نظرت إليه بتمعن ،وكأنني أكتشف خدعة ما، ابتسمت فظن أنني أشكك في صدق كلامه، تابع بمرارة:

. أنت مش فاهمة إن علاقتنا منهارة أصلا، عمري ما حسيتها مهتمة بوجودي، عاوزاني "عروسة" بخيوط تتحكم فيها، أنا مش كده خالص، حاولي تفهمي.

ساد الصمت للحظات.

. يعني أفهم من سكوتك إنك موافقة ؟

نظر إليّ مستعطفًا، مد يديه جانبًا ملتقطا علبة غلفتها قطيفةُ حمراءُ توسطتها أنشوطة كبيرة، تهلل وجهه، وظل يحدق بي بينما يداه تفضان الغطاء..

. شوفي قد إيه تشبهلك، ما صدقتش لما شفتها، أكيد اللي عملها كان بيفكر فيكِ .

ابتسم بعمق فأسر إحساسي الذي جاش بتلك اللحظة، انتابني الفضول حين فتح العلبة ؛فانساب اللحن كمتتالية عذبة، وظلت الباليرينا تدور بمكانها كفراشة أيقظها النور .تمكنت مني الحيرة، فصرت أواجه عينيه لأختبر صدقهما، كانتا تلمعان، لم أتبين الدموع بقدر ما كانت مراودة.. مناورة مستميتة لاصطياد موافقتي، لمح الارتياب بعيني، نقرت الطاولة نقرًا منتظما؛ ففاجأتني كفاه، ربت بخفة ودعاني لاحتساء كأس من الليمون، لم أجد بي حاجة لاضطراب بمعدتي، شعرت برغبة فى التقيؤ تغلبت عليها بالتوقف عن التنفس لبضع ثوان، طالبته بعدها بمزيد من الوقت لأقرر حقيقة مشاعري بدون أي ضغوط، كانت فرصة أخيرة لتقرير مصير العلاقة .

أقلني للبيت وبطريقنا توقفنا على الكورنيش كرر عرض الزواج، حدثني عن طفلة لنا لها نفس ملامحي، لم أصدق ما قاله عن نيفين من أنها تمنعه نفسها، وأن لها أكثر من عام تنام بغرفة ابنتهما على عكس ما أخبرتني عن مفاتيح غرف رجولته المختبئة بجسدها، وعن أناشيط الشعر المتواريات تحت الوسادة بعد طقس الغزل اليومي وكئوس النشوة المشبعة، تعجبت من الحال الذى آل إليه زواجهما .. لم أتخيل أنها تفعل لمجرد ألا تنجب ثانيًا فيتأذى قوامها، أو لتسافر صيفًا لتركيا، عرفت عنها عشقها للسفر، لكنها كانت تفعل ذلك مع

صديقاتها من دونه تاركة الصغيرة بأحضان أمه، وحين تعود تلومه دوما لتغير البنت تجاهها، أو لتعلقها بإحدى العمات ورفضها العودة للفيلا الكبيرة ذات الطابقين، أخبرتني ذات مرة أنها أهدته زوجًا من الجوارب وقميصًا "سينييه" بعد آخر رحلة، مريقة قارورة عطر فاخر على جسدها قبل ليلتهما الساخنة، قالت أنها أحبت مضاجعته أكثر من حبها له، أما هو فأحب البرستيج السخيف وفنونها للمراودة ووشوم لورود وفراشات وضعتها عند التقاء نهديها وبنهاية ظهرها، تصورت ما يحدث بينهما لعبة مريضة حرص كل طرف فيها على تحقيق مصلحة ما، كانا شخصين معقدين، لم يستحيلا كائنًا واحدًا، هما اثنان دوما، كانت متحررة بينما يغلفه صلفٌ مصطنع، أدركت أن الطريق إليه كان الفراشُ : فاستخدمته كعامل ضغطٍ فوري ليهبها ما تريد، تستدرجه لمنطقتها ،ثم تقطع الاتصالَ الحميم فجأة لتطالبه بشيء ما بأسلوب أنثوى تمارسُ المكرَ : فينزلق لا إراديًا بالفخ ، ويستمر ينهل من منابع جسدها بحثًا عن لحظة نشوة خالصة، أقسم لي أنها تفعل ذلك وأكثر فزادني ارتباكًا.. فكيف تهجر الآن ما تظنه فخًا منصوبًا يسحق إرادته ويحقق مآربها بيسر؟ لم تنتهِ الأسئلة ولم تقنعنى الإجابات، هناك حلقة مفقودة لم يكلف نفسه عناء البحث عنها أو إيقاف غزو ما يتبع اختفائها من فضول،

تعددت لقاءاتنا حتى اعتدناها وصارت طقسًا حياتيًا مألوفًا، يبدأ حديثنا بثرثرة عن أمورنا، ثم بكفي بين يديه، ثم حديث طويل للأنامل وقبلة حارة .

obeikandl.com

.شكرا بجد .

. قولي لي، ليه دايما مرتاح وأنا معاكي .

. دي نفس الجملة اللي قلتهالي زمان قبل ما تفاجأني بجوازك منها !..

. أرجوكِ إديني فرصة أنفذ اللي وعدتك بيه، مجرد فرصة.. يمكن ننجح.. محدش عارف .

. من غير ضغوط.. أرجوك .

.من غير أي ضغوط، أوعدك .

اقترب ليضمني، وما بين تردد وقبول قبلني عميقا وغبت وغابت مخاوفي ،أدركت أن تعاطفي المستمر قد وضعني بموقف لا يحتمل الانسحاب، أحببت ضعفه وما إن يغتالني حنينه إليّ ،وتدفق مشاعره حتى تقفز صورة ابنته بالمنتصف كطلقة تحذيرية، الخلاصة أنها ليالٍ مربكة، حين دلفت إلى الشقة وأغلقت الباب كان غريبا أن أمسك بالجوال ثم أنحيه جانبا ثم أعود لأمسك به، تماما كمراهقة، حاولت بكل إصرار دفع حاجتي لمكالمته ولم تفلح المحاولة إذ أني توقفت عند اسمه بالهاتف وكتبت رسالة من جملة واحدة " طمني عليك لما توصل "أرسل ردا قصيرا جعلني سعيدة ومحمرة الوجنتين :

obeikandl.com

" بحبك"

بدايةٌ عظيمةٌ قادتنا لنهايةٍ مفجعةٍ، غيرةٌ مجنونةٌ غير مبررة. كنا نتناقش بانفعال، يتهمني بأشياء غريبة صورها خياله؛ فأتخذ موقف دفاع مستميت ..يتابع ردي على أحد القراء فيعنفني وكأننا على معرفةٍ وثيقةٍ، وبعصبيةٍ ينصرف. يفتعل المشكلات حين يجد الهاتف مشغولاً.. أصبح كثير الأسئلة ومستحيل الاقتناع . يتبعني كظلي، يفاجئني بأنه على علم بكل كبيرة وصغيرة بحياتي وشئون يومي، كنت ألوذ بالحجج للفرار، وكما استهواني الأمر بداية، استحال بالنهاية كابوسًا لعينًا، أخبرته ليس بيننا مايلزم أحدنا بفرض وصاية على الآخر فكرر عرض الزواج، تحججت بـ نورهان فطمأنني بأنه سيتركها لأمها؛ فهو من الرجولة بحيث لا يحرمها منها إلا فى حال تزوجت .

ما زاد الأمر تعقيدًا رفضه غير المبرر لعملي متحججًا بأنه سيضمن لي حياة رغدة، فما الداعي إذن لعمل أختلط فيه بالرجال، ويتطلب البقاء بالخارج وتقصي الأخبار من مصادرها أيًّا كانت، يراه ابتذالا أن أظل بوظيفة تتطلب الاختلاط بعالم من أشباه-هكذا وصفهم- ساسة وسادة ومن كل الصنوف، شرفاء مطحونين، ومجرمين عتاة، لصوص وقتلة، مرتشين ومدعين، أفاقين وأولاد حرام، وراقصين على الأحبال . فاجأني بالمكتب ذات ظهيرة، كان كريم يجلس متربعًا فوق مكتبه فى وضع اليوجا وبين شفتيه إحدى ملفوفاته، مازحني بنفسٍ طويلٍ متدرج الحلقات. و استعرض وشما غطى كامل ذراعه، كنت أبتسم لا لشيء

وإنما لنظرةِ ماكرةِ احتوتها عيناه إذ كان الوشم لامرأة عارية، رمقني عبد الرحمن مستاءًا :

. ممكن أفهم إيه بيحصل !

غادر بعصبية زائدة.. ناديته حتى اختفى من الممر، حاولت أن أهاتفه، لم يجب، أرسل مساءً رسالة قصيرة محتواها " لن تتغيري، يعجبك هذا ال كريم بشعره المشعث، لن تدركي أبدا قيمة وجودي بحياتك.. أنتِ مجرد طفلة عابثة". وأغلق الهاتف، تركته لجنونه وظنونه، لم أفتقده بزحمة انشغالي ولم يعنني كثيرًا كونه غاضبًا، أصبحت لي مساحة أتجول فيها بأريحية مرتادة مخابئ مجرتي، كان اكتشافا مذهلا وانعتاقًا خياليًا، قررت أنه لو مضى أسبوع من دونه فالنتيجة مساحة من الهواء وليست من الخواء، انزعجت حين فاجأني بالمجلة قبل نهاية اليوم السادس، لم يعتذر ولم يختلق مقدمة للكلام لكنه جلس بالكرسي المقابل، صمت لدقيقة ثم التقط نفسًا عميقًا، وقال أن طلاقهما أصبح أمرًا حتميًا لا رجعة فيه.. وفاجأني بشيء لم أتوقعه ...

. هاتجوز ..

قبل أن أنطق سألني إن كنت مهتمة أن أعرف عنها.. بهتُ ، لم يحضرني رد فعل فسكت ودفنت رأسي بشاشة الحاسوب على مكتبي، تابع الحديث بنبرة مختنقة مشحونة بالقلق، كنت أدرك أنه يتساءل عن سر تغيري معه، رفعت رأسي وحين نظرت إليه ألجمني تحجر

عينيه، ظل مصوب النظر إلي لقرابة دقيقة من دون أن يغمض له جفن .حدثنى عن قريبة مطلقة ربما كانت خيارًا محتملا للزواج في حال لم أقبل ؛فهو في كل الأحوال بحاجة- ككلهم- لامرأة، لم تكن فقيرة معوزة ولكن طبيبة ناجحة اكتشفت الميول الجنسية الشاذة لزوجها فتركته، ظن عبد الرحمن أنه بتلك الحكاية سيثير غيرتي ويدفعني لاغتنام الفرصة للموافقة، تهيأت لضحكةٍ ساخرةٍ، توقعت منه كل شئ عدا حكاية ساذجة كتلك، وقبل أن أواجهه بالرفض .تساءلت بنفسي :ما الداعي لأن أقبل حياة بهذا التعنت، وقد أصبح نسخة كربونية من والدي وبأي حجة، أهو الحب.؟ !

رفضت بشكل قاطع فنعتني بالغبية، شبهني بتمثالٍ باردٍ وأقسم أن القدر سيحيلني لركام يذروه الزمن .اعتقدني البلهاء التي ستركض إليه خوفا من ضياعه..عجبت لأكاذيبه التي صدقها ،وكأنه يعاقبني على سنواته المهدرة باختياره، فمنحني عنوة واجب ترميمها، أدركت بقرارة نفسي أنه لم يكن مجرد رفض لمنحةٍ قد تذهب ولن تعود، بقدر ما كنت أرفض ترتيق ما بعثرته الريح، أكثر ما آلمني ليس الخوف من فقدانه ؛وإنما الحقيقة التي طمستها لتظل حبيسة بعالم لم أختلقه، ولم يكن أبدًا قصة محبوكة من نسج خيالي، بل واقعًا مرًا فرضه القدر، أشفقت عليه من شعور كاذب بالخديعة؛ فدفنت الحقيقة طي ضلوعي وانسحبت .

غادر عبد الرحمن، تركني حائرة مابين رفضي لحياة مستقرة كزوجة لرجل محبط تكبله عقدهُ السابقة ويجدها متنفسًا طبيعيًا يتخلص به من الأثر البغيض لإخفاقاته، وبين حياتي التي حاربت لاستعادتها، وحرية قاتلت من أجلها، ولست مستعدة للتخلي عنها لأي سبب كان. ظل يهاتفني لأسبوع، بعدها رفضت إجابة هاتفه، توقف عن الاتصال واختفى، لم أحاول أن أعرف عنه ولو من بعيد، وكأنها صفحة طويت بكل مافيها أو حقيقة أسقطتها من الذاكرة. بعد أسابيع أتتني مكالمة من نيفين، قلبت حالي ورمتني بجب عميق من التعاسة.

. إزاي قدرتي تعملي كده يا صاحبتي ؟ !

لم ترتجف عضلة في وجهي حين تيقنت منها، ولم ألُذ بغرفتي خوفا من عقاب، انتظرت تتابع كلامها ببرود، حتى أننى اندهشت من نفسي، كانت من تريد أن تظل حرة كفيضان هادر، لم أسلبها ما ظنته كنزها الأثير، وحين استحالت لنمرة شرسة تقاتل بهلعٍ و تكشر عن أنيابها، كنت بالانتظار، تركت لها ذكرها والعرين. استفزها صمتي فكثفت هجومًا مضادًا، نعتتني باللصة خرابة البيوت، تصَنَّعَت البكاء، غرقَت فى وصلة ركيكة من الآداء المسرحي، أعرفها حين تبكي، يصبح صوتها مختنقا بالنشيج، أما ما فعلته الآن فلم يعدُ عن كونه عرضًا رخيصًا يبتز المشاعر، نهنهاتها المزعومة أثارت شهيتي، انتظرت انتهائها بفارغ الصبر لتحضير قرص بيض مخفوق، وقطعة توست طازجة مغطاة

بمربى الفروالة، لم أفكر في غلق الهاتف، فمن حقها كإنسانة إفراغ ما بجعبتها من غضب.

سألتها هل انتهيتِ فتابعت بسخرية:

. أنتِ فاكرة اللي عمله معاكي ما عملوش مع غيرك؟! ده مريض بالكذب، بيكذب ويصدق نفسه، أنا فعلا ما خسرتش حاجة، بس أنتِ كمان ما كسبتيش حاجة؛ لأنك مجرد رقم تافه في ذاكرة تليفونه.

حين نطقت جملتها الأخيرة كان الكلام يبدو مناسبًا ومنطقيًا، باستثناء أنني لم أجدها زوجة مجروحة يقتلها أن تفقد زوجها بنزوةٍ جديدةٍ، فلم يعنها أبدا كونه مخادعًا، لم أجد بي رغبة لمزيد من السخف :فأغلقت الهاتف وأرسلت نظرةً للمكتبة بواجهة الجدار، سأعيد ترتيبها من جديد، التراجم بالأعلى والشعر والرواية بالتبادل حتى تنتهي الرفوف، سأبرر لنفسي حاجتي لتغيير فوري لمحتوى المكتبة، لكن بالنسبة للبشر لن أبرر أي شيء، توقفت عن فعل ذلك منذ زمن، واكتشفت أن الاستغناء يغنيك عن التبرير، اتجهت لغرفتي لأكتشف أنه قد ضاع من ذاكرتي نصّ الكلمات التى سبتني بها، رفضت استعادته بيني وبين نفسي، كل ما تبقى هو محض انطباع رخيص ،وكأنني أسلمت عمري للوهم فمنحنى السراب، مؤكد أوجعني كوني مجرد رقم بذاكرة جوال.

لا أدري كم مر من الوقت.. تسلل صوتها وكنت أتفحص بريدي الإلكتروني .

. بقالي ساعة باتكلم؟!..

دفنت عينيها بالكحل، هكذا تحب شكلهما، سوداء كحيلة، سألتني عن مظهرها الجديد، خسرت بعض كيلو جرامات، خضعت لحمية ساعدها فيها إجهادها المستمر مع أمها، تكلمت عن شادي، نفت أن يكون لفقدان وزنها علاقة به، فعلت ذلك فقط لأنها رغبت بقياس خصر أقل، قالت إن صديقاتنا بالنادي يبلغنني السلام، اندهشت فلم يجمعني بهن مكان منذ عام تقريبا، كن قليلات عدد مرات ذهابي ،ومع ذلك لا أتذكر أسمائهن، لذلك حين أصادف إحداهن أناديها ب " حبيبتي".نسياني لهن لا يعني بالضرورة نسياني لمآسيهن، علاقاتهن الحميمة، أفئدتهن الكسيرة، مشكلات أطفالهن وأسماء كلابهن وقططهن .تمكَّن مني السأم.. فتحت حاسوبي لتفقّد موضوع العدد .. فاجأتها ..

. غيدا.. جربتي تطيري بإحساس طيارة ورق؟! ده اللي بيحصل لما باكتب، بادخل عالم وردي من مزيكا بألوان الطيف، وكل الحاجات المستحيلة اللي مش ممكن حد غيري يشوفها ويحسها .

*****

ob-kandil.com

في رحلة العمر لحظات لا تتكرر، وأشخاص ربما لا نقابل مثلهم؛ لأنهم مثل كل شيء فريد لا يتكرر، وهي واحدة منهم ..اسمها" مريم" رائق سمارها، تشبه أباها سعيد ،وهو حارس عقارنا الأرمل، لهما طابع الحسن ذاته، تفتح ذراعيها على اتساعهما وتلقي نفسها بصدره فيتلقاها بحنان جارف، ويقبلها بين عينيها، ويجلسان ليقتسما رغيفا وقطعة جبن وثمرتي زيتون، يتكرر المشهد يوميا مع اختلاف مكون الوجبة، ويسلمني لصقيع لم يدفعه عني دثاري الشتوي بصيف أغسطس الحار، كانت رعدة داخلية، أتكوم بعدها بوضع جنيني، ويظل صوت ضحكتها يروح ويجيء بداخلي لأيام وأيام، كبرت مريم ولا زالت تحتفظ بلمعة عينين وكفين رقيقي الأنامل، عندما تريق الماء على الدرج الرخامي يسارع هو لتجفيفه ويتركها لتنهي فروضها، لمحته مرة يطعمها بفيها، ومرة يدثرها بحنو وكانت مضجعة على الأريكة الحديدية في عز الشتاء، ومرات يربت على رأسها ،ويضم شعرها في ضفيرة طويلة، يسكنان غرفة أسفل السلم لا تقربها الشمس، لذا يسعل كثيرًا، كثيرًا جدًا، ويرقد بغيبوبةً لأيامٍ، سألني مرة عن ثوب بحالٍ جيدةٍ يلائم قياسها لتحضر عُرسا بالبلدة؛ فاشتريت واحدًا لها من محلٍ راقٍ بالدقي من دون تخفيض، حارس العقار هذا لم يمت من التهاب رئوي، كذا لم تقتله السجائر، لكنه مات حين عادت فزعة وبقعة دم صغيرة تلطخ فستانها الأثير.

راقبتها يوميا من خلف النافذة، تجلس على المقعدِ الخشبيِّ بواجهة البوابة، وتطوقُ عنقَها كوفيةٍ زرقاء كانت لأبيها. عندما تراكم الغبارُ

بمدخلِ السلمِ وأصبح مواءُ القططِ عادةً لا يقطعها غير نقر جارتنا العجوز على الدرابزون، شمر الحاج الكبير عن ساعده وانتفضت ذكورته وطالبها بالذهاب، ذهبت للشارع أحسبها.. لأيام كنت أكتب لها رسائل يومية أدرك أنها لن تصل . لذا حين دق أحدهم باب ليلتي الصيفية يسأل عن مروحة احتياطية كي لا تتعفن جثة الحاج، تذكرت على الفور صباح شتوي بارد أرسلوا فيه البنت للخارج، اعتذرت عن إجابة الطلب، ذهب السائل متمتما " ناس معندهاش دم "بينما حدجت عيناه المروحة الجانبية والأخرى بالسقف، اتجهت بعدها للمطبخ لأعد القهوة ونذرتها لروح المرحوم.. وجلست لأكتب .

كانت ليلة كئيبة، هالني أن الجدران تخفي جثة باردة تنتظر الدفن فلم أنم للصباح، استشعرت رطوبتها والكثير من الروائح المتداخلة، بعصر اليوم شغل الشارع صوان كبير ظلوا ينصبونه قرابة ساعتين، صوان ضخم بإضاءات فخمة وكشافات ساطعة، بالسلم هرج ومرج، على الرصيف تراصت مقاعد جلدية زرقاء، وعلى الجانب طاولة يعلوها موقد يقف خلفها شاب عشريني يعد فناجين القهوة، تربكني صور الموت، النحيب، الأخمرة السوداء، الأزرار الماسية بفساتين العجائز تتوسد البطون المترهلة وتنتفض بكل نهنهة، وبعد دقائق تفرج الوجوه عن ابتسامات شحيحة، حين فارقت أمي ظل أثر لاذع لفص برتقال لا يفارق حلقي، وظل حائلا بيني وبين ثماره لأعوام وحين تبعها أبي تقبلت الأمر بسلاسة، واستحالت الصورة على الجدار هاجسا أدفعه طيلة المساءات التالية فتخلصت منها .

obeikandi.com

فجرًا ألح الهاتف، تجاهلته، بالمرة الخامسة التقطت الرقم.. كان كريم.. بصوت غائم.. ما بين النوم واليقظة أجبته، ظهر أنه بوضع غريب بمكان ما، كان متعجلا ولم أفهم نصف ما قاله، طالبته بالهدوء فلملم حروفه بصعوبة وقال:

. أنا في قسم شرطة البساتين.. تعالي بسرعة ..

. خير! طمني!..

. لما تيجي هاتعرفي ...

بصعوبة أجابني.. لم تدر السيارة بسهولة، علا صوت المحرك وضج بالسكون، سمعت نافذة جارنا المرحوم تفتح، ولم أهتم بإلقاء نظرة، كل ما شغل بالي صوته وخيل لي أن به أنينا مكتوما، تذكرت رسالته على الميل منذ يومين، أثارت بعض مخاوفي، كثيرا ما اختلف مع اليساريين وذوي اللحى وأصحاب النفوذ، كثيرا ما تكلم عن إرهاصاته، عروض العمل الجديدة، سفره المؤجل، ومعرضه الفوتوغرافي بساحة ميلانو بصيف ماض، تجنب الكلام عن ابنتيه، أظن لشعور بالذنب كان يلاحقه دائما، له ابنة غير شرعية من رفيقة يهودية، وأخرى شرعية من زوجة روسية طالبته بالطلاق بعد خيانته لها.. وكانت البنتان لا تشبهانه.

obeikandl.com

دائما ما شكى الزحام، الضجيج، القمامة وحتى أنه فقد القدرة على متابعة برامج التوك شو لتفاهتها ولسخف الحوار، كان يسميها منكهات اصطناعية لزوم الساسبنس. وعدني أنه كما شاركني عالمه الموسيقي العجيب سيعلمني كيف أصطاد الذباب وهو طائر في الهواء..ولم يحدث أبدًا .تفقدت تحقيق الشخصية وكارنية الصحافة، راودني شعور بالضيق لم أعرف له مصدرا، ربما لبرهة استدعى عقلي صور وفيديوهات انتهاك المواطنين بأقسام الشرطة، لم أكن مستعدة نفسيا لخوض تجربة كتلك، تمتمت بسري دعاء ورددت آية، كان الصباح قد أوشك حين توقفت السيارة أمام باب القسم، تفحصني فرد الحراسة من رأسي وحتى قدمي .أطال النظر لحذائي، اكتشفت أن فردتي الحذاء مختلفتان ولم أهتم، كان الضابط النوبتجي يجلس مسترخيا وبفمه سيجارة مضطرب دخانها، اصطف أمامه خمسة أشخاص، ولم يكن كريم بينهم، أدركت أنهم حصيلة كمين ليلة الأمس، من السهل أن تتوقع ما عانوه طيلة الساعات الماضية، فأقلهم بشاعة تحيط عينه اليمنى كدمة زرقاء أخفتها تماما، بالمقدمة شاب أسمر يجاهد لضبط اتزانه، ما فهمته أنه ابتلع لفافة بانجو قبيل ضبطه وبالكاد يُنتزَع منه اعتراف، أدرت وجهي بحركة لا إرادية عندما هوت الكف الضخمة لأمين الشرطة على قفا الشاب فسقط وغرق في قيء رهيب، أربكني رد فعله المستسلم كما تربكني دائما وجوه ونعال ذوي الأحذية الكئيبة، كدت أنسى مهمتي التي جئت من أجلها، وكاد قلبي يرق له، قال له الضابط " أنت هاتتعلق النهاردة" ارتفع صوت الشاب

للمرة الأولى، قال متوسلا بينما يتراجع خطوة " لأ لأ .. بلاش الله يخليك.. أنا ممكن أموت.. عندي السكر " طوال يومين تطاردني صورته، وهو يغالب فيضان دموعه، وظل شيء بأعماقي يئن،

ليس من الصعب حين تمر بإشارة تزاحمك فيها سيارة ترحيلات ألا تخترقك تعابير وجوههم ولا تمسُّك أصابعهم بقضبان النوافذ، وقتها يصبح العالم أقل اتساعا من ثقب إبرة، ربما غاب عني لبعض الوقت أن الصدفة وحدها قد تصنع مجرما، كان المكان رطبا بالداخل، ساهمت الإضاءة البرتقالية الباهتة في الشعور بالكآبة،أشار لي الضابط بالجلوس، أعتقده حتى لم يكلف نفسه عناء النظر إلي .. وضعت الكارنية على المكتب وعدت بظهري أتلمس مكان المقعد، رمقني بنصف عين غير مهتمة وقال :

. صاحبك هنا من إمبارح ..

وترتني طريقته فبادرته بنبرة مشحونة ..

. بعد إذن حضرتك، كريم زميلي وأنا هاضمنه ..

رمقني بازدارء متجاهلا ضيقي .

. تضمني مين! أنتِ فاكره دخول الحمام زي خروجه ..

. ممكن أعرف إيه تهمته ؟

أجاب بلهجة ساخرة ..

. البيه كان بيتطوح وعامل دماغ ، لا ومش عاجبه، وكمان بيقل أدبه .

. أكيد فيه حاجة غلط ..

. مالقيناش حاجة معاه تثبت شخصيته .

استفزتني طريقته فكززت على أسناني ،وقلت :

. أؤكد لك فيه حاجة غلط، وممكن بسهولة تتأكد من كلامي .

سألني بامتعاض ..

. مين بلغك إنه هنا؟ ..

سكت لبرهة ثم أردف قائلا ..

. آه فهمت ..

أشاح بوجهه بعيدا ليكمل ما بدأه وعلى وجهه ما يبدو أنه تحفز حقيقي..قلت بانفعال وتحد ..

obeikandl.com

. لو حصل لكريم أي حاجة هارفع مذكرة لمنظمة حقوق الإنسان . البلد مش سايبه .

.متأكده إنك بس زميلته ؟!

أعقب عبارته الوقحة بضحكة قصيرة مستهترة، أشتعل معها رأسي غيظا، وددت لو أجمع كل البصاق من جوفي كالقذيفة ليستقر فوق وجهه، كنت أنقر بحذائي الأرض بتوتر يثير حفيظته، زفر بحدة دخان السيجارة، وقلب شفته السفلى وقال بضيق :

. وبعدين بقى ، ورانا شغل، من إمبارح في القرف ده .

مر الوقت ثقيلا، ساعة ونصف حدقت فيهما بالساعة فوق رأسه، خُيِّل إلي أن العقارب ميتة، أمعنت النظر طويلا لدرجة أن ظننت أني فقدت ارتباطا بالمكان، بالموجودات، بالتفاصيل، أو ربما أن الزمن توقف فعلا هنا، حككت جلدي لأصدق أن ثمة حياة، ألجأت ظهري للحائط فلسعتني برودته، خُيِّل إلي أنني لمحت صرصورًا صغيرًا يعبث ،ولم أجد بي طاقة لدفعه بعيدًا أو حتى لدهسه، كانت الرؤية مشوشة والروائح غير مألوفة تماما كالوجوه، غاب وعيي لدقائق، أفقت على زعيقه .

. خد الواد ده من وشي، خليهم يروقوه، عاوز أقفل المحضر و قالها بلهجة تقريرية عادية كما لو أن الأمر مفروغا منه.. شعرت برعدة كادت تفقدني الوعي ؛ فباغتني قائلا :

. أنتِ جاية تنامي هنا؟!..

قمت متباطئة لأجلس قبالته، بطريقة عادية جدا طلبت لقاء كريم، فاجأني رده ..

. يكون في علمك، كان ممكن جدًّا أعمله محضر ما يخرش الميه أو ألففه كعب داير مكاتب المباحث لغاية ما يقع من طوله، وفي الآخر برضو هالبسه كده كده قضية تعاطي، بس أنا م الأول هارش الفولة، الواد ده بتاع مشاكل إبعدي عنه .

غادر مقعده متجها للنافذة، قدح ولاعته، أشعل سيجارة أخرى وعاد ليقول :

. تعالى يا ابني، هات الواد الجورنالجي من الحبس، ولا تمدش إيدك عليه .

*****

obeikandl.com

لم يبد ضئيلا بتلك الصورة من قبل، زائغ العينين، على وجهه آثار لصفعات وآثار لدماء جافة، كان شاحبًا جدًّا، صوته مملوء بالبكاء،، توقعت أن تنهمر دموعه، لكنه لم يذرف دمعة واحدة .انزلق بمقعد السيارة، أغلق عينيه، سمعت همهمة وسباب، ألجمت رغبة بمعرفة ما حدث، بالطريق ابتعت بعض السندويتشات ،وزجاجة مياة معدنية وعلبة سجائر ..شعرت بعدها بصداع، دخلت صيدلية لأشتري أسبرين، كان الصيدلي كئيب الخلقة أو ربما لم يرقه مظهري، قال قبل أن أنطق" مفيش مهدئات" سألته لم ظن أنني سأطلب مهدئا، أجاب بابتسامة غريبة، ربما أن حال شعري وتفاصيلي المجهدة ما أوحى له بأعراض جنون أو ما شابه.. لكنه غالبا دقق بالحذاء، غادرته مغتاظة وعدت للسيارة ..

. بالراحة وأنتِ ماشية، حاسس ضلعي مكسور .

. دي روحك يا مولانا .

. يادي مولانا .

لم يختلف مظهره عنهم بالقسم باستثناء شعره المهوش الذي تباعدت أطرافه، وشكلت كرة من الصوف تحيط دماغه ، صوته ما زال حبيس حنجرته، وبقايا دم متجلط عالق بشفته السفلى وأعلى رأسه، بدأ بتحسسه ثم فركه ولم تمنعه نقاطه المناسبة على وجهه أو فوق

قميصه مقطوع الأزرار، برزت ضلوعه وظهرت بطنه المصمتة تزعق لفرط الجوع.

. فين عربيتك ؟!..

زفر عميقا وقال..

. اتسرقت باللي فيها..الفلوس ، الموبايل، ورق الشغل، الكاميرا.. بنت الكلب اللي اا ..قاطعته.

. هي فيها بنت كلب ؟ !

. معرفش إزاي ركبت البوكس، بيقولوا كنت هاضرب الظابط بتاع الكمين.

. يعني إيه متعرفش ، أنت كنت واخد حاجة ؟

. مش ده المهم ..لم أجد ما أقوله فسكت قليلا قبل أن أعاود..

. ليه ما قلتش الكلام ده هناك؟

. ما ينفعش، دي بنت واحد لو سمعتي اسمه هاتقعي من طولك.

أوقفت السيارة وعقلي يموج بكثير من الأسئلة..

obeikandl.com

. يعني إيه الكلام ده، وبنت العفريت تسرقك ليه؟

هز رأسه في شرود ،وكأنما يحاول استيعاب الموقف.

. معرفش . . فيه حاجة غريبة .. شكلي هاغور من البلد دي .

. كله من الهباب اللي بتشربه..ليه بتعمل في نفسك كده ؟!..

. ممكن تسكتي.. ولا أقلك نزليني هنا ..

أمسك مقبض الباب بعصبية، وبنفس الحدة أمسكت ذراعه : . إيه اللي بتعمله ده يا مجنون ؟!..

لم أتلق إجابة، انزلق بالكرسي، ظل يهزّ ساقيه ويحدق بالشارع، أظنه فكر جاهدًا أن يقنعني بالذهاب لأحد تجار الصنف .

كان النهار قد ازدحم حين قررت اصطحابه لشقتي، فعلت ذلك من دون تردد، كان متسخا وبحاجة لحمام دافئ، فارغا من كل شيء، تماما كشحاذ، لم تكن أكثر من رغبة إنسانية تلائم الموقف وجزعه الذي يحاول أن يخفيه، وتناسب احتياجه لساعة نوم ووجبة جيدة، قال مستخفا دمه حين علم بها" إتجوزيني، ينوبك فيا ثواب ."

فكرت للحظات لم اختصني بالمكالمة، اكتشفت كم أن الرقم سهل حتى أنه كرره عليّ أكثر من خمس مرات، قررت تغيير الرقم لرقم أصعب،

obeikandl.com

كنت شبه متأكدة أن للضابط علاقة بالأمر وظلت جملته الأخيرة " أنا هارش الفولة" تتردد بأذني طيلة المساء، ثمة ارتباط بين العفريت والضابط والسرقة التي مؤكد متعمدة، أشياء كثيرة تدافعت برأسي، أسئلة وأسئلة ولم تفلح محاولات استدراجه للكلام، كنت كلما ضغطت عليه انفجر قائلا " أنتِ مش عارفة حاجه ."

عرفت بعدها بوقت أنهم صوروه بأوضاع مخلة وساوموه على السكوت، عمل كريم مصورا نشطا بوقت فراغه لحساب أحد جرائد المعارضة المهتمة بكشف الفساد، قاد حملة ضخمة ضد بعض رجال الأعمال وذوي النفوذ حتى أنه أكد مرة أنهم مدعومون من الحزب الحاكم، لم يكن كلاما مرسلا لأنه وثَّقه بصور وأدلة، صور فاضحة ووثائق ممهورة بتواقيع، وقتها لم يكن يهمس، بل يجلجل كمناضل بينما الجدران تتنصت، تكلم مزهوًا عن تهديدات تصله برسائل الجوال وعبر الإميل، ولم يلق بالا لها، لُمْنَاه ولما لم يحدث شيء اعتقدنا الأمر مزحة سخيفة، لكنني اكتشفت أن ببلادنا كل شيء مباح ومتاح، ببلادنا لا سؤال يأتي بإجابة، ببلادنا لا إجابات من الأصل .

تلك الحادثة كانت محفزا للكتابة عن "وجع مريم" بمقال له العنوان ذاته، فالسبب الذي دفع زميلي للهروب هو نفسه الذي أودى بحياة سعيد حارس عقارنا ،وهو السبب نفسه الذي ألقى بمريم إلى الشارع، إنه القهر، لم يُبَلِّغ سعيد عن انتهاك ابنته، كان يطيل النظر إليها ويضع رأسه بين كفيه ،ويتكوم إلى جانب الجدار ويبكي، اختفى مشهد

الإفطار اليومي، اختفى صوتها وظل حزنه لا يبرح؛ هذا الحزن الذي دفعني للنزول إليه، جلسنا على حافة المرتبة المتآكلة، كان هامدا تماما، صامتا، حاولت قراءة ملامحه، لم يكن غير مكلوم ،حاولت إقناعه باتخاذ موقف حاسم وعمل بلاغ برغم كتمان الأمر لمدة تزيد عن الشهر، لكنه رفض، يمكن تفهم حال أب بسيط فقدت طفلته شرفها .لم أميز أغلب ما قاله لقسوة النشيج وخرجت حروفه مبعثرة، فصهر فلان ابن الوزير الفلاني من فعلها بظهيرة يوم غابت فيه الشمس، يحدث هذا غالبا في غياب المخدومات، لكنهن مع ذلك يملكن القدرة على الذهاب لضحايا نزوات أزواجهن أو حتى صبيانهن، وبقدر معقول من البلادة يمددن يدًا بالسلام ويدسسن بالأخرى أوراقا مالية كعربون سكوت. هؤلاء غالبا يدفعن الضحايا للموت الصامت وببطء شديد، تسللت يد سعيد لتسحب رزمة نقود من تحت الوسادة، كان يتفصد ألما، قال ببؤس لم أعهده:

. قبلت تمنها، بس مش عاوزه، خديه، احرقيه، هاتِلها فساتين كتير .
وبنفس الليلة مات سعيد...

قرأت مرة أن الكائنات تفر لحتفها، لم أفهم ما تعنيه الجملة، فكيف نفر لحتفنا؟!.. الخوف من الموت ذاته هو الدافع الوحيد لنتمسك باللاموت، حتى مرضى السرطان والذين يعانون الربو نبث فيهم الأمل لتزداد مناعتهم فيبطئ ركضهم إليه، لكننا مثلا بلحظة حمق يمكن أن نتفادى بئرًا أو حتى بالوعة لتصدمنا سيارة. فعلاقات الحب الباهتة

نقدم عليها اختيارًا لنهرب من أخرى تركت ندوبا معقدة، ثمة جهل عام بماهية الحياة يحيط بالكائنات .صديقتنا الواثقة كانت تحدثنا يوميا عن قلبها الذي كتبت على بوابته" مغلق للصيانة" كانت أسرعهن ركضا لعلاقة اجتذبتها بنظرة جائعة لنصفها السفلي، فرت من جبروت قلبها لترضي نزوات جسدها، وكلاهما ذبح جميل . بتلك الليلة أجهز كريم على رفيقة وحدتي إذ أنه بنومه على الأريكة لم تتوقف عن مشاكسته، مرة تداعب أنفه وأخرى تئز بأذنيه، بالنهاية حين توقفت بين عينيه أفاق وقبل أن تطير لمسافة خمسين سنتيمترا أطبق كفه عليها بحركة خاطفة وفركها .

. واربي الشباك قبل المغرب عشان الدبان يخرج ..

غادر قبل العاشرة لأكتشف أن اليوم بكل أحداثه وغيومه وحرارة شمسه وتفاصيله كان فارغا تماما، تفحصت الجوال ولم أجد الرسالة التي أنتظرها.. لكنني ما زلت امرأة قوية.. لم تعد تخيفني نظرات الناس،، كلامهم، أو حتى حساباتهم المعقدة، يتغزلون بصوتي ،وكأنني أتعمد عرض أنوثتي، يأخذهم دمعي المنهمر، فيصبح البكاء حينها دعارة تجلب الأفاقين، تسحرهم سنوات عمري ومازلت طفلة تثير زوبعات من الحزن والفرح اللا نهائي، خفت من ضحكة قد تفلت ،وكأنه لابد أن أحسب ضحكاتي بميزان العالم .

لم أكن سوى امرأة تمطر حزنا حين يملؤها الغضب، تحب الفاكهة، والماء البارد، تحب التمدد على ظهرها والتحديق في اللاشيء، تكره الثرثارين، تؤمن أن التدوين طقس تطهُّر، تعشق رائحة العطارة إكراما لجدها، تحب المشي في الشوارع القديمة،تأسرها ملامح الأطفال وشغفهم بالغرباء، لا تحب إضاءة الفلورسينت، ولا تعنيها كثيرا إن كانت مركبة من غاز خامل أو أنها موفرة للطاقة ، تفضل قضاء الباقي من حياتها بمنفى اختياري بساحل ما، يهينها قطف الزهور برغم أنها تذوب بعطرها، تقتفي أثر الماضي بكثير من صور عصر ما قبل الألوان، تحب إنسانيات "ديكنز" وعالم "جارسيا الصخري"، تعشق فيلم مدافع "نافارون"، تاييرات الخمسينات، شَفَتِيّ "صوفيا لورين" ولكنتها المغرية، تأسرها طفولة "سعاد حسني ونعومة سيدة القصر، تربكها استدارات "مارلين مونرو"، وخشونة "إيرين باباس"، جل ما ينقصها حديث وسادة ناعم، رفيق روح يتقن الاستماع كما يجيد الحكي، وعمل ممتع يستهلك الطاقة، لم تظفر إلا بالكوابيس فكلهم موجوع بذاته بلا أي أحاديث لوسائد تخصها- حتى هو- وظلت الصور والملامح وتعابير الوجوه شغلها الشاغل.

*****

حين غنى القيصر رائعة نزار" كل عام وأنتِ حبيبتي" كانت مفتتحا مدهشا للعام الجديد، وأنا اخترت مفتتحي.. تلك الزاوية الكونية، حيث التقت عينانا صدفة لأول مرة.. وبالإصرار نفسه على رفض شجرة

obeikandl.com

العام الجديد لتكون حبيبته الشجرة التي يعلق عليها أمنياته ودعواته وقناديل دموعه، رفضت مثله كل العبارات الكلاسيكية التي يرددها الرجال على مسامع النساء، برغم أن صدفتنا الأولى لم تشعل وجناتها غير نظراتنا المتبادلة .

أذكر أننا بطريق عودتنا من "كافيه أناضول" بآخر مرة لنا كانت أشجار الأكاسيا على الجانب مكدسة بالعصافير، تداخلت الفروع مع زقزقاتها وعلت جوقة صخب لذيذة، اعتقدت أننا ننفذ لفجوةٍ زمنيةٍ حين تسلل وهج القرص البرتقاليّ بطريقهِ للذهاب حاسرًا وجهه ليضيء وجهينا بانحرافٍ قليلٍ لليمين، حتى أن انعكاس ما تبقى من أشعته منح الأسفلت لونًا ذهبيًا ناعمًا .يومها وبشيء من ألفة تداخلت موسيقى حنين لـ"عمر خيرت" وحمرة الشفق خارج النافذة، كدت أبكي، أذكر اللحن جيدًا فقد غلفته فلسفات كثيرة، اتسعت عيناي دهشة، وكأني رغبت بأن تتشكل النوتة فِراشا غير معتاد لنتكئ عليه محدقين بالغيم، لنجتر شيئا ما، لنحبو خلف حلم ما، وعندما اكتشفت خلو جعبة الأمنيات بآخر جملة موسيقية، واجهته وأنا لا أعي من المشهد غير ارتباكي، ما الذي تركه لي لحنٌ كهذا غير كفي بين يديه، وخوف يعتمل من دمعةٍ قد تسقط حين يتصادف أنهم يحدقون؟ ..

كان البيانو بالبهو سر تعلق غيداء بـ"أناضول"، وسر تحملها المسافة الطويلة التي نقطعها لمدينة "السادس من أكتوبر" حتى نصل، لكنها لم تعرف أبدا عن سري، ما إن تقع عيناها عليه حتى تنهض كمنومة،

وبفضول تتحسه، تجلس أمامه كمسحورة. وقتها وبشكل أوتوماتيكي تضيء تحته بقعة من الضوء، تضغط أحد الأصابع فتصدر نغمة وتضيء بقعة أخرى، وتضغط آخر فتضيء أخرى ثم أخرى وهكذا، لم يكن عزفها متسقًا في المجمل؛ لكن دائرة الضوء المكتملة تحت ساقيها كانت سبب سعادة لنا..

تغفر صدفتنا أيضا كل ما يسبقها من مقدمات مضنية، بدءًا من المسافة المرهقة مرورا بعزفها النشاز وحتى انهمار الذكريات، ثمة سحر يجذبنا، كنت قد بدأت التدوين عنه، وبيقيني أدرك أن محاولات اختراق الرتابة تفلح في البدء بجملة غير مألوفة، ومع ذلك عانيت مخاضا عسرًا، وعذبني احتياجي لكلمات لم تكتب بعد .هاتفتني غيداء عصرا لتذكرني بحفل توقيع الصحفي "مراد يوسف". طلبتني مرتين لتؤكد الأمر، بالنهاية ذهبنا، كانت القاعة مغلقة من الداخل لحجزها بالكامل، ولانشغال كاميرات إحدى القنوات بتغطية الحفل، حاولوا منعنا من الدخول، صرخت بأمن الباب لم نقد مسافة كبيرة كتلك ليمنعنا أحدهم بحجة اكتظاظ المكان، لم يهتم، ولما لم أجد استجابة كنت مضطرة لإبراز الكارنيه، تقدم أحد المسئولين عن القاعة ليستطلع الأمر وحين تفقد هويتي سمح لنا بالدخول .ممتقع وجه غيداء وكنت أكثر منها ضيقًا مما حدث . توقعت أن أجد المكان مزدحما جدا، لكن بهذا الشكل بدا زحاما يفوق تصوري، اتخذنا مقعدين جانبيين تركهما شابان كنوع من التهذب بأقصى يمين المنصة، وكانا يقابلان نافذة زجاجية عريضة تابعت عبرها المصابيح بالخارج تضاء

تباعا، لم يسمح لي زحام الحفل إلا بمتابعة غير دقيقة لكل المجريات. شغلني الذي يجلس بجواري في تأنق شديد، نادوه للمنصة بـ خالد الحديدي، تواجهت عينانا بينما يعبر ولم يعتذر عن دهسه قدمي أثناء مروره، آليت على نفسي ألا أبدو مرتبكة، أو غير واثقة برغم تألمي، شممت في تجاهله رائحة غرور، توسط المنصة بين الكاتب الصحفي ومدير دار النشر الصادر عنها الكتاب .

هل تعرف أني ما زلت أسأل نفسي- بغض النظر عن المعروف الذي أسديته لي بدهسك قدمي- ما الذي كان ليحدث لو لم تظهر تلك المغمورة لتغازلك طوال الحفل؟ كانت تلتهمه بنظرة جائعة تمارس فحشا لا يمكن روايته لأحد.. استطعت بمنتهى اليسر أن أشم رغبة في كل حركة.. لم تنتبه بالقدر الكاف لكرزتيها النافرتين لتخترقا قماش البلوزة، كانت امرأة تدهس عتبات الخجل بثبات، لم تبد مطلقة أو مهجورة ؛وإنما واحدة من هؤلاء المنتظرات على أرصفة المحطات بانتظار حضن عابث.. خفض نظره حين نظرت إليه بوقاحة، أمسك بالمايك وتوالى وميض الكاميرات، بدا تلقائيا وبسيطا مما دفع البعض إليه لالتقاط صور تذكارية، حتى تلك المعتوهة، كانت تتموضع بحيث تظهر نصف ساقين ممتلئتين عبر تنورة قصيرة ملتصقة، وقطعة علوية شفافة تبرز نهديها العارمين، تفحصتها ودرست ردود فعله، كان هادئًا ولم يعرها انتباها، لكن اتسعت شفتاه عن ابتسامةٍ خلابةٍ، حينها التقت عينانا من جديد .

حصلت على نسخةٍ موقعةٍ من الكاتب ،ووعدته بتغطية للحفل بصفحتنا الثقافية، عدت لمقعدي، القاعة أقل ازدحامًا، واتتني الفرصةُ لتأمل تفاصيله، وجهه الأسمر الجذاب، أنفه المستقيم، شفتيه الغليظتين، كان وسيما كموديل إعلانات، يتحرك بثقة ببنطالٍ من الجينز، وقميص من الكتان بتجعيدة لطيفة، شغلت "الروليكس" حيزًا كبيرًا بمعصمه، لم ألمح ببنصره خاتم زواج، تعجبت حين وجدتني مرتاحة لتلك الفكرة ومندهشة بالوقت ذاته.. ظلت المغمورة تجاهد كنحلة لا تستوعب نفاذ الرحيق.. ميزت أنها سألته عن رقم الهاتف؛ لأنها سجلت رقما ما بذاكرة جوالها، بادلها تحيةً سريعةً وعاد يتفقد حاسوبه، ربما بعدها تواجهت عينانا مرة أو مرتين، لكنه فيهما أطال النظر إليّ.

تابعت مرور السيارات بعد أن استدعيت انعكاس صورته على الزجاج بينما يرتشف القهوة، أصبح لي بعدها ذاكرة منكهة برائحة القهوة التركية، لكن كيف شغل تفكيري لهذا الحد؟ كيف يمكن أن يطلق كل تلك السعادة والاشتعال العاطفي؟ ربما كانت "lady لـ كيني روجرز" سببًا أساسيًا.. انساب اللحن بحاسوبه من دون توقف، والتمعت بعض الشعيرات البيضاء متفرقة برأسه .اقتحم أحدهم لحظتي، كان أحد العابثين، مضت ثوان قبل أن يهمس بالقرب من أذني ..

. الجميل سرحان في إيه؟

ردت غيداء بضيق ..

. إيه قلة الأدب دي !.

لفتت الضجة نظر الحضور، سمعت همسهم يتردد، تسلل الوقح منفلتا للخارج كخيط دخان، أفسد وقتًا كنت أحاول فيه إطالة عمر لحظتنا بارتشاف الموكا بمزاج هادئ وفشلت، إذ انتبه خالد للصوت وظل يحدق بي، شعرت بحرجٍ بالغٍ أخذت على إثره حاجياتي واندفعت نحو الباب، بردت الموكا ولم تمسها شفتاي، تسلل فقط خيطٌ رفيعٌ لرائحتها الأسطورية مداعبًا أنفي، أما هو فاتجه للمنضدة التى شغلنا فراغها مؤقتا- هذا كان اعترافه - جلس بمقعدي متخذًا الزاوية نفسها ليتابع الهوندا منطلقة بنا بسلاسة .

كانت تلك مرتنا الأولى، استدعيتها بخيالي، ارتشفتها على مهلٍ كمن ترتشف نبيذًا معتقًا قطرة قطرة، تسرب لأنفي عبق العطر الذى وضعته يومها، كان "دوت انفو" لشانيل وكلفني نصف راتبي، بالزجاجة لم تتبق غير بعض قطرات تداعت على إثرها صورةٌ بعيدةٌ لكرسيٍ مرتفعٍ بكافيه، وأثر لعطر رجولي فاخر يكتنف الأرجاء، كإيقاع رقصة تانجو على وشك البدء . أقلتني للبيت، بالطريق كنا نخطط لعشاء وثرثرة.. تمددت على الأريكة، دخلت لأبدل ملابسي واتجهت للمطبخ ... جاء صوتها غائما :

. أخدتي بالك من ضيف الحفلة؟ ..

ابتسمت بسري.. خفقت البيض لدقيقة بعد أن أضفت له الزيتون وبعض الجبن، لامست فقاعاته حافة الطبق.. أحببت أزيزه حين لامس النار.

. بكره الخميس؟! مش كده؟

خرجت لأستطلع الأمر.. كانت تدقق بالروزنامة على الحائط وتتمطى مجهدة:

. لازم أنزل دلوقتي.

اعتذرت عن اضطرارها للذهاب لتصحب أمها باكرا لإجراء بعض الفحوص الهامة ،ثم أخذها لأختها لقضاء أسبوع في محاولة منها للتخفيف عن غيدا.. كانت أمها قد زادت علتها، قبل نكستها الأخيرة كانت تصحبها للمشفي يوميا ومن دون كلل أو ملل.. توجهتُ مرة لزيارتها، وجدت الكثير من أقاربها هناك، الوجوه واجمة والزيارة ممنوعة، والناس لم تبرح أماكنها، كانت ليلة حزينة، عدت يومها أغالب ضيقي، بدت الأشياء أمامي واهية جدا وعلى عكس حقيقتها. اختفت تلك الشعرة الدقيقة بين القلق والاطمئنان ؛فعادت كل التفاصيل الباردة والكوابيس المملة، فأراني ممددة شبه عارية على سرير حديدي بملاءة بيضاء بينما المحاليل تخترق وريدي، وشخوص الغرفة المموهة يرمقونني ببرود، استشعرت لوهلة قرب النهاية، شعرت برهبة حاولت للحظة دفعها لطمأنتها، وأجبرت ملامحي أن تبدو عادية.

obeikandi.com

. هاتبقى كويسه. ما تخافيش.. الحالة النفسية بتفرق كتير. وطمنيني لما توصلي .

.هاخلص وأجيلك ..

انتعلت حذاءها، وفي عجلة اتجهت للردهة . تابعتها تهرول باتجاه الباب، أغلقته خلفها..عدت للمطبخ، كان البيض شبه احترق، أكلت قطعة لم استسغ مذاقها فبصقتها ،وألقيت ما تبقى لقطط المسقط"لكن، مازال لم يأتِ الرنين".

*****

قضيت الليل بأكمله أحاول ارتداء زوج من العدسات اللاصقة الزرقاء، لم تثبت إلا بعد عشر محاولات فاشلة، وحين انتهيت كنت في حالة من التوتر لا تحتمل، لم تكد تمر خمس دقائق إلا واحتقنت عيناي وانتشر الاحمرار،نزعتهما مرغمة..وددت لو أبصر العالم بعينيها. الحورية الخزفية على سطح المكتب لها عينان زرقاوان.. ولها البراح باتساعه حين تطلق فراشاتها مشتعلة بالضوء، تعانق السماء، تفر لزرقة مموهة، لا تعبأ بعدد رفات الأجنحة ولا بانعكاس الضوء على أعينها المركبة، لكنها تدرك أن للألوان دهشة هي متعة التحليق، حين يمتص الأزرق سخونة الأحمر، ويمحو الأخضر رتابة الأصفر، ويمتزج الأبيض بالأسود فيتوحدان، ويرسلانها للحلم البعيد .

obeikandl.com

عالمها يتسلل خلسة لحدائق روحي، هدوء عميق يكتنف الأرجاء، عطر خفيف برائحة أبصال الجلاديولس وأزهار الأوركيد، تسللت خطوات قصيرة لأنزرع بهدوء على المقعد البني بمواجهة المكتب، ألجأت ظهري إليه، فتشت أناملي عن دفترٍ بنفسجيّ قديم، لاحظت خيالي الممتد على الجدار بينما أقلب الصفحات، قرأت السطور .. " تخبر نفسها كل مرة تذهب فيها إليه أنها ستعود لترتب فوضاها، لتلملم شتاتها، ولتعشق تلك الأنثى بداخلها حين تنظر في المرآة " كنت أدرك أن الكاتب يهب لأبطاله قبسًا من روحه، تنصت للإيقاع الساكن بدفء الحروف، وجدتني فيه، تمددت فوق الأريكة، سكنت البؤرة المنعكسة للضوء، للحظات تطايرت الجمل إلى الفراغ الناصع بالسقف، استحالت فراشات . حاولت دون جدوى لمسها، جابت الأنحاء بخفة، لمحت كونًا من ألوان وأفقًا شاسعًا من شفق.. غفوت،عاودني الحلم ذاته .

*****

" أرجوكِ لا تمزقيه، ماهو إلا دفتر تدوينات عادي، أقسم لكِ أمى إنها مجرد تدوينات بريئة أكتبها بوقت فراغي، لا داعي لأن يعرف أبى، لا شئ فيه يقلق، أرجوكِ أمي " .. كابوس متكرر يلازم المساءات المتكررة، ربما اكتشفته أمي بحشوة الفراش، لكنها لم تواجهني، لها أيام تتجنب الحديث معي، تمر بيننا ساعات صمت طويلة تسلمني لنوم أتقلب فيه على وخز، أوشك أن أغرق فى دهاليز عقلي .ثمة شيء يحدث،أحسه ولا يمكن أن ألمسه.

ظل الوجوم رفيقها لأيام، روحها تنسحب رويدًا، لم تغير عباءتها لأسبوع كامل، أحاطت عينيها ظلالٌ سوداء كغيوم أمشير، الصمت بيننا يكبر، تقطعه أحيانا بعض الجمل المبتورة . لم تجمعنا مائدة طعام لأكثر من يومين، لم يهتم أبي، ولم يسأل عن الأسباب، تضع الطعام له يوميًا على الطاولة فيأكل وحيدًا، يتسلل مجدي على أطراف أصابعه داخلا غرفته فلا يعيره أبي اهتماما، ولا يدعوه للمشاركة.. أعبر أمامه، فيغير زاوية النظر – تلقائيا- باتجاه آخر، دفعت الباب ذات صباح ودخلت على مجدي، كان محدقا لفراغ الشارع :

. تعالى إفطر.. ماكلتش من يومين .

تبعني ساهما، ظل شاردًا بينما يتناول الإفطار، سألته أمي إن كان سيذهب للجامعة فلم يرد.. شعرت كما لو أن نارًا اشتعلت بداخله ولن تطفئها كل محيطات العالم.. لم يكن متعجلاً ولم يمس كوب الشاي، قام بطيئًا باتجاه الخارج .. صفق الباب، وصلتنا هرولاته على السلم، قامت أمي بعد أن حدجتني بنظرة غامضة .

شبحٌ غريبٌ يجسم مستنسخًا بكل الأركان، يرابض كريهًا بنصف عين تقدح الشرر، ظننت أنني الملومة ولكن لم تواتني الجرأة للسؤال، تراها ضبطت الدفتر البنفسجي؟! لو أنه الدفتر لماذا لم تمزقه فعلا؟ وإن كان غيره لمَ لا تواجهني وتحسم الأمر؟ كنت أربط بين تغيرها وقطبة جبينها

اليومية ،وأتخيل رد فعلها لو عرفت عن لقائنا، لم أجد لها رد فعل يناسب جحيم الصورة؟ في كل الأحوال أظنها كانت لتموت.

مرت أولى ليالينا كرقصةٍ بغيمةٍ تبعتها عاصفة تسونامية اقتلعت هدأتي، حين استحال الحلم البعيد لتراشقٍ متعمدٍ ومراودةٍ بحجم قرص شمس حار، كانت الخيوط لتنفلت واحدًا تلو الآخر، لم تنتهِ لطرف يدي، كنت يا علي صاحب الدمية، وحدك تقدر على قولبتها، أسرعِ إليك ولم يعد يخجلني أنني امرأة تشتاق رجلها، ما زلت لا يخجلني سري، وما زلت لم أطلب الغفران. بالمساء دخل مجدي غرفتي من دون استئذان.. مد رقبته يتشمم وجود أمي.. حاولت جاهدة إخفاء ضيقي، بحركة سريعة قذفته بوسادة، تفاداها مبتسما، تقدم نحوي وجلس قبالتي مستندًا للفراش .بادلني حديثًا وديًا:

. أنت أجمل حاجة في البيت ده، تمام زي ياسمينة ف صحرا.

طمأنتني مقدمته اللطيفة، لكني أيقنت أن بالأمر شيئًا ما.

. إيه اللي حصل؟ أمك بتكلم نفسها طول الوقت، بأسمعها وأكذب نفسي، عاوز اسألها وخايف، وأبوكي ولا كأنه عايش معانا.

كان كمن يحاول استنتاج سبب تغيرها، أربكني حديثه فابتسمت ابتسامة باهتة.

. أنا زيك مش فاهمة .

. فيه موضوع عاوز أكلمك فيه .

. سمعاك...اتكلم .

. آسف إني اقتحمت كهفك بالشكل ده .

. كهفي ؟!.

. باضحك معاكي ،مالك ؟ !

تساءلت عن قصده من تلك الكلمة بهذا الوقت تحديدا، أتراه عرف بأمر الدفتر فجاء ليسأل عن محتواه؟ أم جاء ليطالبني بتفسير لحالهما؟! لو سألنى فالأمر بسيط، سأجيب بمنتهى اليسر، ليس مضطرًا لأن يمارس رجولة هزيلة، لم أتصوره يضربني أو يطالبني بحرق تدويناتي، لم يكن دفتر اعترافاتٍ على أي حالٍ.. قطع صوته أفكاري :

. نفسي تفهمي إن كلامي معاكي يهمني أكتر مما تتخيلي،

كانت حروفه مبهمة ولم تفصح عن شيء .

. عاوز تقول إيه؟ بنبرةٍ شبه هادئةٍ .

obeikandi.com

. حاسس بتوتر ، افتحي الشباك من فضلك .

. قلقتني.. خير يا مجدي !.

الموضوع يخصني .

تحسس جيبه وأخرج لوحًا كبيرًا من الشيكولاته بغلاف مذهب أنيق يضج بعطر نسائي أخاذ، بعدها عرفت أنها ليست منحته وإنما هدية من صديقة بالجامعة، انتابني الفضول ليس بشأنها ،وإنما لأنه بغرفتي على غير العادة، ولرغبة بالكلام لم تبدأمعي، اعتاد تأمل جدرانه بكهف آخر يجاور كهفي يسجل به نقوشا موحدة، رسوما بدائية لكائن يتواصل بلغة أقرب للإشارة أو النقر كما بشفرة "مورس"، كهفه الصغير لم يتسع لسواه لذا كان لزاما عليه كل يوم أن يصارع حزنه وشهواته وكل عواطفه ثم يختبئ بداخله حتى الصباح، فيجدهم في انتظاره، كثيرا ما تساءلت عن صوته ،وهل هو ملائم لتشريح جسده!، لطوله وعرضه مثلا، لملامح وجهه، لانفعالاته، اتضح أنه لا فرق لأن الصوت أداة اتصال، وهو لم يقرر مدى حاجته لهذا النوع من التواصل، نحن عموما نخضع أصواتنا لأمزجتنا ،ومع ذلك غرق حتى أذنيه بعالم مُبْتَسِر من سياسة ظن أنه أدمنها كعادة سرية تفرغ طاقة لن يطيق كتمانها، ربما لا يدرك أنى أشم بغرفتي رائحة السجائر المنبعثة من نافذة حجرته متزامنا مع حرق الجريدة الماركسية للحزب

الوحدوي، لم تفلح أعواد البخور فى إنعاش التيار الراكد لذاته المتأرجحة، ولم تخفِ سره.

لم يرث من أبينا ضخامة الجسد، وإنما فاقه طولا، تبع ذلك انحناءة بسيطة وملحوظة بالظهر، أعتقدها تسللت لخجله كونه فاقه في الطول، على الرغم من أن للفروع ارتحالات غير ممنطقة بقوانين الجذب، مجدي المنطلق مع رفاقه هو ذاته المتشرنق طي الجدران، حتى الشاي الذى أحيانا ما يتلهف إلى احتسائه غالبا لا تواتيه الجرأة ليفعل بوجود أبينا، وكأنه مخاط أفرزه الشيطان .كان البيت مغارة آسنة تستدرج عمرنا للذبول ..لكزني فانتبهت.

. دي مش رشوة عشان حاجة على فكرة، أنا كده كده كنت هاتكلم معاكي..

أرسل عينيه للشيكولاته بين يدي، كنت أقلب فيها وأحاول رسم صورة لصاحبتها ...

. كليها يا جورية قبل ما تدوب منك.

فضضت عنها غلافها الذهبي ، تأملت قطع البندق المتناثرة بأرجائها، قضمت قطعة صغيرة ذوبتها حرارة فمي .صوب نظره لأسناني وقد اصطبغت بلون بني، أخفيت فمي بكفي خجلا، فاسترسل ...

. نظراتك كلها فضول، هاقلك عشان ترتاحي، أنا وصاحبة الشيكولاته بيننا مشاعر . مش مجرد علاقة عادية صدقيني.. إنما شعوري تجاهها مختلف عن كده بكتير، تقدري تقولي نوع من المسئولية يمكن جديد عليا ومش متعود عليه، بس في النهاية إحساس صادق ومختلف، وببساطة شديدة مطلوب مني أنفذ وعدي لها .

لم يكن عليه أن يبرر احتياجه إليها، فكل ما أعرفه عن الحب لا يتوافق ومبادئه، شعور بالخزي بدأ يحيطني.. تفرست بملامحه ،وكأني أحاول استنباط مفهوما آخر للمشاعر غير ما دوَّنه علي بأنسجتي وبين شفتي.. بدا له للحظة أنني لا أفهم . فخرجت حروفه مندفعة :

. لو حسيتي مشاعر زي دي هاتفهمي، أتمنى أكون هنا لم يحصل ..

تبددت رغبتي بالكلام، ما الذي يمكن أن أقوله أصلا.. تغيرت الأمور سريعا.. تابع من دون تردد :

. إفهمي، أنا مش محتاج قنبلة تفجرني عشان أعلن رفضي لحياة بالشكل ده، أنا محتاجها أكتر من القنبلة لأنها فرصة حياة مش موت ..

تأملته ..لم يكن أبدًا مجدي الذي أعرفه، كان مجدي آخر تماما .

. اعتبريه عبور آمن، لجوء عاطفي..أي حاجة والسلام.. هانتخرج ونتجوز وينتهي كل العذاب ده .

قلت في نفسي، الطريق أطول من أن تدركه يا مجدي، أنت بحاجة لمعجزة، سكت قليلا قبل أن أسأله عن اسمها فأسند رأسه للوسادة، وقال مبتسما :

. أمل.. شوفي الاسم ودلالته.. زي ما يكون ربنا بعتهالي.... دي حتى بتكتب لي شعر !

حدقت في وجهه بعينين لا تطرفان، إختفى الأثر اللذيذ للطعم السكري. تأملته بعينين تغلفهما الحيرة ،وفاجأني بما لم أتوقعه ..

. هانسافر لندن ونبدأ حياتنا هناك .

. تسافر وتسيبني !قلتها بصوت مرتجف بينما أقضم أظافري في محاولة يائسة لدفع الضيق .

. أنا ما روحتش في حياتي مكان أبعد من هنا، بس أنا عارف كويس إن المسافة من باب أوضتي للندن أقصر بكتير .

أطرقت وكل خلية بي تكاد تصرخ به ليكف عن كلامه لكنه تابع من دون اكتراث.

. كل ما أشوف نفسي في المراية أحس روحي بتشيخ، مش عايش ومش ميت، عمري هايتسرسب مني، ومنتهى أحلامي روب تقيل يبعتر رعشة الشتا اللي مكلبشة في جلدي .

هالني ذاك الشعور بالفقد، وكأنني كنت ممتنة للحياة أنه كان هنا، والآن ألعنها لأنها منحته خيارًا للهروب، كنا بصمت نقتسم كل شيء، كرهت سيدة الشيكولاته وما أتت به من مفاجآت، كرهت مبرره " فهو بحاجة لها، فربما تمنحه ولو كوبا ساخنا من الشاي، وسيجارة، وبعض الأنفاس للحياة". هكذا قال، لكن أكثر ما أدهشني رغبته فى أن أقنع أمنا وكأنها الباب العالى لرضا السجان، سيسافر فى كل الأحوال، طالما أحبها، وطالما حدثته نفسه بالرحيل، حتما سيفعل.. قتلتني أفكاري، لم أستطع التماسك، غرقت في نحيب مكتوم، أذهلني أنه لم يهتم . دس يده بجيب قميصه متحسسًا حافظة نقوده، وحين أمسكها احتضنتها طويلًا عيناه، كنت مشدوهة. تعلقت عيناي بأصبُعَينِ منتهيين لصورة صغيرة أدركت يقينًا أنها لحبيبته، التقطتُها من بين أصابعه، غالبت فيضان دموعي ...

. عارف إيه الأجمل من عينيها؟ ابتسامتها ...

قلتها بأسى، وحين التفت إليه وجدته يحدق بالصورة بهيام . أنهى حديثه بلطف، وأعاد الصورة لمكانها، سألني إن كنت بحاجة لشيء، أجبته بزفرة طويلة، وقبل أن يهم بالخروج ناديته بصوت عال، طالبته

بإعادة التفكير، أغلق الباب خلفه دون أن يعلق بكلمة واحدة .حاولت استعادة سنواتنا معا فلم أتذكر غير ياقة باهتة لقميص بني، بنطال وحذاء أسودين، وعينين غائمتين يسكنهما الحزن. حين انتهى من كلامه وجدني فى صدره، كان حضنه أكثر أمنًا من جب ألقي بنفسى في ظلمته بحثا عن خلاص معنوي، تمطى الحزن بضلوعي، قبل جبهتي، احتواني بصمت وذهب، تركنى لليل يأكلني بنهم كألف متاهة من أسئلة.

*****

. بتحبني ؟

. لما أضمك بتختفي أوجاعي وكل سخف الدنيا، هو ده الحب، مش مجرد علاقة بتبتدي وأنتِ في حضني، إنما الرضا اللي باحسه بعدها، وكأني بأصرخ بصوت عالي" أنا سيد هذا العالم" .

ما الذى يدفعنى للكمون فيه عندما يهمس لي، لأغوص بين ضلوعه كيتيم يذبحه الفقد، لماذا لا أعرف الوحشة إلا معه ؟ ولماذ ليس لنا قدرة على التراجع حتى لنتأملنا بدوننا؟ كنت فى حاجة لأقطع الممر إليه لأراود إحساسًا نرتشفه معا، وحين ننتهى أظنها النهاية، ويظل مابين شكي ويقيني مسافة باتساع ذراعيه .

. مالك ؟!..

. وحيدة ...

أجهشت بالبكاء، نقب عن موضع بوجهي لم تلمسه شفتاه، أعلى جبهتي. قرب منبت الشعر، قبلني طويلا وقال: وحيدة فعلا ؟!! أنت بس مش عارفة إنك بخير طالما أنتِ هنا ..

وددت لو أخبره أني أغتسل في كل مرة بعد لقائنا أكثر من عشر مرات.. كيف أكون بخير وأنا أفعل ذلك، لست بخير تماما، لقد خُدشت روحي.. تحسس شعري، اعتقدته حين أمسك بخصلة منه أراد الاحتفاظ بطرفها فارتددت للخلف. ضمني لصدره وحدق بي بذهول جاذبا شعرة، توجعت قليلا لكنه أمسك بكفي ،ووضعها به ثم أطبقها ..

. افتحيها لما تروحي ..

رجوته أن أفعل فقبل كفي برفقٍ محكمًا إغلاقه وكرر جملته : . مش قبل ما تمشي .لم أفهم، اتجهت للباب مضطربة، خرجت ببطءٍ فأوصده ورائي،فتحت كفي لأجدها بالداخل ملتفة تلمع، كانت شعرة بيضاءَ مفضضةَ،

تساءلتُ بفزعٍ :

.من أين تراها أتت تلك ؟!

*****

بصمت عدت فارغة لخواء متنام بين عالمين، كرهت أحدهما وذبت بالآخر كأقحوانة تبتلعها الريح، قطعت عيناي الشقة، لمحت أمي بالركن ترفو فتقا بجلباب أبي، ظنتني أطعم الدجاج، وظننت أطعمني الهزيمة.. بي حاجة للاغتسال. رغبة ملحة فى احتضان المياه، واللجوء إلى الله بتضرع فيقبلني أو هكذا كنت أوهم نفسي، تساءلت هل يردني خائبة وأن العالقة ببابه؟ !شيء ما بداخلي كان مرتاحا للتطهر، برغم كتابتنا دستور لقاءنا بورقة زرقاء، وحين سألت نفسي عن اقتناعي بحروف عهدنا الموثق سرًا أجدني مجرد بلهاء مدفوعة بقوة خارجة عنها.

نظرت لي أمي متمعنة، بيقينها أغتسل لأزيل ما علق بجسدي من روائحِ للريشِ المتطاير، بيقينى أسرب ما علق من شذرات بركانه، ألقيت بجسدي المتقد لبرودتها.. سربلت خيوط الماء المنفلتة، وأزحت ما تبقى من أثره. استسلمت لخريرها، عزلني عن العالم وأعاد المشهد لي، أدركت أن ما حدث لم يكن وهما بل كل الواقع، أفقت على ألم حارق بنسيج كتفي، اتجهت للمرآة المغبشة بالبخار الطازج، مددت يدا مرتجفة لأمسحه، ببطءٍ شديدٍ ، شديدٍ جدًا، أدرت ظهري لأتكشف موضع الألم، صدمتني علامات أصابعه حمراء غائرة بجلدي تتوسطها علامة بنفسجية شبه مدممة، ابتعدت، استندت بجسدي للجدار البارد وبكيت. عضضت أصابعي لأكتم صرخة كادت تزهق روحي، احتقرته وكرهتني، دعوت الله أن أختفي، أو أتلاشى برذاذها، لكن كيف أذوب بها وهى المتسللة إليّ، تخترقني لتستر عريي..

جاءتني صورتها إلى جانب الباب ..آه أمي.. أنا حزن لا وطن له عندما ألمحك بالركن ترتقين جلبابًا، بينما أجتثني من الجذور بجرمٍ أبدي . آه لو تضميني إليك، لو تعيذيني من شيطان مريد يزين الجرم لي، ربما أرفل مثقلة بالذنب ما بين مطرقة وسندان فتتآكل توبتي، لكنني أتساقط هلعًا كلما اخترقني شرودك، أود لو أخمشني بأظافري فتدمى خلاياي فتتوجع وتتوجعين لي، لو أنك سألتِ نفسكِ، ما الذي يخفيه عبوسها؟ ما الذي يعنيه صمتها؟ ما الذي تختلسه ساعاتها؟ سأجيبك آه لو تدركين خسارتي، سيبكيك الجسد الذي سألتني اكتمال قمره، ولن تتوجعي للروح التى فارقته، أردت أن أهزها بقسوة، أن أصرخ بها: أفيقي أمي، أو اسألي ..لأنني بمنتهى الوجع لن أجيبك.. لن أجيب.

ثلاثة أيام تمر وعاد مجدي ليسأل.. راوغت، لا لأنني لم أجد الوقت المناسب، ولا لأنها لم تهدني كذبًا شبح ابتسامة بصباحاتنا النؤومة فأسكب عني هذا العناء؛ لكن لأن الأثر الساخن لفعلتنا ما زالت تفضحه خلاياي، وتتنشقه أنفي، ويسري بين الشفتين، لن يجدني توددٌ لها كما لم يفاجئني رد فعلها حين ابتعدت مدبرة ،وكأنها تعرف عني كل شيء . فرك كفيه بتوتر، رائحة السجائر كانت تعبق المكان .داعبته فلم يلق بالا ...

. قلتلك الموضوع ده مهم بالنسبة لي، مش عاوز أفاتحها بنفسي دلوقت، على الأقل أنتوا طول اليوم مع بعض، وممكن تسمعك، ليه مش مهتمه ؟ !

. مجاتش فرصة بس، فيه شيء جد؟

. مفيش يا جورية، مفيش، هاقولها بنفسي واللي يحصل يحصل.

تابعته بعيني عابرًا الممر الضيق الذى يفصل حجرتها عن الصالة، تركته يتحرك باتجاه خياره دون أن ألتفت للوقت الذى سيفصل حتما ما بين زمنين، لم تكن طمأنينة إنما كان استشعارًا لهزةٍ داخليةٍ عنيفةٍ ترتع فى الخلايا . دخلت غرفتي متخذة قرارًا غير مبرر بأن أكف عن ترقبي المجنون لظهور عليّ بالشرفة أو اللوذ به حين يأتيني صفيره متقطعا يدندن ...no woman no cry .. أحيانا نكتشف أنه من المفيد جدا أن تتراجع خطوة للوراء، خطوةٌ واحدةٌ للوراء قد تضبط كل شيء.

*****

قلَّبت أمي كفيها مرتعبة، نعم صفعته بقوة، كادت تقتلع عينه اليمنى من محجرها، اتجه للمرآة ليتأكد من علامات أصابعها الخمس، لم تبكِ بل ظلت تحاول استدعاء أى نوع من التعابير فلم تجد، أما هو فظل لبرهة ذاهلا يرتجف، بعض خطوات قصيرة له وتلعثم وحاجة للبكاء لها، واجه صورته المنعكسة، رشق المرآة بقارب الفاكهة الخزفي، تفتت الزجاج قطعًا كقلبها .

.سامحني يا بني، ما قصدتش، ما قصدتش ...

استدار بخطى عريضة.. صفق الباب خلفه .هرولت للغرفة.. أغلقت بابها وأجهشت بالبكاء..لكن.. لماذا تفعل كل ذلك؟ !!سفر والدي المتكرر، وغياب أم علي يأتى متزامنا، كلما استلقيت بفراشي كلما هاجمتني الوساوس، سألت أمى عنه فأجابت بضيق : في مأمورية، سألت عليّ عن أمه فرد ببرود : في طنطا تنهي بعض الأمور، يعود أبي فتعود هي، يذهب فتذهب، أين عساه يكون وقتها؟ أين يبيت؟ هل يمكن أن يكونا ااا.؟؟ ، لا مستحيل، هل رآها مهربا لحياة جديدة؟ هل كان أنانيا لتلك الدرجة؟ ولم لا، لو سيطرت الرغبة سيلبيها غير مهتم بنا. خطه المستقيم ينتهي لمنحنٍ ليس من تناقض ولكن من تمرد، جذره العالق بنا يقتلع ذاتَهُ، ويسلم نفسه للريح.

ظهيرة مقبضة ..الأجواء خماسينية.. الغبار عالق بالفراغ، فراشات الستائر اختنقت وانسحبت للداخل، مصباح الغرفة عجز عن الإتيان بحزمة ضوء بعد أن غابت الشمس خلف السحب القاتمة.. أرسلت الشبابيكَ صريرا كئيبا، خلت الشرفة على أعمدتها بعد أن انقطع حبل اللبلاب، أفلت مجدولا بورقاته الصفراء كمقدمة هزلية لما هو قادم، أوشك خيط دميتها الأولى أن ينقطع، وسبقتها الأخرى فى الخفاء، تاقت عصافيرها للتحليق، سيتركونها له.. وحيدة تماما، وليس وهمًا انصرافه عنها، حضوره المفعم بالروائح، غموضه يغلف كل شيء.. ملابسه، أنفاسه، كذبه، ارتباكه حين تواجهه، نبرة صوته، صمته الذى يطول، عبوسه، إشراقه اللحظي، مئات الأعذار للسفر والغياب، سؤاله اللحوح عن حالهما، استراقه السمع لبابها كلما أتاه صوتها، تسأله

عنهما فيجيب : "أرملة صاحبي وابنه اليتيم، ومش هاتخلى عنهم". كان يدرك أنها استشفت العلامات ،ومع ذلك ظل أسيرا لحلمه الهمجي،

لا منطق في هذه الحياة، البيت على اتساعة مجرد زنزانة مظلمة، ونافذتها الوحيدة باردة كئيبة لا توحي بأي شيء..أيامنا لا تمضي، وساعاتنا يلازمها الضجر. في كل هذا البؤس، كنت كطائر يضرب بجناح واحد فلا يفقد ميزة التحليق.. وكان مجدي بيأس يضرب بالجناح الآخر. صفعت أمي كل ذلك، فجرت مخزن هواجسها، غاص قلبها إلى قدميها حين لم يأت مجدي بموعده.. رسم الشقاء ملامحه بوجهها وحتى الداخل، كانت تضرب بكفيها على صدرها وتزفر.. قطعت المسافة من الصالة إلي الشرفة أكثر من عشر مرات، وفي كل مرة تعود محملة بالشحوب.. سمعتها تئن بصوت واضح، تجرجر ساقيها بصعوبة، لمحت انحناءة بظهرها لم أرها من قبل، تساءلت هل أمضت بزنزانتها الانفرادية كل هذا الوقت من دون أن ندري، أم أن وطأة الخذلان من فعل بها ذلك.

. أخوكي تأخر...

. يمكن عند حد من أصحابه.

. أول مره يتأخر كده.

. الغائب حجته معاه.

. قلبي واكلني عليه .

. الامتحانات قربت.. طبيعي يتأخر .

. كان لازم يقول .

. زمانه جاي .

استدعيت جيوش الطمأنينة لتهدأ، وكنت أكثر قلقا منها، مؤكد أنها أدركت بحدسها أنه يمر بأزمة، يظل مسهدًا طوال الليل، يستمع للأغنية ذاتها، لا يكف عن غلق باب غرفته رافضا الطعام، تشغله تلك البنت- لاتنكر عليه حقه- لكن علَّمه الحب الذبول والتوق إلى الفرار..

دخلت حجرتها وأغلقت الباب . وصلني بعد لحظات صوت ارتطام قوي، شيءٌ ثقيلٌ تهاوى فارتج السكون، استجاب جسدها للجاذبية اللعينة، تسربت من ساقيها الحياة، استسلمت مدركة أن كائناتها المتسربلة بعالمها العدم تحيطها من كل جانب، كائنات من صبر وعوز، سؤالٌ واحدٌ يلتهم جمجمتها، لماذا حدث ما حدث؟ لم يكن حبا ما يربطنا، لماذا أدفع مقابل سلعة لم أقتنيها ؟!..

شهور تمر، هزلت أمي، صار لونها داكنا، عيناها جزعتان لا تهدآن، لا أعرف كيف ذاع خبر مرضها، رأيت أقاربنا بعد انقطاع سنين، لم أستشعر حنينا لهم، لم يحن الدم كما اعتقدت، زيارتان متباعدتان

obeikandl.com

بأول كل شهر و بآخره، ثم زيارة بمنتصف كل شهر، بعدها توقفت عن العد، كانت تمسح بكفها صدر أخيها سالم، تتبسم بوداعة ، وبعد انصرافه تجهش بالبكاء، اكتشفت أن مجدي يشبه خالنا الكبير بدر..زارنا بعد شهرين من مرضها، ترك بين يديها ظرفا فيه نقود، بكت أيضا بعدها، سألَته عن زوجته وبناته فأومأ مبتسما وقال : بيسلموا عليكي .. همس لها قبل أن يغادر أن أخاها جمال أرسل لها حوالة بريدية لم تصله بعد، وجمال هو خالنا الثاني بترتيب الأخوال، لم تتعد مكالماته أكثر من دقيقتين في العام الأخير، سافر إلى بلغاريا للحصول على درجة الدكتوراه بعد ضياع فرصته في التعيين بالجامعة، أذكر يوم ودعته جدتي بالمطار، وأذكر وعوده الكثيرة بالعودة، وأذكر خصلات شعري المتطايرة وأنا أرقب الطائرات في السماء، عدنا يومها نحمل في أعيننا الدموع .المرة الوحيدة التي قطعت غيابه كانت بعد وفاة جدتي بأسبوع، دق الجرس، احتشدنا أمام الباب في ترقب، فتحت أمي ببطء شديد، دخل علينا ببزة أنيقة وطفلين يتحدثان لغة غريبة، ابتسم لنا ومد يده ليصافح أبي، لم يعانقه، وقف أمام أمي صامتا، ألقى نفسه بحضنها، ضمته طويلا، علا صوتهما بالنحيب، تعلق صغيراه به وكنت أرقبهما، ضربت أمي على صدره بقوة وقالت" سبع سنين يا جمال؟!" طأطأ رأسه بخجل، سألنا عن كل شيء، أجبناه عن كل شيء.اعتذر عن الغياب، منحنا الكثير من الحجج ،ومنحناه الكثير من البسمات..ظلَّت وجوهنا معلقة به حتى غادر في المساء.. منذ يومها لم يطرق الباب غير زائرنا الكئيب ..

لم يرحب بهما أبي و كان يتعلل للخروج ، كانت زيارات متباعدة باردة على أى حال، للمرض إحساس ثقيل، لم تفلح أحاديثهما المتقطعة فى إذابة لزوجته ولا إزالة الوجع المتنامي بين جدران الروح، نظراتهما شبه المكترثة لا تفصح عن اهتمام حقيقي حتى بعبوس مصطنع وقطبة جبين، رفضت أمي العلاج رفضها للطعام، توقفت شخوصها المستدعاة عن المجيء وزادت عزلتها، فاستكانت وصمتت. أحيانا تتمردُ على فراشها فتسعى للنزول مجرجرة جسدها اليابس فتعجز، وتظل تحاولُ وحدها حتى تكاد تقعُ؛ فنهرع لها وهو جالس يشرب الشايَ، يفقد شعوره بها تدريجيا، أظنه بسره يتمنى لو تموت. تقرأها بعينيه الهاربتين للنافذة المغلقة كما باستنفار أذنيه حين يرهف السمع للباب الموصد حين يأتيه صدى انفراجه .تظل قابعة بالسرير محدقة بالسقف، وعيناها معلقتان بالشرفة تترقب سطوع الفجر، بينما يتحرك خياله باتجاه النافذة.

*****

تساءلت دوما ما حاجة الشتاء للحنٍ موجع ليتابع عزفه الرتيبِ؟ هل لأن القلوب المصابة بالارتعاش لا ترتجلُ إلا البكاء؟ لماذا تغمره تلك الرائحة الشجية لتغلف كل لحظة؟ رائحةٌ مفعمة بالفقد مشبعة بالأنين، كنت أنتظره برغم كل ذلك كنهر جار يشتاق للمصب، ويدرك أن النهاية باتت قريبة ومرهونة بالانحدار .

افتقدت عليّ، وافتقدت المجلات التى يطلعني عليها، كل الصور الملونة التى تحتويها، البيوت، الأشجار، الثلوج، الورود، تعابير الوجوه، تكاوين الأجساد، الظلال وتعاريجها، انعكاس الضوء على الكتل، وكل ما فى الصور من تفاصيل .كنت أنتظر كومة المجلات بزاوية مكتبه لأتأملها بشوق كناري لنافذة مخملية تطلقه للفضاء، فأتسلل كقطة باردة تبحث عن دفء الملمس الصوفي للكرسي الهزاز، ما زال عليّ يصفر no woman no cry ويتابع بث الهواء بالهارمونيكا، ومازلت أسدل الستارة فلا تبصره عيناي، لكنها تسجن كل الصور.

غير أبي مكان نومه للصالة، ما زالت أمي ترهف السمع كلما استشعرت خياله يتحرك، تساقط المطر بصورة أقل حدة عن الليالي السابقة، بدا الشارع ساكنا بتلك الليلة، همست تريد لتستحم، تشبثت بذراعي حين أرقت الماء على جسدها، كانت ترتجف، اصطكت أسنانها، ازرقت شفتاها وتعلقت بي كطفلة تخيفها برودة الماء كما يفزعها الانزلاق، تركت أظافرها علامات مدممة حمراء بنسيج ذراعي، ألبستها قميصًا أبيض موشى بزهور بنفسجية وصفراء، مشطت شعرها بأصابعي وليس بمشطها العاجي خوفًا على جلد رأسها الرقيق، ضممته بجديلة هزيلة تسلل إليها الشيب فتدثرت بالرماد، صارت للنهاية رائحة قريبة لا تبرح أنفي كرائحة بَولِها الذى انتشرت بقعُهُ بحشوة الفراش .صباحا دخلت عليها، كانت محدقة بالسقف ولم تنتبه لي .. درت بالغرفة، تأملت وجهها الشاحب وجسدها الممدد على السرير النحاسي، بدت شاحبة كالناموسية التي تعتليه، اقتربت منها ودفنت راحتي في كفها،

كانت باردة، أحنيت ظهري نحوها لأقبلها، لم تتحرك.. هززتها، كانت ساكنة تماما. خرجت من الغرفة مذهولة أصرخ " أمك ماتت يا مجدي ".

لم نبكِ أبدا كما بكينا يومها، وقفت في الشرفة أودعها.. لا زال المطر الخفيف ينهمر..اعتقدت أن الحياة ستتوقف عند هذه اللحظة، ولكن كل شيء استمر، عندما اختفى جسدها عن ناظري وددت لو هبطت إلى الشارع ،وصرخت : لماذا تشرق الشمس وأمي قد ماتت؟ لماذا يضحك الناس وأمي قد ماتت؟ لماذا يلعب الصغار وأمي قد ماتت؟ لماذا تذهب النسوة للسوق وأمي قد ماتت ؟ لماذا لا يتوقف كل شيء؟ ذهبت أمي وبأنفاسها رائحة بعيدة لفص برتقال لم تكمله بليلة سابقة، ومن دون أن أدري وضعت خاتم زواجها في خنصري، اعتذرت عن امتحان الثانوية العامة، اجتاز مجدي امتحان البكالوريوس وتخرج من كلية الحقوق بتقدير مقبول، انقطعت مؤقتا أخبار سيدة الشيكولاته، وتصدرت سيدة العلكة كل براح المشهد، كما كرسي أمي المتحرك ذى العجلات .

لم يكن عسيرًا أن يغلب أبي وحشه الكامن فينقذنا جميعًا، فقط لو استحضر صورة لأمي قبل أن يستوعبها فراغ الكرسي لتمنعه عن ارتياد كهف ذكورته، وبرغم أنني لم أعرف شيئا عن طبيعة علاقته بأنثى العلكة، لكن كل ما أدركه أنه لم يعد هناك داع ليستتر، فقد رحلت التي اضطر أن يواجهها دوما فى المساء، تخيلته يذهب ، يطرق

الباب، فتفتحه ، تلبس فستان ستان أحمر خفيف وفي عينيها بقايا نوم، تقول له ادخل فيسألها: هو في الداخل ؟ فتهز رأسها نافية، يدخل ويسترهما الظلام ، وبعد كل عودة له كنت أتقيأ كمن ترغب ف التخلص من امتلاء مخيف، بعدها تنتابني راحة مؤقتةٌ، أستحضرها لتعينني على الحياة، كنت أندفع لـ عليّ وبذهني صورة لأبي، وحين نلتقي بمساحتنا الفارغة نتواجه كضدين يتبادلان اللوم والقبلات، بعدها أسأله عن ميثاقنا فيحضر الورقة الزرقاء :فأتأملها وأشمها كمن تطارد شعورا معينا بين السطور .كان لا ينتابني أي شعور زائر إلا بصورة وجع دائم وندم، لا يشغلان أكثر من مساحة صغيرة تفصل بيننا، وحين أواجه أبي أفعل مثل أمي، فأضع طعامه بصمت على الطاولة ولا نتشارك ازدراد اللقيمات، وأظل أحدق به بينما تهرب عيناه

*****

اخترت مرارًا أن أجتاز المسافة الدقيقة بين عقلي المرهق بهم وقلبي النابض بالحياة، فانتهكت حصارهم ولذت بنفسى والهروب، لكنهم دومًا وأبدًا أشباح الأمس التى تحاصرني، يشبه تسللهم صفيرا حادا لإنذار معلوم النغمة يخبرك باقتراب شيء ما، شيء لا يمكن إيقاف تتابعه، شيء ما يحفزك مطلقا أدرينالينك بنهايات الأعصاب، يتوقف الخدر و تتحفز تلقائيا لحدث ما يستنفذك، تستهلك كمونك وتستعيد كل الطاقة التى تسكنك،

تعجبت من قدرتي على المقاومة، والانفلات من شرنقة حيكت حولي بمهارة حائك مخضرم ،ولكن بنسيج فى حقيقته أوهن من خيط العنكبوت، لم أكن إلا لأصارع المصير الذى ركضت إليه أمي سواءً بكرسى متحرك أو راحلة منهزمة تجر أذيال الخيبة بحرية مدفوعة قهرًا، لا أنكر أن رحلة البحث "عنه "لم يحالفنى بها التوفيق، كنت كالفراشة المنجذبة للنور فى كيمياء غريبة غير مبررة، وبرغم ذلك ودعت عباءتي السوداء وشال أمى البني برحيلها، ودعت إحساسي بالرهبة تجاه الشبحين اللذين جثما على جسدي سنينا كمرض عُضال، كرهت ما يخفيانه ، وما حاولت جاهدة أن أنفيه أو أدفعه عني كجرم غير مشهود .ما الداعي لأن تكون أنوثتي مطمعًا لأي رجل؟ كنت جميلة، لا أنكرها، ومن المؤكد أنني اعتدت جمالي فصار لوحة زيتية معلقة بجدارٍ، فقدت زهوتها باحتلالها نفس البقعة يوميا، حتى إن قدرتي على الاحتفاظ بتفاصيلها باتت مرهونة بمزاجي الشخصي ،ورغبتي فى احتواء أدق أدق تفاصيلها وخفاياها، وربما يدفعني أحيانا الملل والفتور أن أستبدلها بلوحة رخيصة مقلدة كنوع من التغيير .

*****

يبدأ عادة يوم كهذا من حيث انتهت ليلة مماثلة، خيط طويل متصل من اللزوجة، أقضي الليل مضجعة على ظهري محاولة من دون جدوى تصيد بقعة معتمة تهدد نصوع السقف، أرتب لحملة دهان موسعة، أرسم خططا بديلة لعلاج شحوب ليالي، أرقب ساعة قديمة ببندول

ثابت يردني لاحتضاري الوشيك، تدهشني نقلتي الدراماتيكية من شحوب السقف المزعوم لميناء الساعة المجهدة، أنتهي متخمة باللاجدوى تماما كذبابة علبة الطعام الصيني، ألعن الأيام لأنها ثقيلة لا يمكن تمريرها كفنجان شاي بارد بليلة أكثر برودة، تماما كمشاعره، أفكر، أين عساه يكون؟!..

على غير المتوقع قررت قطع الإجازة لأنعم ببعض الحركة.. هاتفت غيداء فربما تقلني، سيارتي الفيات بالصيانة، شهورًا أعاني أعطالها المتكررة ونافذة فمها المنفرجة على المصراعين تلتهم بشراهة معظم راتبي .أكره سائقي التاكسي وما يفعلونه بي،أعرف طريقا واحدا للمجلة وعادة لا يسلكونه، لا يراعي السائق ضميره أبدا، يظل يلف ويدور في انحناءات ثعبانية مربكة ،ويتعلل في النهاية بعطل العداد، ويطالبك برقم فلكي،آخر مرة فعلتها لمت نفسي لشهر كامل ليس بسبب رذاذ لعابه الذي يخرج مصاحبا لكلامه ولا لأسنانه التي تلونت بالسجائر، ربما لبعض الجحوظ بعينيه، ردني لرجل العصابة بالفيلم العربي القديم .كان متبرما، ساعتان من الشكوى، تكلم عن زوجته واضطراره للذهاب بها مرتين أسبوعيا لعمل غسيل كلوي بمستشفى حكومي" تعبان"، وعن جلسات التخاطب المكلفة لابنه المعاق، وعن معاناتهم اليومية لدخول الحمام المشترك بمنطقة عشوائية تسكنها الكلاب والقطط وباعة الكيف، قلت له أن الأحوال عموما مزرية، وأن الشهور الماضية كانت وبالا على كل الناس، ومن صميم عملي أعتقد أننا سنعيش أسوأ فتراتنا، فرد بأن فساد الذمم سبب أساسي لما نحن

obeikandl.com

فيه، وأنه يضطر أحيانا لتدخين الحشيش لينسى مأساته، وأن ساعات اليقظة الكاملة استحالت كابوسا مزعجا، إذ لا تتوقف طلباتهم وإيراد التاكسي لا يكفي، وأمه بحاجة لعمرة ،وهو نفسه يدرك أن موتور السيارة بحاجة للعمرة ذاتها ، حتى دماغه التي لم تعد تكيفها مباريات الكأس والدوري.

. البلد ماشية لورا يا أستاذة، حتة لعيب ابن امبارح بياخد على قلبه قاااااد كده، وأنا متمرمط كل يوم لآخر الليل ومش ملاحق، بالك .. العربية دي بق مفتوح ولو عليا كنت بعتها، بس أجيب مصاريفهم منين.

حدثني عن أخيه سائق هيئة النقل العام الذي لم يقبض راتبه لشهرين، وكيف انتهى به الحال بالسجن بسبب إيصال أمانة.

.على فكرة مش بعيد أبقى مكانه، البلد دي عاوزانا متبهدلين كده.

قلت له ليس هكذا أبدا تدار الأمور، فبلد بلا قانون منتهى الفوضى ؛ ضحك ساخرًا من ملعقة ذهبية وضعت بفمي..

. مفيش غير الإضراب، نقضيها إضرابات وخليهم يشوفوا البلد هاتمشي إزاي.

. عمال المحلة بيضربوا من وقت للتاني، وسيلة مؤقتة مش حل فعَّال.

. أهي حاجة تمشينا على ما تفرج .

بعد وقت كان عليَّ أن أغادر بعد أن قلت له أن المدن الجديدة حل أوقع، وأن إعمارها من وجهة نظري أسهل كثيرا من إدارة أزمة العاصمة عبر إضراب شامل يعطل الحياة .

. ربك يسهل الحال يا أستاذة .

انتظرتها بمقهى "مومنتو" بالمهندسين لنصف ساعة، جاءت مبتسمة تعتذر عن عدم عودتها والمبيت معي، فتحت باب السيارة بدون كلمة فتشت فى خزانة الأقراص المدمجة عن شيء أفرغ فيه مشاعري .

. قلتي هاتوديها وترجعي .

. ماما تعبت بعد جلسة الكيماوي وعلى ما الوضع استقر البيه اتصل وكمل عليا، بيقول إنه في سوريا عند أهل مراته، يعني عاوزني أعمل إيه لما أعرف حاجة زي دي؟ أباركله ولا أدعيله يقضي إجازة سعيدة .

قالت بتردد أنها تشك أنه يخفي أمرًا ما، ربما أنه رزق بطفل، الغريب أنها لم تكن مهتمة؛ وكأن كل الأمور أصبحت تتساوى عندها.. أردفت بخفوت :

. العذاب وهم من اختراعنا، ربنا يهنيهم ببعض .

obeikandi.com

قبضت على مقود السيارة، أطالت النظر في وجهي، تابعتني أو ربما أنها انتظرت لأتحدث عن أي شيء- أعلم ذلك جيدا- لم أرغب بأي حديث.. لم أرغب حتى بالتنفس..أصابتها حالة من الضجر فأسلمت السيارة لقيادة مجنونة ..أدهشتني المفارقة.. أقلتنى غيدا من مومنتو بالحي الهادئ، والآن كلما اتجهنا للداخل يزداد الزحام ويرهقنا الضجيج، اصطدمت عيناي بلافتة تشيليز الضخمة، برز قرنا الفلفل الكبيران بلونيهما الأحمر والأخضر، تذكرت الصورة القديمة التى قصصتها لثمرة فلفل حمراء حارة شغلت كفيّ مزارع أسود بإحدى القرى جنوب بوسطن، كانت الصورة بمجلة أميريكان مجازين، احتوت المجلة صورًا أكثرَ لثمارٍ أخرى بأحجامٍ مهولةٍ، كان عليٌّ يراقب انفراجة شفتيّ فيزداد التصاقا بي، يتلمسهما بطرف إصبعه كمثال تعنيه دقة التفاصيل.

لم يكن العذاب مجرد وهم من اختراعنا كما قالت، وإنما لكل منا منحوتة من العذاب سجلت باسمه فلا يتقاسمها وأحد جيرانه مثلا، من الغريب وقتها أن أنتظر الوقت ليمر لأهرع لـ "علي" وكأننى أفض عنوة أنشوطة الحجج ، وبرغم أن وجه أمي كان بيننا، لم يمنعني من وطء جنتي، اختنقت من اعتياده الغياب، توقف الصفير عن المجيء فارتعدت، لعله نسى، أضع أذني يوميا وراء الباب لأسمع صوت هبوطه، غير الحذاء لآخر بنعل مطاطي وغاب الصوت، حتى الشارع لم يعد يفصح عنه، أي قلب هذا يهبط إلى الشارع ليشارك حذاؤه لطمات الأسفلت وليشرب وحل الطريق أمامه، بل أي بؤس! عند الظهيرة نقرت أصابعي الباب، كان ينتظر كأنه هنا منذ ألف عام، اختلجت أنفاسي

بينما يفتح الشراعة، نظر في عيني مباشرة، وحين فتح الباب بكيت بين ذراعيه، امتلأت برائحته، لم أصرخ به ولم أرفض يده الممدودة، وصلنا الى ذات النقطة الحرجة، شيئ ما بداخلي يدفعني إليها، بينما يمنعني انكسار روحي ، قال: ابتسمي يا جورية .

لم يكن الحصاد هو الفعل الذى انتظرته بنهاية مشهد لقائنا الأخير، عشرات الصور تلاحقت عدا موسم الحصاد، تصورته يسألنى فى البداية لم كل هذا الغياب، وقبل أن تأتي إجابة تسكتنى سبابته، ليس من المفترض أن يمنعنا أي شيء، ليس من المقدر أن نتصافح لنفترق، موجة عالية من التردد تجتاحني فإذا ما ركضت نحوه قابلتنى ابتسامة عاقلة، وقطبة جبين ويدان مشبوكتان، إذا ما بكيت وضقت ذرعًا بالجفاف العاطفي احتواني بجنون عاشق فتضيق المسافة، أهز رأسي موجهة حديث شك لنفسي، فيطمئنني من دون صوت، رحلةٌ قصيرةٌ أبحر فيها بين ذراعيه، سخونة احتوائه تربكني، عيناى تحدقان به، يحدثني عن الغياب، عن أفق من بلور يهرب إليه كلما هزمه الحنين، لم ينس احتواء الصور بأغلفة المجلة الأمريكية، لم يفض عنها الغلاف السوليفان، قال تكفيه نظرة عيناي الشغوفة حين تخترقان غلالتها الرقيقة، تمزعها أناملي وبجنون طفولي أقلب الصفحات، أسكن الصور، أتقمص الشخوص، أرتشف الندى من بين الزهر المتناثر فوق الموائد وبين فراغات الدانتيل .

obeikandl.com

كانت علاقة معقدة، تشبه لسعة حادة لتيار كهربي، ليس مميتا بالضرورة لكنه يتركك بحالة تدرك بعدها أنك اندفعت بحمق لبحر بلا مرسى . كنت أمقت تعابيره حين ننتهي، عيناه تحملقان في اللاشيء، يتفرق شعري على ساعده يزيحه جانبا ويشعل سيجارة يغشاني توتر دخانها فتدمع عيناي .

. مش عاوز أشوف دموعك .

. مش دموع يا علي .

امتدت أصابعه لتتوسد كتفي، جذبني إليه، راهن صدره على استحالة المراوغة .

. كلمتها ؟

رمقني مدهوشا كمن فاجأه السؤال، رفع عينيه لصورة أمه المثبتة على الجدار .

. شفتي قد إيه جميلة؟

هكذا تصورها خياله " ناعسة الجميلة"، حكى عن لياليها الباردة، وإصرارها أن تناديه بـ"جلال "ليظل اسم أبيه لا ينقطع عن الدنيا، عن سنين دراسته الأولى وكوب حليب الثامنة صباحًا وكرات الزلابية

obeikandl.com

المنتفخة بالسكر والبسبوسة ينز منها العسل، لا يخجله أنها لا زالت تطعمه بفمه، ترتب ملابسه بالخزانة بعد كيها حسب الألوان، تمشط شعره وتداعبه حتى ينام، تشذب ذقنه وتتفقد موضع الموسى بحرص، تبثه خوفها من أن تسلبه امرأة أخرى، تخشى عليه منهن، فلن يستوعبن كونه رجلها وربما تسعى إحداهن للاستئثار به فتنسيه أمه التى زهدت كل رجال الدنيا من أجله، وحين يكلمها عني تدمع عيناها، لم يكن فرحًا، كانت دموعًا قلقة .

. قلتلها إيه عني ؟

أعدت السؤال بضيق، بات وجهه مضطربا، عصبيا في جهامة، وددت لو أصرخ به : "وهم يا علي " وددت لو أنفجر فيه.. أمك لم تكن "ناعسة"، أمك سلبتنا أمنا، أمي التي يمزقني حنيني إليها كلما تفقدت أشياءها، تيار من العجز يسري بكل جسدي، يدق قلبي فزعا حين ألمس ملابسها، أو علب الدواء حبيسة الأدراج، كانت مستسلمة تماما، تدرك أنها النهاية، بتلك الزاوية المجهدة أمام النافذة حيث لا لبلابات، تحت الحشوة سر دفنته ،واكتشفناه صدفة ملتصق بها كجنين؛ قطعتي الفنية بلونها الأصفر، فراشتان بكل ركن، إحداهما تحجب الأخرى فلا يظهر منها غير جناحان يرفرفان، يحلقان في البعيد، كانت أنهته كله عدا غرزة واحدة تركت بها سن الإبرة .

.هاكلمها متخافيش. بوسة على جبينك حبيبتي،

ضمني إليه، وددت لو أتحرر منها ومنه، قبلني طويلا فازداد حنيني لحضن أمي الذى لم تعد تصلني منه رائحة.

*****

وخزني الجرح القديم، استدعى صورة باردة الإحساس لهما ،وكانتا اثنتين تتهامسان بباب حجرة فستقية اللون يرتكز بركنها الأيمن قائم معدني للمحاليل ،وتتوسد فراشها الضيق ملاءة بيضاء مجعدة، رفعنني بعد أن أزال كبيرهن آخر ما تبقى من أنسجة ملتصقة بالفراغ الكمثري، انغرس بي سن الكانيولا المدبب، و انتشرت الرائحة السمجة لسائل التعقيم، ألمٌ لا حد له اخترق أجزائي كنظرتين منهما تسللتا من خلف نظارة السيدة الثرثارة والأخرى البدينة، كرهت الصوت المنبعث من إحداهما، سمعتها تهمس :

. مش متجوزة، ربنا يستر على ولايانا .

. اتقِ الله.. إزاي عرفتي ؟!..

كانت بتخرف بحاجات غريبة ..

أشارت لها بمكر ..

. هششش..أخوها هنا ..

- ادعيلها ربنا ينجيها، نزفت كتير ..

شعرت بجسد ساخن إلى جواري، كان مجدي، ما بين يقظة وغفوة يمسد جبهتي، يرتعش كلما تحسست النار تخرج من رأسي، يتمتم بآيات الله وينظر لي بشفقة بينما يعتصره الألم .مر يومان وليس من أثر لأبي، كان إغمائي بالصالة دليله لما حدث، الغثيان الذى يصيبني عند تنشق الروائح، شحوبي، اصفرار وجهي، قيئي المستمر، تلعثمي، فراري للغرفة وتظاهري بالنوم كلما جاءني وقع قدميه على السلم ..ازددت يقينا بأن ما حدث كان متعمَدًا، هذا الانقسام الخلوي بداخلي، كائن ثالث ممتزج بخلاصة احتراقنا، يشهد انصهارنا، ينشطر جوعا للحياة، ينفذ بين المسام، يحتل الفراغ الكمثرى، يوثق كسرنا القيود ويحتمي بالخطيئة، كيف أصدق أن بداخلي ينبت كائن منه ؟

انتظرت تلك المواجهة، قوية تصدع الجبل على إثرها ، هوى كفه الثقيل ليلطم جسدي، كادت قدماه تنفذان من عظامي، أوشكت العروق أن تلفظ دمي. انسحبت رويدًا روحي من بين ضلوعي، كل ما سمعته مني مجرد همهمات، ظننتني سأموت، لم يرعبني الموت حين أرسلتني إليها بفجوتها الضيقة ،وطلبتُ المدد فأتاني، نظراته الحادة التهمتني بوحشية، باردة كنت ومتيبسة لكن لم يحجب الفزع وجهها عني، أفقت على همسها . "أنا هنا.. ماتخافيش " . خدر لفني، مساحة ممتدة لم يشغل حيزا منها، مسافة ضيقة فاصلة بين الردهة وحجرة مجدي، النور مضاء وفرجة الباب تسمح بالرؤية، رأسه بين كفيه، باكيا كان، تقابلت عينانا فى نقطة ،وارتدتا للخلف دون أن تلتقطا أي

شيء، سكون يشبه سطح بحيرة خاملة، ليست من غابة زنابق سوداء ولا مدد من ليل رحيم، لكنها ظلمة تضرب صحوي، ماذا بعد الموت؟ لا شيء، أحسبه العدم،

استجديت عينيه الغائمتين فلم تحضرا، لم يرى أحدنا الآخر بوضوح، لمحت بريق نظراته من خلال الظلمة، لم يتحرك من مكانه إنما انتظر احتمال نجاتي بوجوم مطبق، وكنا بصمت نئن .

. مين الحيوان اللي عملها، انطقي؟

تعجبت لنبرته، تنبئ عن جرح نافذ ووجع لا يحتمل، انتفض جسده، تفصد عرقا، وبرغم جبروته، وبصقه المتكرر بوجهي يحمل رائحته الصمغية، كان ضعيفًا أو ربما أنني بالفعل انتصرت عليه.،وحدي أدرك أنه يعلم أنني هزمته بداخلي بينما استسلمت أمي واضطرت للذهاب، لم يزل يصرخ، هالني إحمراره ونفور عروقه، بدا وجهه لوهلة كما لو كان مقسومًا طوليًا، نصف بعين جاحظة وجزء من فم يزعق ببحة صوت والنصف الآخر مرتخيا والعين تئن برعشة جفن، يجاهد الحروف بشفة تعجز عن الانفراج ليخرج الصوت مبهما .دفعه سكوتي للجنون، لم يتوقف عن رجمه الجرم الرابض برحمي حتى بعد اعترافي بكينونة أبيه، تدفق مني سائل أحمر قان على أرضية الغرفة قبل أن أنطق الكلمة التي انتظرها، بعدها سكن صوته وغاب كل شيء.

*****

كم مر من الوقت وأنا نائمة على هذا السرير وبتلك الغرفة ؟ لا زال الألم يعتصر جسدي، أستطيع فقط أن أدور برأسي لأتطلع لمن هم بجواري.. لا أريد أن أشعر بهم أو حتى بي، تلك السيدة بالركن لا تتوقف عن الحركة، قليلا ما تسكن، والأخرون بصحبتها لا يتوقفون عن الكلام، ليتهم يختفون، سقطت دموعي، تمنيت لو أموت فأنعتق من هذا العالم، درت بعيني من جديد لأتطلع لهم، هذا الوجه المنتفخ، إنه الطبيب، هذا الجسد الممتلئ، إنها رفيقة الغرفة، هذا الوجه المحدق بالسقف إنها امرأة ما.. بالغرفة دوما وجوه محايدة بلا تعابير، ووجوه أخرى مهتمة بلزوجة، تهامست البدينة والمرأة ذات المرآة..آلمني التقلص أسفل معدتي، دخلت ابتهال بردائها الأبيض لتفحص المحلول، شفتاها الرقيقتان منفرجتان قليلا وتشبهان وردة حمراء ،أهدتني ربتة سخية وزجاجة محلول جديدة، بمجرد انسيابه بالخلايا ضاقت مساحة الرؤية، وانتهت مشتتة بصورة طالما طاردتها بين صحوي والمنام، كانت لك بينما تضبط آلتك وتختبر اللحن، تدفع فيها من أنفاسك ما يقيم أودها، تعزف بلا اكتراث فيخرج اللحن باهتًا مائعًا، تركت آلتك وعجبا ما زال اللحن يتردد بخفوت.

كانت نغمة رتيبة على وتر أمسيات أغسطس، تشبه ندبة بنسيج قديم لست بقادرة على تتبع أول خيوطه، فقط استدرجت آخرها منتهية إلى باب حجرتك الخشبي بألواحه الزجاجية المغبشة، سمحت لعيني بالولوج.. كنت بالزاوية تقلب صفحات كتاب لجبران، استوقفتك جملة تقول " الرغبة نصف الحياة، إنما عدم الاكتراث فنصف الموت . "

التمعت عيناك، تنفست السكون، أرسلت دخان الروثمانس إلى حيث كنا هناك ننثر العطر على المتكأ حالمين بالصعود .حين لذت بالنوم راودني الكابوس ذاته، جنية تناديك، كنا بلجة بحر شفقي، كدنا نغرق بموجة افتعلتها ضحكتها، تركنا القارب المثقوب لدوامة من المياه الباردة.. تشابكنا لتأخذنا الدائرة بالمنتصف، تعلقتَ بشعري، قايضَتني عليه لتنقذنا، فتركته لها، ساومتك على قبلة من شفتيك، رمتني بعملة صدئة عليها صورتك، كنت مبتسما، فاجأني نصوع أسنانك، الياسمينات تملأ ثغرك كرائحة أنفاسك، مشيتما على سطح الماء، سألتك عن سرك ولم يكن غير قُبلة، ريقها يسرى فيك، بكيت فضحكتما، ذهبتما، فزعة كنت أناديك ..علي .. علي .. علـ....

أفقت مما حسبته كابوسًا مفزعا، تخيلت أنهم دسوه لى بمحتوى المحلول قطرة قطرة، أسعدني أن أراك ببدايته خلف الباب الزجاجي تطالع "الأجنحة المتكسرة لجبران"، وأوجعني أننى فقدتك بالنهاية ببحر همجي لجنية زرقاء، ويبدو أننا لا محالة غارقان ومفارقان، خوف يتمطى بي حين أذكره، وحين أستدعي صورتي الأخيرة بالصالة أنزف، أتمنى لو سحقني الوجع .

تعجبت لحالهم، أنصاف ملائكة وأنصاف شياطين، مختلون يمارسون مجونهم فى العلن ومع ذلك يسألوننا مساحة من الكمال تحتلها صورهم بقداسة . كيف ومن نحسبهم آلهة لم يكونوا غير شواخص حجرية صنعناها في أسوأ كوابيسنا؟! وربما صنعوا أنفسهم فى غفلة

obeikandl.com

منا، هم لا يدركون أنهم حين يتلبسون مسوخهم الجديدة؛ فإنها تشف عما تحتها فلا هم آلهة مقدسة، ولا هم شواخص حجرية، هم بالنهاية مجرد أنصاف من عدمٍ تتوارى خجلا من أعمدة الضوء، يكفيك أن تمد يدك بمعول أفكارك لترشق جمجمة الوحش؛ فيتهشم كليًا، يكفيه صرخة منك ليتلاشى، لكن بالنهاية حين يسقط وحشك الذي هو صنيعتك سيفاجئك أنك سبقته إلى السقوط.

عدت فارغة من جنين لأجده قد فارق متعجلا، رحل أبي بنوبة قلبية بعد تلقيه الاعتراف، كانت آخر كلماتي له قبل أن يغلفني الصقيع وأذهب خارجي.

- ابنها ...

قال مجدي أنه مات فاندهشت، إحساس أذني بالكلمة غريب،اعتدت أن أراه بكل مشهد، يأكل ويشرب، يغضب ويثور، تغلف برودته أسطح الأشياء، لكن كيف يكون ميتا؟ كيف استطاع أن يفعلها؟! بدا الأمر وكأنه ترك مساحته مضطرًا لتشغلها أنفاسنا، والبيت أخيرا لنا.. البيت بمقاعده ومنضدته المستديرة ومصباحه العتيق، بمطبخه البارد ونوافذه المغلقة، برائحة اختناقه وصورة كبيرة لهما تملأ فراغ الجدار. لم يكن الأمر سيئا كما تخيلت، لم أصلِ صلاة استسقاء لينهمر الصبر ويذهب صقيع الحزن، لم يكن أبدا عام حزن، إنما موسم وجع كبير، لم أدعِ أنني بحاجة لبعض الوقت لتجاوز الجرح المستبد،

كن يفعلن ذلك في التلفاز. يتحطمن وجعا وتُهيج آلامهن التنهدات، تخنقهن الدموع؛ فيهرعن للحجرات المظلمة ليستنجدن بالوسادات، يحتضننها ويبكين، ينتظرن بزوغ النهار ليدركن أنهن مازلن يتنفسن، تحيط أجفانهن المنتفخة بعض الظلال السوداء.

لم أحدق طويلا بصورته على البوفيه لأغرق بعدها بنوبة نشيج، وحتى عندما فعلتها عيناي في غفلة مني ارتدتا للجدار واخترقتا شرخا به، وحتى أنني لم أعاتب نفسي كوني جاحدة أو شيئا من هذا القبيل، فالأمر يلزمه فقط قدر من التأقلم، بحيث أتقبل فكرة أننا أصبحنا اثنين، ولا زالت المنضدة كما هي بأربعةِ مقاعدٍ .متصالحةٌ مع ذاتي، وأدرك حقيقة أننا نموت بالحياة حين نتعاطى الخذلان . لأسابيع أفتقد مجدي، تتقابل أعيننا بلا كلمات، ولدت مسافة بيننا، وما عدنا نقتسم أي شيء باستثناء كتلتنا الرمادية الباردة، لم يعد يسمع فى السكون سوى بعض خطوات باتجاه المطبخ لإعداد الطعام، أو حمل أطباقنا الفارغة، أو هسهسة أسورتين لأمي خنقت بهما معصمي، هدوء سمج يقتاتنا، لا شيء يغري النسيم باستثناء ألحان عفوية للهارمونيكا، كنت أخذتها من عليّ بعد إلحاح وأخفيتها بين ملابسي بخزانتي ،وكأني أواري سوأة عمري المجذوذ.

*****

obeikandl.com

فاجأني مجدي بغرفتي ذات مساء، وكانت عيناه تهربان كلما تواجهنا وما بين التلعثم والارتباك سألني إن كنت وعليّ نتواعد، أو إن كان يحاول الاتصال بي، أقسمت مستحيل، أردف بخفوت أنه صادفها على السلم وكانت تلبس الأسود، حاول تجنبها إلا أنه فوجئ بكفها تقبض على ذراعه، ظلت تلح عليه ليسمعها، بعدها أخبرته بأنها توجعت لموت حكيم، ونهنهت باكية .سألته : ومن يكون حكيم ؟!.

أدركت يقينا أنها تقصد أبانا، لكن الدهشة أبت أن تغادرني، وربما الأكثر من مجرد كونها الدهشة رغبتي في خلق جسر من التواصل فيعود الكلام بيننا .رد بضيق : أبونا يا جورية، أبونا .

لم أرَ أبي يوما يثني على أمي، أو يغازلها، أو يهش لها حتى في مرضها، ولم تكن تتودد له أو تدلله ، كان عبد الحكيم وفقط، لم تضطر أمنا أبدًا أن تناديه به أو بغيره، ولم أسمعه يناديها أيضًا بغير تغريد، كان هناك دوما هذا الأرق الذي يجد في التلفاز عزاءه مهما تبع ذلك من ملل، كنت أتساءل في أحايين كثيرة كيف جئت إلى الدنيا ،أظنهما كانا يلتقيان في الفراش بكامل أناقة الوجع .

أردف بشئ من حدة .

. ما تستغربيش، أنا نفسي ما بقيتش أستغرب، خاصة بعد اللي عملتيه فينا وفي نفسك، ومع ذلك منتظر سؤالك .

سألته منكمشة:

. أي سؤال ؟!

. سؤالك عنه. عنها.. عنهم يا جورية، إزاي مش ملاحظة غيابهم، مفيش حركة في البيت، الشبابيك مقفوله طول الوقت، ما سألتيش نفسك عن السبب ؟!

سألته وقد تداعت كل الذكريات المهينة..

. طردتهم ؟!

كان وجهه مختبئ خلف دخان سيجارته.

. محتاجين نرتاح، كفاية قوي لحد كده.

نقر مرات على خشب المكتب قبل أن ينظر إلي من جديد ليفاجئني.

. ليه عملتي ف نفسك كده؟ فكرتي ف إيه وقتها؟ حب ولا انتقام؟ ولو انتقام كنتي بتنتقمي من مين؟! منه؟! لها؟! ماعتقدش!.

لم تحضرني إجابة، كنت بحاجة لسماع صوته، وكان لابد أن يكسر حاجز الصمت بيننا، ذبحتني الحقيقة التي واجهني بها، وظل السؤال يعصف بي، ممن كنت أنتقم ؟! من نفسي أعتقد،

opeikandil.com

عذبني رحيل عليّ بغير وداع، افترقنا، كان فراقا مثاليًا، كل ما فيه لا يطاق، حب، غضب، جنون وندم، كنت أعلم أن قلبي الذي يتمزق ألما لن تداويه غير مأساة؛ مأساة أعظم من تلك ربما، انتهت فصول القصة، لم تترك وراءها أكثر من صفحة معطرة بدفتر بنفسجي، لكن حوافها الحادة أبت أن ترحل قبل أن تترك بي جرحًا غائرًا، ونزفًا متصلا طالما لم يدرك مصدره . ما أحوجني اليوم لحضنك أمي، غبتِ ولن يأتيني صوتك كلما كسرت طبقا أو أوقعت كوبا .." خد الشر وراح ".

أردف مستسلما لنوبة حزن ..

. شوفي الصدفة الغريبة، لما صارحت أمك بموضوع أمل بدأت تموت، ولما أبوكي عرف بحكايتك مع الندل مات هو كمان، مش من القهر طبعا بس من إحساسه بذنب هو أول واحد سمح لنفسه به، الأغرب إننا متحملين ذنب موتهم مع إنهم ماكانوش عايشين من الأساس، افهمي ده كويس، وكملي حياتك،أرجوكي يا جورية، خلينا ننسى اللي حصل.. مفيش مبرر أبدا نكمل حياتنا مدفونين بالحياه.. خلينا نتكلم في بكره أحسن .

سألني عن خططي للمستقبل، انتزعت الكلمات الجافة من حلقي الجاف وقلت :

. هاكمل وأدخل صحافة وإعلام .

كانت لحظة مثالية للحمق، من لحظات الفرح الشحيح، رسمنا الأحلام، ولم نخضعها لمؤقتات زمنية، تركناها لتنساب، تفرس عميقا بوجهي.. بدد كلامه شعورًا بالخزي، وددت لو أعانقه، ما من بديل عن صدره في تلك اللحظة بالذات، خيم الصمت ولم يعد ممكنا أن يواسي أحدنا الآخر، هرعت لاحتضانه مغمضة العينين، تأملتني بين ذراعيه فارغة كشجرة أزهق حلمها الخريف، تائهة في عالم لا أدركني فيه؛ عالم هو الغربة ذاتها، ضمني إليه، نهنهت كالأطفال وقميصه مكرمش بقبضة يدي، أدركت أنني أملم بعضا من الهارب مني، تأملت حين أبعدني لبرهة ونظر بعيني، بكل ضبابية احتواها المشهد كنت أتأمله، كان وجهه هادئا كقديس يمنح البركة .

فتحنا النوافذ لتدخل أشعة الشمس، طردنا روائح الغرف القديمة، كل الذكريات المؤلمة، بقايا الكوابيس، تساءلنا عن الرائحة الملتصقة بالجدران والدثر، كيف احتملناها كل هذا الوقت؟ كيف استسلمنا لها؟ بحثنا في الخزانة عن شيء نطهوه معا، وعن شيء آخر نشربه معا، غيرنا نظام البيت، بدلنا مكان الآثاث، غسلنا الجدران وعندما فشلنا في طمس كل البقع، قررنا بيعه ببقعه ,وكل الندوب المختبئة بشقوقه . بعد عام جاء مشتري ليعاين البيت ومعه مقاول، راح يتفقد الحوائط ويتحسس الجدران، دب سيخا من الحديد في الأسقف، صعد السلالم وراح يدبدب بقدميه، صعد إلى السطح، مد بصره لبقايا ذيل الطائرة الورقية المجدول على الحافة، أفلته..كان آخر ما تبقى من طائرة عمر، كان الجو خماسينيا عاصفا، وقف يومها على السطح الواسع ليطيرها،

اشتدت الريح وراحت تتماوج بجنون، اشتبكت بهوائي الجيران على الحافة، تسلل ليخلصها فاختل توازنه، سقط ومات. بعدها طارت وحطت على سطحنا، حين لمحت ما تبقى من أثرها انتابني حزن شديد، بكيت كثيرا، كثيرا جدا.

كانت صورة أمي هي آخر ما عانقه مجدي قبل أن يحمل حقائبه للخارج مسافرا، وقف بمنتصف الصالة يودعني، قال إنه من اليسير وداع جدران شقة روكسي ،وكنا استأجرناها بعد بيع البيت عن جدران زنزانة قضينا فيه طفولتنا وصبانا وسنين مراهقتنا، وما أسماه كهولتنا المبكرة. ما عرفته من "مجدي" بعد أن فضضت أولى رسالاته من لندن، أن سيدة العلكة فاتحته برغبة "عليّ" في الزواج مني، وأنها كررت ذلك على أبينا أكثر من مرة بحياته ولكنه رفض، يبدو أنه أدرك صعوبة الوضع فحتى الآن كل ما نعرفه عن علاقته بها محض افتراضات، وكل مايخص كينونة تلك العلاقة ظل لغزًا محيرًا طمسته ظلمة القبر، فلو أنه تزوجها سرًا كان بالضرورة ليرفض "عليّ"، ولو أنه رافقها لأصبح الوضع مستحيلًا، أظنه لن يقبل أن يزوجني ابن المرأة التي يطارحها الغرام حتى وإن كان شغوفا بها، سيظل جزءٌ منه يزدريها كأنثى غواية كل ما تستطيع أن تفعله أن تنفخ بالرماد، أدركت يومها أنه تعمد إخفاء الأمر عني فلا أعود أجدد رغبة قد تقوض ما نحاول أن نبنيه.

*****

حاسبي .. حاسبي.. في اللحظة الأخيرة انتبَهت وتمكنَت من تفاديه..كدنا نصدمه لولا أن جذبَت الفرامل، أشار بحركة بذيئة وهرول مسرعا، لم يكن مقعدًا، كشف الجلباب عن ساقيه السليمتين، أظنني شممت رائحة بصقه بينما يحدق بالعكاز تحت العجلات، زفرت بغيظ بينما تعالت ضحكاتها، لا زال الطقس كما هو، الهواء ساكن غير ناقل لحرارة الأجساد، لافتة مركز الخصوبة تشير بأصابع حمراء للشارع الخلفي، صافرة شرطي المرور أرختنا على وتر الأسفلت المشدود ، بائع السميط يتحرك بسلاسة بين السيارات ، صبية الشارع ، عباءة القس، عمال التراحيل، واجهات المحال، تفاصيل أنثوية كثيرة، علب ماكياج، بارفانات، تنانير قصيرة، فساتين بأكتاف عارية، فراشة نثرت لونها وضاعت وسط الزحام، بنت غير طائشة مثل" هند رستم" عبرت أمامنا وثلاثيني يطارد ذيل حصانها الكاشف عن عنق نحيل، دخان النرجيلة بالمقهى الأمريكي يشاغب زجاجة المياه المثلجة، شاي على "ميه بيضا .."صوت أم كلثوم النافذ" وان مر يوم من غير رؤياك، ما يتحسبش من عمري".

تربكني القاهرة كلما لملمت صورها في سلة واحدة ؛ فتضطرني للاختباء خلف نافذة موصدة أو محتمية بجدار متهالك، قاهرتي تسكن بقعة من وطن يهزمني الحنين إليه، ليس كما يعرفونه، قاهرتي تقطن صوري، تزين أغلفة "فوج" المجلة الشهرية التي أراسلها بلندن كمصورة، لا يستوطنها زحام الباعة، لا تعترف بلافتات ضخمة تحجب النور، لا يخترقها الفريون ولا يحجبها دخان العادم، لا ترهقها أصوات

المكبرات، لا يلدغها الناموس، لاتستوطنها العقارب ولا تتلون كالحرباوات، ليست حمراء الرائحة كماجنة لعوب، ولا سكرية الإحساس بلا نكهة لتسقيك مرارة العلقم بعد شهدها، قاهرتي مجرد طفلة رائعة تسكن مشاعري.

كنا لا زلنا نتبادل الحديث، تكلمنا عن الرواية فسألتني بفضول إن كنت ضمنتها سطورها، ضحكت، قلت أنه شيء خاص ومختلف عما أكتبه بعامودي اليومي ، شيء يستهلكني بشدة، يستغرقني طويلا، وأسارع إليه كرحلة استشفاء يومية مسبوقة بطقس اعتراف، سخرت مني وقالت لعلها ستكون سيرة ذاتية. صدمتني الجملة فأي عنوان يمكن أن أعطيها ؟ لا أدري لماذا أطلت الباليرينا من جب أفكاري، ظننت العنوان سيكون باليرينا. ظللت حائرة ما بين أن أضيف "ال" قبل العنوان ليصبح الباليرينا، أو أن أتركها هكذا باليرينا وتصبح واحدة من ألف، أو واحدة كألف ، ربما كل ما سيبقى من عالمي السابق بعض أشياء تركوها معي، ليست كأمانات ترد ،وإنما كعلامات إرشادية تدل على أصحابها، باليرينا عبد الرحمن، جرامافون مجدي، هارمونيكا عليّ، و... بانتظار صاحب الرنين تذكرت أنه لم يهدني غير وجع كبير بحجم مجرة ، أليس من الغريب أنها أشياء تنتمي لعالمٍ واحدٍ؟! عالم تتداخل فيه الألحان لتشكل جوقة ما، ليتها لا تكون كتلك التي ترتكن بزاوية لباخرة تغرق، حيث يفر الكل لحتفه عدا قائد الأوركسترا، يتابع العزف بجمود بينما يكاد يفر قلبه مع الفارين.

توقفت السيارة لحظة كانت الشمس تعيد تكثيف برتقاليتها، احتضنتها بمكر زاوية عيناي، صمتت كل الألحان وعاد فضولها ونفير سيارتها، خرجت من السيارة لتعبث دوامات الهواء بشعري فتدغدغني حروفه، تسللت رائحة ألفتها نبهت القشرة العليا لمحارة روحي، رائحة تماثل تلك التي تسبق المطر، التقطت نفسا عميقا، تغلغلت الرائحة رويدا، زفرت عميقا.. ظنتني ملولة فبادرت :.

. وصلنا ..

دلفت بعد أن ودعتها، أسعدني استقبالهم الدافئ بعد عطلة أنهيتها عمدًا، فاجأني المظهر الجديد للجدران، بدت مبهجة ورائعة، منحوا الاستقبال لونًا جديدًا كنت اقترحته على خالد، ولم أتصوره يأخذ برأيي، كان برتقاليا حادا، أما الحائط الرئيسي فمنحوه البني الداكن، تموضعت بالمنتصف لوحة مستنسخة لـ شهيرة سيلفادور دالي " تحولات نرجس المسخية " . كنسخة مقلدة بمقاس كبير، زيت على توال، كانت سريالية دالي عنوانًا لأحد أكثر الموضوعات زخمًا بالمجلة، والتي حرص خالد على تحريرها بنفسه، طفولة مرفهة ظل فيها طوال الوقت يبحث عن الآخر الذي لا يعرفه، عن اسم له وكان لأخيه قبل أن يضمه اللحد، ظلت جالا زوجة دالي الروسية الأصل نموذجا مجسدًا للمرأة الملهمة، لم أتخيل أن يهيم رجل بامرأة لدرجة أن يوقع لوحاته باسمها واسمه، هكذا دوما تُعامَلُ الملهمات، يُعامَلن كأنداد وليس

كأضداد، يخلدهن التاريخ ورجالهن، وجدته مجنونًا ووجده خالد عبقريًا، وربما العبقرية يلزمها أحيانا بعض الجنون.

وقفت أمام اللوحة طويلا، بدا الأمر غريبًا حين تأملت نرجس لأجده شبيها بخالد، لم يكن شبه ملامح؛ وإنما أكثر من ذلك بكثير، تفاصيل روح استدعتها صدفة أول لقاءاتنا بالكافيه، كان يحدق بالأشياء بنصف عين غير مهتمة، ونصف أخرى غير متشبثة بشيء عدا انعكاس صورته بالواجهة الزجاجية .وفق الأسطورة الإغريقية، وقع نرجس في غرام انعكاس صورته على سطح بركة صافية حدق بها طويلا، وعندما أدرك استحالة معانقته للصورة المائية وهنت قواه فأحالته الآلهة إلى زهرة جميلة، يظهر نرجس باللوحة جالسًا على حافة بركة الماء محدقًا بالأسفل، وعلى الجانب الآخر يوجد شكل صخري يشبهه إلى حد التطابق، ولكنه مختلف بالتكوين لأنه عبارة عن يد حجرية تحمل بيضة تنشق عنها زهرة نرجس، وبالخلفية يوجد مجموعة من النساء والرجال العرايا، يلوح لهم في الأفق شكل يشبهه تماما،

أدهشني اختياره لتلك اللوحة بالذات لتتموضع بالجدار بمواجهة الباب الرئيسي، وكأنها ترمز له .كان عَليَّ أن أمر بمكتبه، بابه مغلق. ترددت بين رغبتي في إلقاء التحية ،وبين أن أتجه مباشرة لمكتبي ليبادر بالسؤال عني، فكرت ربما تنتابه الدهشة لو عرف قراري بقطع الإجازة لانتهائي من ملف عمالة الأطفال بيومين فقط على غير المتوقع .كان جادًا بالعمل، أما الفيصل للتواجد ب سبوت هو مدى استحقاقك

obeikandl.com

لكرسيك، وإلا فهناك من يستحقه أكثر منك، إلى حد ما كنت مبهورة بسياسته التي أثرت إيجابًا على مستوى المجلة وخاصة بعد سفر ناصر، اعتقدته تكنيكا رائعا لإدارة مؤسسةٍ ما، ولكن هل يمكن للحياة أن تدار بنفس الكيفية؟ هل يجوز له التعامل معها كنمطٍ يحسب كمعادلة جبرية أساسها ما يتوافر لديه من معطيات؟ ليقرر بكل دقة مصير كائن ما ،ومسار حدث ما بناء على إحداثياته؟ وغالبا يفعل، فيجلس متكئا على كرسيه، يتأمل بانتشاء الأحجية وقد تفككت رموزها، وبكفه جهاز تحكم عن بعد، يدرك إبهامه الطريق إلى ذر الإيقاف، فيفعلها تلقائيا لتظلم الشاشة بعد أن انتهت اللعبة بـ Game over، ليصفق فرحًا بإعجازه مضيفًا نقطة جديدة لاختبار ذكائه .

قلت له مرة أنه يشبه كرة ثلج تتدحرج لتزداد حجمًا، ولتلتهم بطريقها كل ما يعترضها، بعدها تتصدر المشهد بكامل حضور. ابتسم متخليا عن قطبة جبينه، وقال: إن ما بدأ كبيرًا لابد أن يستمر كبيرا، وأن التعبير خانني حين وصفته بكرة الثلج، فكرات الثلج ينتهين بمواسم الدفء ويقتلهن التصحر ويشطرهن الاصطدام، كرات الثلج يفتقدن المشاعر، ويبعثن على الارتجاف، وما ينبض بين ضلوعه كتلة حمراء مشتعلة لا يُطمئن رجفتها همس الحاضرين ولا دعاء الغائبين، قال إن العالم ما عاد يكفيه لكي يخطو بعض خطوات قصيرة خارجه ليعود بعدها بدون أن يخدشهن، وهن المعلقات بالوهم كوريقات الخريف، وأنه وضع القناع ليقيهن سهامه فضميره شرير جدًا.

كنت لا أرتاد مجرة الأسئلة كما يفعلن فيظهر شغفي، وتلمع تلك النظرة بأعينهن كمن يدرك أن القائمة طويلة، ومازالت تتسع للمزيد منهن، ومع ذلك بأناضول ما زلت أشم العطر، مازال يأتي فيسحرني فأتسمر بالمقعد، أبدو كمنومة لا تنبهها غير رائحة القهوة التركية؛ فأعود أختلس النظر عبر ممر زجاجي يفصلنا، حيث يجلس بمفرده يرتشف آخر رشفات الفنجان، وعندما أكابر رغبتي فى الاستكشاف، أواجه حقيقة أنني تلك الأنثى ذات الكبرياء و المدججة في الوقت ذاته بكثير من الفضول، تحيطها هالة من سحر حين تتسلل خطواته الهادئة بالممر؛ فتميز بيسر ذرات عطوره متغلغلة بالمساحة وموشية باقتراب مدار من جاذبية شديد التأثير.

كن يتراهن بأنه سيبتسم حين يمر ،وأن العينين ستطلان بهدوء من خلف النظارة المتوسدة أنفه الروماني، وأن الصوت الدافئ ستشبعه الحروف ولو بلكنة أمريكية وكان يفعل كل ذلك، وحين يتسرب سرًا يجيئك شئ منه ليقاسمك الأنفاس، شيء خفي يحفزك أن تسترق الحواس، شيء ما ينبئك بأنها ليست مجرد مصادفة عابرة تجمعكما، فتأسرك بشغف تفاصيله الدقيقة كاحتواء القلم، وانسكاب الحبر بين السطور، قبلة الشفتين لفنجان القهوة، سخونة الارتشاف، تجعد القميص عند الجلوس، لمعان الحذاء، قطع الشطرنج المتراصة فوق المنضدة الجانبية، صورة ابنتيه كخلفية لشاشة الحاسوب، وإطار من الفضة يحتوي صورة تجمعه وزوجته فوق ظهر أحد الخيول بأمريكا .

. ثباح الخي .

صادفني ياسين بالممر، اغتبط لرؤيتي برغم احتفاظه بقطبة جبينه، هكذا حفرت ملامحه بعض خطوط متوازية بجبهته العريضة، وبالرغم من أنه كاتب مقال ساخر ورسام كاريكاتير موهوب، كانت عيناه تختفيان وراء زجاج نظارة ،وتحملان نظرة جدية لا تلائمه، تفحصني قلقا بعينيه الضيقتين، تحفزت لثغتا السين والراء حين نطق اسمي فارتسمت إبتسامة تعذر عليّ إخفاؤها، تغلغل الطعم الكانتالوبي لكلماته الصباحية متزامنا مع حركته السريعة ككتلة لهب تتقاذها أذرع الريح، ثم استكان وراء مكتبه بمجرد استقراري بمقعدي قبالته لتداعب أنامله شحمة أذنه اليسرى، حدق بي متوترًا ، وكاد يقفز السؤال من بين شفتيه كطلقة مدفع " :أنتِ ميتبطة ؟ "وهبته إجابةً حاسمةً ذات صباح، بعدها بدأ بقضم أظافره كعادة صاحبت تبعثر الرسوم على مكتبه،

ليومين قبل إجازتي كان متوترا، سكب الشاي على رسومه، صوب سهم التصويب إلى مؤخرة "زمزم" عاملة البوفيه، شكى من حكة بأنفه أضحكت كل من بالقسم ،وعندما فعلت تعجبت لرد فعله إذ وقف قبالتي يحدق بي، هززت رأسي بطريقة استفهام، وكأنني أحفزه للكلام، فبادرني قائلا :

. وأنا ؟ !.

لم أفهم ما قصده فهززت رأسي في نفي قطعه صوته .

. ما فكيتيش فيا؟ !.

قلت بارتباك بينما أدقق بملامحه :

. مالك النهارده؟

قال بصوت خفيض :

. معقول مش فاهمه؟ !.

تصنعت البلاهة لأدور الكلام إلى شكل يرمي لمقاله الذي أنهاه ،وكان من المفترض أن أراجعه .

. هات المقال .. هاقرأه ونتناقش لو فيه مشكلة .

. الموضوع مش كده خالص ، بسسسـ...

قطب حاجبيه بشيء من الزهق، حاول أن يلملم حروفه وخذلته؛ فالتقط ورقة دون بها أربعة أحرف منفصلة بشكل عمودي، لم يكن لغزا لأفكك رموزه ؛وإنما اعتراف بالحب حاولت أن أتفهمه من دون انفعال ..

obeikandi.com

. إحنا أخوات .

كتبتها بالورقة ذاتها وبخط واضح ، في إجابة قضت على آماله وأعادته لمكتبه بكم من الإحباط كبير .كانت عيناه ترقباني بعدها بشعور مختلط ما بين مصدوم وممتعض، لجأت بعدها للجمل التقليدية السخيفة ،والتي بقرارة نفسي أدرك أنها محض وهم.. هو نفسه لم ينف تبرمه منها .

. إتثلت كتي ،وما كنتيش بتيدي !.

. حصلت ظروف ..

. خيي ..

قالها بقلق بالغ ..كان يفتش في أصابعي عن شيء يتوقعه ويخيفه بالوقت ذاته ..قلت ببعض الحزم :

. الحياة عمرها ما بتقف على حد .

احمر وجهه لدرجة أني ظننت أنه سينزف حالا.. تابعت .

. ممكن أشوف المقال ؟ !

أومأ بنعم وانسحب متظاهرا بأن شيئا لم يحدث ..

obeikandl.com

. ثواني يكون عندك .

ذهب سريعًا، تحرك خصره النحيل كراقص تانجو، لعلها نوبة نشاط مفاجئة أجهها ظهوري ، ابتسمت لمشهدٍ عجيبٍ داعب مخيلتي، حين تسلل إيقاعٌ موسيقي من حيث لا مكان، رأيت ياسين يتحرك بخصره يمينًا ويسارًا ، يقفز لأعلى ثم يعود يتربع أرضًا، يقوم فيركض سريعًا ثم يدور دورة كاملة كراقص باليه محترف، ينحني ويميل، ينظر بمكر ويغمز بنصف عينٍ معتمرًا قبعة إسبانية ، وزي جعله يبدو ك زورو، هالني جموح خيالي فارتعدت خجلا، اتجهت لمكتبي ،وأنا أحمد الله أن الرجال غير قادرين على استيعاب فكرة أنهم مصدر إلهام مجاني لنا، لمجرد أن نتأمل أنماطهم وغرائبهم لنكتب عنهم كما لم نكتب .

بنوبة عندٍ كالتي أمارسها أحيانًا اتجهت إليهم مباشرة وبهدوءٍ مصطنع، كان بابه موصدًا، احتوت عيناي لمعان اليافطة الذهبية منقوشًا عليها حروف اسمه فانشطرت روحي، كدت أختنق وأنا أمر ببابهِ وأقاوم رغبة بالولوج، ارتحت فقط ليقيني أن ما يفصلنا الآن بعض خطوات قصيرة وأنه وأنا بالفعل متجاورين، كانت ظهيرة مفعمة بالتأويلات، ولكني تغاضيت عن أول إشارة، تسلل قلبي خارجي رغما عني عابرًا الممر الذي يفصلنا، حاولت كذبا إظهار عدم اكتراث، خانتني أذناي حين التقطتا ما يشبه وقع خطواته على الباركيه، لم أسمع أحاديثهم ولم تأتني أصداء نكاتهم، شغلتني صور المقال إذ كان لابد أن أمررها عليه تجنبا لخلاف جديد .

حتى الثالثة لم أكن قررت الذهاب وبينما كنت أراجع مقال ياسين بعنوان أحلام شابٍ كوول، فوجئت بخالد أمامي، بدا مشحونًا بعينين مجهدتين، حاولت المراوغة من دون فائدة، استدعى نظرةً جادة ،وقال معاتبا :

. موضوعك مش جاهز؟

لا أعرف كيف مضت اللحظات ،ومن أين أتت الشذرات الساخنة التي ألهبتني، حاولت أن أندس أكثر بالمقعد، رسمت ابتسامة باهتة ازدادت شحوبا، وقبل أن أنطق كلمة أشاح بوجهه باتجاه ريهام :

. تقريرك عن صالون الحلمية يكون عندي باكر ...وانصرف .

لم تكن المشكلة فيه، وإنما مشكلة عقلي المرهق بحسابات غير منطقية قبلتها فقط لأرضي غروره، لم تؤرقني المسافات بينهما برغم أنها يمكن بطائرة خاصة أن تخترق غلافه الجوي، وأنا المغيبة بفراشي أنتظر سطوع الصباح بعينين معذبتين بالصور، ولم أهتم لكونها الأمريكية الثرية من أصلٍ إيطالي لورا ميديشي عريقة النسب حفيدة كارلو ميديشي مالك مزارع الكروم، ومزارع الخيول بفيلادلفيا وقصر النار بنيفادا، لم تقتلني نبرته الدافئة عندما يناديها ب سويتي هامسًا كي لا يأتني صدى القبلات، كل ما في الأمر أنها الأنثى الوحيدة التي احتوى رحمها طفلتيه .

obeikandl.com

لملمت أوراقي، دسستها بالحافظة الجلدية، تركت لهم المقال والصور، إندفعت للخارج بلا أي رغبة في النقاش، ولا حتى للمرور به ، ظنتنا سنغادر عمرنا الصلصال، حسبتنا سنمزق جلودنا لنكتسب لونًا غير الذي ألفناه .وحيدة كنت.. كمن تدخر عمرها كله لتهبه برضا لآخر يخفيه القدر، وكأننا على موعد برصيف قطار، في اتجاهين معاكسين نسير مطرقين، وحدها ستتلاقى العيون، وكلانا يدرك أننا مرتحلان إلى حيث يكمن كل منا بروح صاحبه.

*****

فكرت أن أهديهم فصلي القادم، فهم لاجئ الوجع، واخترت عنوانا من كلمة واحدة " الغرباء"؛ إذ أن هؤلاء بغمرة انشغالهم بكونهم الخاص يغفلون أنهم وقود كتباتنا والمحرك الأساسي لها، تماما كذرات الهواء بكريمة الخفق تعمل على تماسكها وانتفاخها، عندما نقبت عنهم، اخترقتني كلمات زميلتي ريهام كنيزك شطرني نصفين، قالت منهارة، أن ضبابية المشهد تلك الأيام أعادتها الى حيث كان حبيبها جالسًا إلى جوارها محتضنا كفيها، مانحًا إياها نظرة مرتعشة، ليته ما أخبرها يومها بأنها قطرة ندى، فقطرات الندى غالبا لا يبقين للصباح، قالت ذلك وبكت، قلت لها ستنسين مع أول طارق ردت بهيستيرية :

. أنا السبب، أنا اللي كنت باحليها في عينه يوم بعد يوم .وسألتني إن كنت عرفت حمقاء مثلها .

كانت تكبره بثمان سنوات, ولم تصفح لأمه رفضها زواجهما ولا وصفها لها بعقربة، قلت كيف كنت ستطيقين امرأة نعتتك بعقربة .! ابتسمت بأسى وقالت ..خفت من تجربة عاشتها صديقة لي تزوج حبيبها، كانت مثل مجنونة..هاتفته.. باركت له، نعم باركت له، قالت، لم أكن أفضل منها، ربما كنت أكثر وجعا، وحالي لم يكن سوى موت يهرول للعدم، كقنينة عطر فارغة تركض للهاوية.. ولكني واسيتها بطريقة امرأة تعاني الهزال العاطفي، بنفس الأنين قلت لها " اطمئني.. لن يبارك الله زواج رجل عاهد أخرى على الزواج.. سألتني بتشكك: هل يباركه الله فعلا ؟!.." هززت رأسي نافية؛ فأردفت قائلة قلت ذلك ،وكنت أدرك أنني اخترت المصير نفسه. ربما لهذا السبب بالذات أقنعته بالارتباط، حتى أقتنع أكثر أنه ليس لي .

كل لحظات الحب المشتعلة يعقبها اندثار لتتكون مكان الجرح ندبة، ويظل ذاك الأثر البغيض أبدا كعلامة مائية تكشف حقيقة العلاقة عما سواها، ويطل شبح الكرامة بين حين وآخر ليطالبنا باسترجاع الذات، وقتها اكتشفت أنني بحاجة إليه، لأبعد عني الخيالات الكئيبة التي تغتال روحي، وعدني بعالم مريح قبل بدء التدوين، عالم خاص يمتصني كإسفنجة،هناك يقف الوقت والمكان عند آخر لحظاتنا معا، ليشير عقرب الساعة دائما إلي عاشقة تنتظر، لم تكن رغبة بهاتف يستدعيه ليطمئن رعدتي، ولا محاولة مؤجلة لافتضاض ستر المساء، ولا اعتذار موثق بالوجع، فاحتياجنا أكبر من أن تزركشه الحجج، كان

يدرك ذلك، لذا حين يزعجه جموحي . يغمض عينيه، يبتسم، يضمني... بعدها يسكن كل شيء .

طيلة الطريق كنت أفكر بنا، برغم أننا لم نفترق، انفصلنا مؤقتا ،وذهب كل بناحية ليعود مخبئًا حزمة برية من ضوءٍ قمريٍ يهديها للآخر، كانت باقتي أكبر، وباقته أجمل، وكان القمر مشغولا بتضميد جرحه في البعيد .

تفقدت حقيبتي وعثرت على المفتاح، أوقفت تاكسيا وبدلا من أتجه لشقة روكسي اتجهت لملاذنا بالحي الهادئ بالشيخ زايد، سأذهب إلى حيث يمني كل منا نفسه بالابتعاد عن الزحام، صخبنا وحده يكفي لإذابة جليد تراكم بباب مجرتنا البعيدة، كان صوتها ملائمًا لطبيعة حالتي، كانت تصدح براديو السيارة "لولا الملامة يا هوى . "

تواتر النغمات كشف عن إحساس مريح بدد وحشة الطريق، محتم لقاؤنا، أحسه بالبعيد.. أعلم يقينا أنه يقترب.. عندما التقينا كنت أعلم أنه مذبذب ما بين رغبته في اعتناق الحياة ،وبين السكون تكاسلا كعقرب ثوان ملول في ميناء ساعة مجهدة .

وأطير وأرفرف في الفضا ...

وجدني، لم يسمح الزمن له بأكثر من نافذة لتطل منها أعوامه، وليدرك حقيقة أنه فاته الكثير .

obeikandi.com

وأهرب من الدنيا الـ...

انتظرته طويلا، فلا مزيد من الدوران في عمق التيه، حين توجعه الجراح بالظهيرة وتنكأها الأشعة الحارقة.. سيتذكر أنني أضخ الأكسجين بأنبوب مجرتنا، ولن يفتش عن نفق للخارج ..

وكفاية عمري ... الـ....وانا بخاف مـ...

ظلت السيارة التي أهداني في عيدنا الأول بالجراج، وبرغم أنه لقنني دروس القيادة حتى أجدتها واستخرج لي رخصة القيادة.. رفضت استخدامها حتى نحسم قضيتنا معا، لم يكن خالد خاتم سليمان الذي سأندفع إليه مشدوهة مستدعية الجني ليرشقني بأمنية، كان خالد مجردًا هو كل الأمنيات .كنت أركب الصور لتتلاءم معه، أدقق بالتفاصيل لتتماهى، أرتشف النكهات، أذوبها لتنسجم، أدخرها للغد كطفلة تختزن مذاقات الأشياء مستدعية مواسمها، حتى ترموتر حرارتي اعتدت أن أضبطه بمؤشرٍ خاصٍ ليقارب حرارته؛ فلا يجفل خوفا من تيارٍ باردٍ يجمد الدماء بعروقه أو ساخن يصهر خلاياه.

هرع ريحان من الداخل عندما لمحني ليحييني، وهو حارس العقار الذي نسكنه، قال إنه يدير محركها باستمرار لكي لا يصيب البطارية عطب، سألني عن خالد وعن مدة طالت لم نظهر خلالها بالمكان: فتعللت بالسفر تركته متجهة للداخل ،وبي يقين أنني سألقاه الليلة أو على الأقل سيجيئني منه اتصال .لنا وقت لم نتهاتف، برغم أنه كان مطمئنًا

تماما أنني توطنت عالمه ،وأن ما بيننا كان عروة وثقى لا انفصام لها، لم نتخيل أن لحظات توحدنا بتونس، وبشفتي أثر عميق لقبلة من شفتيه أنها آخر أنفاس التماهي بيننا.

*****

ينتابني شعور بالوجع كلما فكرت بجدراني الأربعة، وكوني جدارًا خامسًا خاملًا يرتكب الهزيمة كلما طال الغياب، تصيبني لفحة ساخنة كمن فاتها موعد هام؛ فكل العذاب طرق الأربعين بدون حصاد، أعترف بأنني أشتاق الأمومةَ وأن السنوات تسربت مني كما الماء من بين قبضة اليد، غادرتني كموجةٍ تتكسر على الحافةِ، طمأنتني المرايا كذبًا بأن الوقت لم يمر، فوارت شروخها بانعكاس خادع لم يرسم حقيقتي.

ب"زايد" أسسنا شقة فاخرة من مستويين بواجهة زجاجية كبيرة تكشف المكان على اتساعه، زودناها بنوع ثقيل من الستائر كنا نسدله ليلا.. المكان جميل برغم تحفظي عليه في السابق كونه منعزلا بكمباوند تحيطه الأسوار من كل جانب، وتسجنه الظلال الممتدة لأشجار الفيكس والأكاسيا والبانسيوانا الضخمة، لم نبصر على امتداد البصر غير تشابك الفروع وتمايلها مع الرياح، لكنني اكتشفت كم كان مذهلا ؛لأن جنتنا الرحبة وفرت لنا قدرا من الخصوصية لم أحلم به، هناك استشعرت قربنا والتحامنا وهدوءنا النفسي ومساحة كبيرة من الأكسجين تلتهما رئتانا بأريحية، كانت تجربة مثيرة خضناها معا

للتعامل مع العمال مابين تشطيبات ودهانات ومفروشات. اخترنا كل قطعة فيها لتلائم مزاجنا الخاص، بعد نهاية كل يوم نتفقد منجزنا متعبين راضيين عاشقين، وحين أسأله عن شئ يتمناه، يجذب قصاصة ليدون بعربية فصحى متسقة مع حركة أصابعه .. " كوب شاي أرتشفه على مهل، خالٍ من السكر محلى برشفة من شفتيك، ومنكه بروح امرأة هي من صنعته" ويقبل كفي.

غاب الرنين حتى المساء، هاتفته، كان الهاتف غير متاح. اعتقدته ما زال غاضبا، وعزمت ألا أعود للعمل قبل نهاية الأسبوع . كان لابد أن يتصل أو يمر .لم أفكر في مهاتفة ناصر للسؤال عنه برغم قرب ثلاثتنا، ناصر مأمون كان مالكا لـ سبوت ورئيس تحريرها قبل عودة خالد من أمريكا ،وقبوله بالشراكة للاستفادة من خبراته الصحفية ،وعمله كصحفي بارز طوال فترة ثمان سنوات بوكالة أنباءCNN ، لم يزعجني تصوره عن طبيعة علاقتنا؛ لأنه من وطد تعارفنا و شهد توثيق العهود، كنا نخرج معا و تصحبنا داليا زوجة ناصر في بعض الأحيان، كانت امرأة رقيقة بشعر أحمر ناري، أحببت هالة الدفء التي تشع منهما حين يتجاوران فلا يغيب عن الحضور أنهما حبيبان قبل أن يكونا زوجين، ما المخجل في احتضان رجل لامرأته في العلن؟ ما العجيب في أن يتغزل بها ،ويتوجها ملكة على عرش أحلامه ،ويلونا معا رتابة الحياة؟ كان يفعل ذلك وأكثر، لم يخفِ ولعه وافتتانه بها،

عندما التقيتها لأول مرة أغرمت بجملة أطلقها لسانه كزخة عطر بعثت الدفء بأوصال الأمسية، بل أرق وصف سمعته من رجل في امرأة، إذا قال: "داليا أحلى سكر بيحلي مرار حياتي " كانت تملك ثقافةً عريضةً وحضورًا مبهرًا ربما لأنها عازفة بيانو متمرسة، دعتني وخالد لحضور حفل بالأوبرا، كانت المرة الأولى التي أحضر فيها حفلا من هذا النوع، عزفت بمصاحبة أوركسترا القاهرة السيمفوني كونسرت لشوبان. أسرتني لحظة أن كانت أناملها تتحرك فوق أصابع البيانو، بدت كشحنة كهربية منفلتة لا يمكن تطويقها، ولا يمكن أسرها، حازت طاقة جبارة هادرة، بدت حرة رقيقة لدرجة الإعجاز، وقوية مثيرة وبعيدة المنال.. لم تكن تعزف الموسيقى فقط وإنما كانت تجسدها، ما فعلته ليلتها كان احتدامًا جميلًا مرهقًا للمشاعر متزامنا مع حركة جسدها الناحل المتمايل، نسج لحنها رداء غير الذي ترتديه لف جسدها كما حجب الليل بستار ملائكي، استقبلنا عزفها كمنومين متوسدين البحر بنعومته وأصخاب موجه ونسيم يوده، في نهاية الأمسية عانقها طويلا، لف ذراعيه حول خصرها مقبلا جبينها بعذوبة شديدة، أشحت بوجهي للبعيد خجلا بينما أصابع خالد تفتش عن أصابعي.

كثيرًا ما خرجنا معًا، سهرنا بالمسارح، ارتدنا البازارات، زرنا معارض الفن التشكيلي، جلسنا على المقاهي الكبيرة وحضرنا الأمسيات، كنا نتناقش ونختلف ونصفو ونهدأ ونعتنق الجنون، أسرت لي ذات ليلة أن روح أباها لا تفارقها وأن كلماته عشية وفاته هي التي حركتها للحياة

عندما همس بأذنها" عليكِ أن تتعلمي كل شيء قبل بلوغ السادسة عشر، لأننا نصبح أغبياء فيما بعد " لا شك كانت جملته دافعها الأساسي للسفر إلى روما لتدرس الموسيقى، لتتشربها من مارتا آرغيرتش أسطورة البيانو بإيطاليا، لكن عزف خالد كان مختلفا، يهمس فيصنع زمنا للأمنيات؛ لتصبح كل الخرافات التي تحكيها الجدة وخلت منها جعبة أمي هي كل الحقائق المجردة، لتصبح كل الوعود التي تمشط شعر وحدتي وتعقد له الجدائل تبشر بعقود من ياسمين وقرنفلات، ليستحيل الليلُ شموسًا تتشكل بحروف عشرة شعراء ومائة مغنٍ، فتشهد روحي خمسين شروقا وغروبا . حين يقول :امنحيني كلكِ فما عاد بعضكِ يكفيني ..

لم يكن سلامًا نفسيًا ما جمعنا ، كان أكبر وأعظم، كان حبًا وجنونًا وكيمياءً لم نعرف منها إلا مايشطر الذرات، وكان علينا البحث كل مرة عن تفاعل يجمعنا من جديد.

*****

دلفت إلى الشقة أفكر في كل ما حدث، ما الذي فعلته لأستحق كل هذا؟ كانت الأسباب كثيرة وبرغم ذلك وجدتني لا أستحق كل هذا العذاب، تجولت بالشقة أتأمل كل شيء، ستائرها، نوافذها أثاثها،حوائطها. مازالت السوداء الضخمة المتوسدة جدارنا الحجري تمارس نقرها المتصل على إيقاع الوحشة، مازال اللاهثان يركضان

بالميناء حنينا لرشفة ماء ليواصلا المسير، هدوء قاتل، غربة تحيط بكل شيء، أردت لو أتحدث إليه للحظات، أو أن نُعمل عقلينا لبعض الوقت. لكنه يصر أن أكون مجرد امرأة ترضي فراشه، طاهية تطهو طعامه، صحفية تجيد كتابة الموضوعات، أما هو فمجرد مُبرمَج لا يخطئ ولو من قبيل الصدفة، قررت أن أتحدث لأشيائه، لأشباحه، لجدران البيت، سألتها عنه، شكوت لها عطره العالق بها والمتنكر لي،

فتحت باب غرفة النوم، كان الفراش مرتبا، كل شيء بمكانه ويصلح لالتقاط صورة لإحدى مجلات الديكور.. لم تكن كصورة أمي بغرفة المكتب، بأقصى يمين الجدار ملامح تشبهني, أنف دقيق، حاجبان رقيقان وعينان ناعستان.. ارتجف قلبي، شعور بالرهبة ملأني وخيط من الحنين سرى، وكأنها لم تمت, مازال صوتها يرن في أذني " أنا معاكي.. متخافيش" لمست وجهها فاحترق كياني، وألح سؤال مربك عن معنى الفقد، تذكرت لقاءنا الأول ، انتابني شعور بالتحفز يشبه نغمة متصاعدة، وكأنها تمهد لاقتراب نزال، شيء ما يشبه المراودة، لحظة كالميلاد أود لو استعيدها ألف مرة، جسدي يتنشق الرائحة ،ويحن إلى دفء الحشوة يتأهب لها، أصم أذنيّ عما سواها .

كان نهارًا مزعجًا، بدأ باستيقاظي على انسداد كامل ببالوعتي المطبخ والحمام، مرورا بتعنت زوجة الحاج ،وزعمها أنني السبب الوحيد لنكسة المرافق بالعمارة، لم تكن السيارة أكثر رحمة منها فضجيج محركها ،ودخان فتحة العادم أفصحا عن عطل جديد، الطقس حار

والعرق ينز وقماش البلوزة ملتصق بي بجنون، تعليق الكائن الفضائي على ناصية الشارع حين مر بدراجته بجواري ممعنا النظر فيهما " هذين الرابضين على صدري كفوهتي بركان" أوشك أن يدفعني للصراخ، كدت أمرر له بصقة تشبه سحنته، ابتسمت عوضا عن ذلك بشكل لا يقل فجاجة أبدًا عن نظرته الجائعة، فلملم ذكورته ،وركض بالدراجة مسرعا، لمحته يتلفت خلفه، للأسف لم تصدمه سيارة واختفى بين الناس،

تعرق شعري وترني ،فجذبته بعصبية وعقصته أعلى دماغي، دفنت نفسي بالمقعد ،وقدت بكل طاقات الإحباط الممكنة، سحابة سوداء ضخمة صاحبها عواء متصل متقطع مصدره فتحة العادم فتح أفواههم بكثير من السخرية، وصلت أخيرا، اندفعت باتجاه مكتب ناصر بكم من الضيق لا حد له،لم يؤشِّر لنشر تقريري عن فلسطين برغم مواكبته ذكرى الانتفاضة، ساورني شعور سخيف بسوء التقدير، ناصر الذي سهل لنا مهمة دخول فلسطين بناء على دعوة خاصة من جمعية "عطاء غزة" الخيرية هو ذاته الذي تجاهل تحقيقا ضخما كبدنا مشقة ما بين سفر ،وبحث مضن، ولقاءات مصورة، لمعان اللافتة النحاسية بالباب استفزني.. فزجرته دافعة الباب بغضب، لم أتوقف بمكتب السكرتيرة ،ولم تأذن لي بالدخول، وجدته جالسا خلف مكتبه بينما تتوسد أنفه نظارة القراءة، كان يقرأ من ديوان" حزن بملابس سهرة" ،وبرفقته صديق لم أدقق في ملامحه، لم يهتم بدخولي، استمر يلتهم السطور، كان يصدر بعض الأصوات ليدلل

عن إعجابه بالقصائد، يهمهم، يزوم، يئن، يزفر.. صفقت بسخرية فانتبه وأشار لي بالجلوس.. صدمني رد فعله فقلت بضيق:

. ممكن أعرف ليه الموضوع ما نزلش.

. مين سمحلك تدخلي ؟

حاولت بخجل لململة شعري الذي انسدل فجأة تاركا مكانه.. وصلني صوت ضحكة جانبية لم يحاول صاحبها إزهاق رنينها، كدت أتلفت، دخل عامل البوفيه حاملا صينية عليها فنجانين من القهوة، وضعهما أمامهما وحدق بي وانصرف، سألني ناصر من جديد عن دخولي بتلك الطريقة فطالبته بتوضيح لموقفه، قال بطريقة مستفزة ليس علي أن أحاسبه، استحالت ضحكة صاحبه بعدها لابتسامة متسعة.. تساءلت بنفسي :"هل هو الرجل ذاته الذي حين اختبرت جنونه أهداني حديقةَ عطرٍ تستفز المشاعر .."

تسمرت مكاني ...

. أسفه بس اا ..

تمنيت لو أخبر ناصر أن أسوأ ما يمكن أن تقابله يوما، هو خيبة الأمل في شخص تثق به، وخاصة بعد أن يخذلك، وجدته بالنهاية وصفا لا

obeikandl.com

يليق وقد تأخذ الأمور منحىً آخر فسكت .لابد أنه لاحظ حيرتي ،وخيبة الأمل على وجهي ؛فقال بلهجة أقل تحفزا :

. لحظات وأكون معاكي، اقعدي ..

نظرت إلى عينيه مباشرة ،وتجنبت النظر إلى ضيفه.. جاء صوته هادئا محددا بلكنة مشدودة تماما كجسده .

. اهدي ...آنسة .

. نعم !.

. الموضوع فعلا بسيط .

. مين وجهلك كلام؟ !

عقد حاجبيه، نفث دخان سيجاره في هدوء شديد، وعاد بظهره للوراء، امتلأت الأجواء برائحة التبغ الكوبي المحترق، أمرني ناصر بالعودة لمكتبي، فتحت فمي وحاولت أن أقول شيئا فلم أستطع، مرت اللحظات كدهر, ساد الصمت لثوان، تبادلنا النظر،اندفعت للخارج متجهة لمكتبي، لململمت حاجياتي وانصرفت، اتصل ناصر مساءً ليعتذر عن تأخر المقال متعللا بخطأ تجميع، كان لطيفًا، أنهى اعتذاره حالة الضيق التي استبدت بي طيلة اليوم.. وعدني بملحق خاص يناسب

موضوعي، بنهاية المكالمة لامني على فظاظتي مع صديقه. كنت في حرج من الصورة التي انطبعت بذاكرته عني، عرفت منه أنه يدرس إمكانية البقاء بمصر بعد سنوات قضاها بأمريكا ،وأننا بصدد تغييرات شاملة ب سبوت لو تحقق ذلك،عندما ذكر أنهما بصدد شراكة ،استدعيت مشهد انفعالي وكلماته، تذكرت ابتسامته التي تموضعت بشئ من السخرية ،وكأنني دمية تقدم عرضًا هزليًا، ظل جزءٌ مني لا يرغب في توجيه أي اعتذار له، وظل جزءٌ آخرٌ يستدعي ملامح صدفتنا الأولى بأناضول.

*****

الأجمل من الكتابة اللحظات التى تسبقها، وأسميها لحظات التحليق، أحلق فى مدارات متدرجة، تبدأ من المطبخ بتحسس برطمان البن راسمة مشهدا مدهشا لفنجان قهوة مَلكي، أدير مؤشر الراديو بحثًا عن جملة بأغنية ما تستحق أن تكون مفتتحًا لائقًا، مرورًا بتفاصيل عالمي الخاص عبر زاوية مغرية بالشرفة أو مشهد مضبب يخترق زجاج النافذة، ربما لعاشقين يتسابقان ليفوز أحدهما بقبلة من الآخر، ربما لجرو صغير يتداخل بين قدمي شحاذ يطعمه فتات رغيف، في النهاية عليّ أن أستسلم تماما لمحاولاتي الدءوبة لتفريق أشعة الشمس بتضييق عيني أو للقبض عليها بأصابعي، أو ربما للتلصص على شرشف جارتي لاكتشاف سبب شحوبه، انتهي مستغرقة تماما فى حوض الاستحمام محدقة فى السقف بانتظار المعجزة.

لم يكن انقساما بين عالمين ما يحدث لي، لكنه انبعاث لضوءٍ خافتٍ عبر نافذة مواربة، كان لابد مع الوقت أن يخترق المساحة، ويفرض هيمنته على عتمة غرفة تآكلت جدرانها ،ونبتت بأرضها نباتات صبار ضخمة بلا جذور، اقتلعتها بسهولة برغم مظهرها الوحشي، ووجدت الطريق لنفسي لعبور آمن، لم يتطلب الأمر أكثر من تدريب نفسيّ، سمحت لعقلي أن يستدعي التفاصيل البعيدة ويسكبها على الأوراق لتحريرها من الأمس البعيد؛ فسجنها يربك واقعي ويفسد إدراكي لكينونتي، ويمحو الاسم الذي يبهجني رسم حروفه فوق شواخص الأوراق؛ فيهدر كموجة تدرك أن للبحر ثورة حين يوجعه السكون.

تتفقد عيناي بفضول بياض الصفحات، تفتشان، أزداد توترًا كلما انسكب الحبر بين السطور، أتوجس قلقًا لإدراكي أن القادم سيكون سيرة ذاتية لن أعلن أنها لي، ولكنها لـ باليرينا بمسرح عبثي؛ لذا فكل ما سيرد على لسان أبطالي وبطلاتي غير قابل للشرح ولا التبرير، ما زالت تربكني النهاية ،وأخشى أن أضع خاتمة مفتوحة كالتي يفتعلونها بفيلم رديء، وربما هي الأقرب لاحتياجي.

في آخر اجتماع لنا استعرض ناصر التحقيق، وأشاد بالجهد المبذول ،وأوضح لم كان عليه أن يفرد له ثلاثين صفحة منفصلة بشكل ملحق، وجدت في ابتسامته وعد أكبر من المكافأة المالية، أصدر قرارا بأن أكون نائبة القسم الثقافي، والذي يرأسه ضياء الحسيني، أصبحت أحدد بشكل غير مباشر الموضوعات الصالحة للنشر والأخرى التي لا تستحق

عناء القراءة، أصبحت بعدها مسئولة عن صفحة أسبوعية ثابتة ، مرت أسابيع بعدها، وحررت تحقيقات أخرى وظل تحقيق فلسطين بداية لأحلام كثيرة ممكنة، أهديت نسخا من العدد لأم زياد وأخريات ، كن نساء من فولاذ، دعمن وجهة نظري بخصوص ألواح الإردواز وما يمكن نقشه بها..

بعض الأمور حين تحدث لا يمكن وقفها أو إبطاء ما يليها من توابع، وعند حدوثها لا تملك إلاأن تشكر القدر لمنحك إياها، مثل رحلتنا تلك .. وصلنا رفح المصرية وهي آخر مدينة على حدود مصر الشرقية ،وبها معبر رفح البري ،ومنها دخلنا رفح الفلسطينية، كنا ثلاثة، أنا ومنعم الجبالي ومازن إياد وهو ابن لأب فلسطيني استشهد مع أخوين له بإحدى الغارات الشرسة على القطاع، استضافتنا جدته لأبيه لخمسة أيام هي عمر الرحلة التي تمنيت ألا تنتهي، دعمتنا الجريدة بكل ما يمكن لتسهيل مهمتنا من سيارة وآلات تصوير ومعدات صوت وتأشيرات مرور، لبسنا السترات المدون عليها بالإنجليزية كلمة " برس" كنت سعيدة لدرجة أن انتابني شعور كما لو أنني أبدل جلدي، وأصبحت على يقين تام بأن تلك الحياة التي اخترتها ربما تكون أجمل من بلورة ضوء تلمع في عيني عند البكاء، أحسست براحة كمن تركض للشفاء من مرض عضال، باتت الأشياء التي تذكرني بهم مجرد جدار عازل يفصلني عن بقاياهم، لا شيء يؤرق ضجيجهم غير أنفاسي الهائمة، قررت أن أحيا لأكتب نهايتهم وأنثر رمادهم للعدم، بما فيها

تلك التي تحمل اسمي مقترنا بأسمائهم، وتاريخ ميلادي وبرهان ثبوتي، وفصيلة دمي ولون بشرتي وعينيّ.

مشاعر مختلطة ما بين شغف وقلق عندما اختفى العمران، وحل مكانه اللونان الأصفر والبني بتدرجهما ليخترق النخيلُ الكثيف الرتابةَ بخطوط متعامدة، عبرنا المنفذ الحدودي بسهولة، نصف ساعة من السير المتواصل حتى لاحت نقطة تفتيش تحاذيها يمينا لافتة تحمل عبارة "إبراز الوثائق للفحص". وقفت السيارة أمامها مع اقتراب الغروب، قال مازن إن دخول رفح أصبح أمرًا يسيرًا عن ذي قبل، وأن النقاط الحدودية سُلِّمت بالكامل للسلطة الوطنية الفلسطينية، وتحديدا لجهات أمنية تتبع حركة حماس بحلول فبراير٢٠٠٥من ضمن خطة وضعتها الحكومة الإسرائيلية تحت اسم" خطة فك الارتباط الأحادي" وتقضي بإخلاء المستوطنات الإسرائيلية من قطاع غزة، وأربع مستوطنات أخرى متفرقة، تم الإخلاء قسرا برغم تعهد الحكومة الإسرائيلية تعويض المستوطنين ،وإعادة تسكينهم، بعدها بدأت الاحتفالات بالقطاع ،وخاصة في الأماكن التي كانت عليها المستوطنات، شملت أعمال تخريب وحرق كامل لكل ما تركه اليهود حتى دور العبادة.

كانت نقاط التفتيش الحدودية قبل هذا الوقت خاضعة للسيطرة الإسرائيلية مع رقابة دولية، من الطبيعي جدًّا حينها أن تنمو مخاوفك في حال قررت زيارة القطاع، وعليك أن تتأهب لهذا الفوران الداخلي

obeikandl.com

،وأن تستشعر زيادة إفراز الأدرينالين بخلاياك لمجرد أن تصدمك وجوههم الكالحة، من المتوقع مثلا أن نجد بنقاط التفتيش ما لا يقل عن سبعة جنود إسرائيليين بينهم مجندة أو اثنتين بنفس السحنة الكئيبة، الكل يحمل على كتفه بندقية مزخرة مستعدة للإطلاق، كان التفتيش يجري وقتها بشكل أميل للامتهان، فعادة ما يدفعون الركاب للخارج بشكل فج، فيخضعون لتفتيش دقيق، كذلك السيارات، في النهاية يجمعون جوازات السفر ليفحصها ضابط برتبة مقدم أو عقيد، وليس من المقبول أن تشكو حرارة الطقس حين يتركون السيارة تحت الشمس لنصف الساعة أو أكثر لحين التأكد من صحة الأختام.. وبرغم كل ما قاله وجدته أمرًا لو حدث حينها فهو جدير بالمخاطرة،

مررنا بسهولة عبر نقطتي تفتيش متتاليتين، تركونا بعد فحص هوياتنا لنمر بسلام، قدنا لمسافة كبيرة قبل أن نصل حدود المخيم وكان الظلام قد حل، لمحنا الأضواء بعيدة على الإمتداد في تدرج عشوائي، نبهنا مازن لإمكانية سماع دوي قصف بين حين وآخر. قال فيما يشبه الدعابة أن أصوات القصف هنا بمثابة موسيقا تصويرية تصاحب الحياة اليومية لسكان المخيمات، حتى المشاهد الجنائزية المهيبة بالطرقات ما هي إلا طقوس ثابتة .هنا المشاهد متشابهة تقريبا، بيوت من دور واحد أو دورين، تفصلها ممرات ضيقة وتحيطها جبال تنفرج عن سهول شاسعة تنتشر بها مراعي الغنم، كلما تقدمنا بالسيارة تبعتنا أعين الأهالي بفضول لتشير أصابعهم بعلامة النصر وليبتسموا بثبات آلهة.

obeikandl.com

ما إن تقترب من الأمعري حتى تكتشف أنك على بعد خطوات من أيام وليال مفعمة بعبق فلسطين، فالزعتر والميرمية والخبيزة تفوح روائحها في كل مدق وزقاق، والبيوت مزدانة بخارطة فلسطين، وصور الشهداء، ومن الداخل تفوح رائحة المسخن المعجون بزيت الزيتون والسماق، والمفتول المغزول بأيدي الجدات، والقهوة بالهال تحية واجبة ومن دون موعد كجلساتهم اليومية . هم أناس حصنوا أنفسهم بالتكاتف لمواجهة مأساتهم المريرة، هناك دوما ستلتقي الآلام ممزوجة بالآمال والجراح تطبيها الأفراح، تتدافع كلها مجتمعة لتحتل مكانها في روحك النهمة للمعرفة.هناك ستلتقي بأطفال اكتشفوا الألعاب التي كانت لآبائهم وأجدادهم يوما، وهناك أطفال لم يعرفوا الألعاب والدمى التي يعرفها أطفال العالم فكبروا قبل الأوان .

استقبلتنا جدة مازن بابتسامات رائعة، عانقتها وتسمرت في مكاني، ما إن صوبت نظري للجدار حتى فاجأتني قطع من الملابس مثبتتة عليه كشواهد للمجزرة، ملابس ممزقة يكسوها الدم، تبادلنا الكلام وعيناي مثبتتان بصدر قميص، بقايا بنطال، أو حذاء رجالي متهريء، كنا من عالمين مختلفين، لفتت نظري لأوعية الصبار على الحافة، لم تكن غير قنابل فارغة مملوءة بالطين وتداعب حوافها أزهار الصبار. هي امرأة ثمانينية صلبة وقصيرة القامة، تفوح منها رائحة زكية.. أحسست بأصابعها تتحرك بين كفي، تضغط عليها وتتركها ثم تضغط من جديد، تلك طريقتها في الكلام، ربما ودت أن تخبرني بأشياء عجزت عن قولها الحروف ..كان الموقف ملهما، والأحفاد يلعبون بالخارج

ويعودون من وقت لآخر وبأكفهم أشياء صغيرة.. معظمها أنواع من الحجارة، لفتت نظري أروى بنت السبع سنوات، حملت ملامحها نوعا من العدائية لدرجة انها أمسكت بعصا وزعمت أنها قنبلة، قالت بينما تكز على أسنانها" لو كان مع أبوي برودة، لطخ كل الجيش ".

تابعت العجوز بعيني تتجه ببطء للدرج الخشبي، تسلقته كدمية مخفية الخيوط، اتجهت للمطبخ وغيبتها الجدران..عدت بظهري للوراء، تساءلت كيف توقف بي الزمن هنا، فكرت بأسماك الحوض ونبتات الشرفة وقطط المسقط الجائعة، فكرت بالثمانينية صاحبة التجاعيد المعقدة كشبكة صيد، ورجال بطنها الثلاثة.. فكرت بأمي وسنينها الخمسين ورجل بطنها الوحيد.. هالني الفرق، ثمة حصاد آخر لم أفكر فيه.. شيء أكبر من المعجزات، ثمة صبر ينحت البشر هنا غير عابئ بالبارود ولا بالدم، بدت جُمَلهن التقليدية بعالمي مجرد حروف سخيفة مكررة؛ فلم يكن الحزن بقادر على كسرهن، باتت الظلال الرمادية لرجل الصورة على الحائط أكذوبة كبرى، وبدا كوني كله غرفة آسنة كبحيرة في غيبوبة بينما غرفة الجدران المثقوبة عالما متسعا يغازل الفضاءات.. قدمت لنا حليبا طازجا، وخبزا معجونا بزيت الزيتون والزعتر وطبقا من عسل النحل وبرتقال، بعد العشاء اقتادتني لغرفة جانبية حوت فراشا يقابله جدار تتوسطه خزانة بلا باب، فقط ستارة ثقيلة حجبت محتواه، مدت يدها وسحبت غطاءًا ثقيلا ووسادة احتياطية .كانت الخزانة تخفي دثرا وأغطية ويبدو أنها صُنِعت خصيصا لهذا الغرض،

بالغرفة منضدة تناثرت عليها علب ألوان ورسوم لشخوص تحاكي صورا على الجدران وكتب كثيرة للأحفاد . قالت: إن الطابق الثاني عبارة عن غرفة نوم وغرفة أخرى متسعة تستخدم لأغراض شتى، وجدت بها حشيات أرضية من القطن تستخدم للجلوس، ومساند محشوة من القطن اليابس ليُتكأ عليها، توسط غرفتي كما الغرف الأخرى مصابيح صفراء تشاغب الظلمة بعذوبة، لم أمنع الضوء عن مصباح غرفتي حتى الصباح، كانت ليلة مشحونة بالتفاصيل والتعب، على الرغم من دفء الغرفة تسللت الوحشة لي فأدرت التلفاز وظللت أتجول بين القنوات حتى بزوغ النهار، بمجرد أن أسلمت جفني للنعاس سمعت طرقا خفيفا على الباب، كانت هي، ارتكنت للفراش وأجبت، دخلت مسرعة وبين يديها خمار مطرز برسوم من الطبيعة غاية في الرقة ..وقطعا أخرى مطرزة برسوم هندسية من قماش الخوج والإيتامين، الألوان مبهجة وفي الغالب تميل للأحمر بدرجاته، أهدتني كل تلك القطع وثوبا رائعا .قالت: إن تطريزاته تشبه تلك التي حاكتها بثوب زفافها. كل شيء هنا مختلف وحي، حتى أثواب الأعراس،

نسوة فلسطين لا يرتدين غالبا ثيابًا بيضاء من الدانتيل بحفلات الزفاف، لكنها أثواب مطرزة يدويا بالكامل يمكن أن تبدأها الفتاة بسن صغيرة لتنهيها بالكامل بسن الزواج؛ ولأن تكلفة شراء الثوب الفلسطيني عموما مرتفعة فإن النساء يعمدن إلى استئجاره في مناسباتهن .هنا ليست الثياب مجرد أقمشة مبهجة .ويقال إنه بإمكان من يتواجد في سوق من الأسواق القديمة، حيث تتجمع النسوة من

obeikandi.com

جميع أنحاء فلسطين، أن يميز المناطق التي تنتمي إليها بمجرد النظر إلى أثوابهن، كانت النسوة يذهبن إلى أبعد من ذلك، فقد كن لا يميزن المناطق المختلفة فقط، بل تتعداها معرفتهم إلى التمييز بين قرية وأخرى بعد أن يتفحصن الرسومات وطريقة تنسيقها على الثوب، تلك الرسوم كانت ومازالت مؤشرا هاما لهوية القرية، تحفظها المرأة جيدًا، وترث المعلومة من أمها وجدتها، إذ أنها تبدأ بتعلم فن التطريز من سن مبكرة حالما تتمكن من الإمساك بالإبرة، وتنغرس فيها منذ طفولتها ضرورة نقل رسومات قريتها على أثوابها ، لذا فالثوب الفلسطيني يحكي حكاية كل منطقة وظروفها الاجتماعية .

كان من المهم جدا من خلال تلك الرحلة على الأقل بالنسبة لي رسم بعض الخطوط الأساسية لملامح الشخصية الفلسطينية وخاصة للمرأة ؛ فالمكان هنا يضج بطاقة عجيبة هنَّ سرها، ويكفي أن تتفحص علب خيوطهن وكم الألوان التي تحتويها لتدرك أن يرسمن الحياة ويشكلنها بقدر ما تشكلهن ،حتى الآذان حين تسمعه تشعر أن الله هنا، يلفهم برحمته ويشملهم بعنايته، في المساء جاءت الرفيقات من الجوار ،وتحدثن عن ذكرياتهن الخاصة بفترة التهجير، لم يختلفن عنها شكلًا ولا روحا ، وإن ظلت لكل واحدة منهن تجربة منفصلة تستحق الرصد، تكلمن بعفوية لا تلائم حجم الألم الذي عانينه ولا كم الخسائر التي ما زالت تلهب الروح . حكين عن فترة ما قبل النكبة بكم من الصلابة غريب.. دونت الشهادات بلهجات صاحباتها كما وعدتهن، أكدت لهن ذلك وقت أن أهدينني مفهوما جديدا عن النساء، ظهر جليًّا

بكلمات أم زياد التي استضافتنا ببيتها بمدينة بئر سبع، "عنا النسوان بتشتغل مثل الرجال وزيادة، عنا مافي كسل، متعودين المرا تشتغل مثل الزلمة، تروح مع جوزها ع الأرض، مافي حدا يترك أرضه، كان عنا نسوان لبانات، اللي كان عنده معز أو بقر وبدو يبيع حليباته كانت النساء تروب الحليب وتحمله على راسها وتروح على عكا تبيعه ".

تكلمن عن المساعدات الإنسانية التي قدمنها للاجئين، سارعن إلى تأمين المأوى والطعام لهم، كن يذهبن مسرعات عبر الدروب والحارات، يقهرن الخوف بينما يسلكن مساربها الخفية، خضن في الطين، عبرن الجسور واجتزن أكوام القش، لم يتوقفن إنما تحركن بخفة طيور تخشى لمس الأرض، غريب أن يفعلن كل ذلك بأجساد ضئيلة تغذت على القليل من الطعام. تحدثت جارة لها، واسمها نديمة عن تجربتها المعاصرة للنكبة، حكت كيف هيأن الكنائس والمساجد للنوم ، وطهين أنواعا من الأطعمة ،ولم يميزن بين صغير وكبير ..قطع حديثها دخول ابنتها وبين يديها صينية تعلوها كئوس من القرفة.. على الرغم من صغر سنها عيونها نضحت بالخجل، وضعت الصينية وانصرفت، لا أدري ما الذي حدث فجأة، شعور بالغربة تسرب إليَّ، فجأة صرت غريبة لا تنتمي لأي شيء، لا لأسرة، لا لجماعة ، لالفكرة.. لا لشيء أبدا، نظرت في أعينهن وداهمتني رغبة قوية في البكاء، تساءلت بنفسي..هل يمكن أن تكون رحلتي تلك بداية للبحث عن ذاتي المفقودة؟ هل يمكن أن أسترد معهن بعضا مما خسرت ؟ وهل يمكن تجاوز الماضي بندوبه وصوره المرهقة لتحل محلها صورا أخرى لعالم

obeikandl.com

أكثر رحابة ونسوة أكثر قوة؟ من المؤلم فعلا الربط بين عالمين يستحيل المزج بينهما لانعدام التشابه، أو أن يكون الأول معبرا للثاني من دون وجع الانسلاخ، أو أن تتواجه شخوصهما كل ونقيضه في نزال صريح حتى ينتصر الحق، بدا الباقي من الوقت مساحة مختنقة لن تمتلئ بكل الأحلام المجهضة.

من السخف أن أفكر في كل هذا لمجرد أن ودعت الفتاة بابتسامة. وقت أن انصرفت مشبكة ذراعيها فوق صدرها بخجل .ناولتني نديمة كأس القرفة وأردفت " كنا واعيين لما الطيارة أجت ع الساعة خمسة، هاي الغارة تضرر فيها كتير، قمت أركض، ياما ولاد ماتت وهي طالعة مع أمهاتها، اللي كانت حاملة ولدين وتلاتة، وحاملة ملابس وأغراض، كيف بدها تدبر حالها؟

بعد ساعة كانت الغرفة قد امتلأت عن آخرها متسعة لكل الحكايات، لم تكن ليلة عادية بالنسبة لي، فالأمور التي وجدتها بسيطة متشابهة، بالفعل كانت عظيمة وفارقة، والموت الذي يرهبنا ويوجع قلوبنا يتهيأون له ويستقبلونه كعرس. والأشياء التي نفترض أن تقتلنا نفسيا وتدمي خلايانا تشد من عزائمهم ، تذكرت مقولة جدتي بفراش مرضها" الموت وسط الناس رحمة" .استشعرت قيمتها وما ترمي إليه وقت سرت وسط الناس بالسوق كتفا بكتف، أتشمم روائحهم، أتنصت لأوجاعهم، أدقق بملامحهم، وأفتش عن أشيائهم، تخيلت لوهلة حال الساحة المكتظة لو قصفت بصاروخ، لم أملك غير

الدعاء، تعاطفت مع هؤلاء المتزاحمين على الخضر واللحم المجمد بالسوق برغم رداءته, والباحثين عن كسرة خبز. والمودعين والعائدين، وزعت الحلوى على بعض الأطفال ممن قابلتهم في السوق، واشتريت منهم بعض ما احتوته بضائعهم، حين تفحصت الأشياء التي ابتعتها بضعف ثمنها حبا فيهم وإشفاقا عليهم، وجدت أنواعا من علب الكبريت وثلاث علب من السجائر، وقطعا من اللبان، ولوحا من الشيكولاتة وبعض الخيوط والأزرار وشمعتين وعلم.

قطعت أفكاري أصواتهن وكن يدندن بلحن محلي. اكتشفت بالنهاية أن التراث الفلسطيني لم يتجمد بل امتد للثقافة الشعبية عند التهجير، كن يحفظن أغان كثيرة، وظفنها لتعبر عن مشاعر الغربة التي تغلغلت إلى أبسط تفاصيل الحياة اليومية خاصة تلك التي تشكو الفقد. التمعت عينا أم زياد ،وهي تغني بصوت مبحوح، وترسل النظر لصورة على جدار استشهد كل شخوصها .

والصبر يا مبتلي والصبر يا أيوب .

والصبر جبتو معي لينمحي المكتوب .

والصبر جبتو معي من يوم هجرتنا .

وحجارة الدار يا يما بتبكي ع فرقتنا .

بالليلة الأخيرة احتفين بي، جلسن ليخبزن أنواعا من الحلوى أهدينني منها الكثير، ضحكن بملء القلب والروح، حتى الجدران نفسها ضحكت، وكأن الزمن قد نسى حينها تلك البقعة من الأرض، مر الوقت حنونا هانئا، أوشكت أن أنسى كلام مازن عن ليال يقطع القصف سكونها، وعن طائرات لن يرى القاصفون منها غير أضواء المخيم كفزاعات، مازحته متندرة بهدوء الأجواء، فقال ساخرا لو أسعدك الحظ وكنت شاهدة عيان على أحدى العمليات القذرة لتساءلتِ هل ساقني القدر لأموت هنا؟ غريبة في أرض غريبة؟ ستعرفين وقتها المعنى الحقيقي لكلمة رعب، قال من الطبيعي جدًّا أن تُستهدف سيارة بعينها من دون سبب لمجرد أن شيطانهم أمرهم.

التقيت قبل رحيلي بأم الطفل فادي العجل وأم الطفل أحمد أبو رداحة ،وروتا قصة قتلهما بدم بارد بقنبلة ناسفة وضعها جنود الاحتلال في المخيم، وكيف ظناها لعبة، فانفجرت بهما، وادعت قوات الاحتلال فيما بعد أنهما زرعا عبوة ناسفة .كان تحقيقًا إنسانيا يترك أثرا بالنفس، شيء خفي يعجز عن البكاء لكنه يأخذ بالتلابيب، فلا تملك غير أن تحلم لهم بقيامة جديدة تناسب صمودهم، تلائم انتظارهم الطويل، ويظل يزعجك هذا الهاجس، فالشهداء أبدا لن يكونوا وقتها هناك ، لم أجد مايماثل تلك الحالة، أعادت بعض التوازن لي، وربما بعدها بأيام لم أخفِ شعورا بالفقد ظل يلازمني.

تفقدت ما أهدينني من ثياب مدهشة وقطع مطرزة ردتني لمفرش أمي بفراشاته الزرقاء، أهدينني أيضا زيتونا وخبزا وأوراق زعتر خضراء وأخر يابسة، لكن الأكثر من ذلك تركن وجوها يتخللها التاريخ بوشومه ورؤوسا اكتست بالشيب ،ولم أجد غضاضة في تقبيلها وحكايات كثيرة وصورًا لأعزاء على الجدر وفارقوا.. بعدها كتبت مقالا عن الحدود بعنوان"مسافات مقبضة " لم يكن أمامي بعد أن عدت خيارا آخر غير أن أذوب بحوض الماء كفقاعة أو أنزوي بأحد دفاتري، تمنيت لو أختفي بأحد جيوب معطف المطر فلا يراني أحد، أغلقت هاتفي وعطلت ساعات البيت، أوصدت الباب، جلست خلف مكتبي أحتسي القهوة، أمسكت بقلمي لأكتب عن مسافاتنا المقبضة، تلك التي لا تتسع لأكثر من خطوة، ربما لو اتخذتها لانفجر لغم بك، أو لعلقت بشرك .

مساء لذت بغرفتي فجافاني النوم، ظللت أحايل أرقي، وأقطع المكان جيئة وذهابا، فتحت النافذة لأشاهد الشارع الممتد وقد خلا من الناس وأعمدة المحال ،وقد خلت من العوارض والقواطع الخشبية . لم يعد يبدد السكون غير مواء القطط و نباح الكلاب، نسمة باردة تسللت خلسة فاقشعر جلدي، أغلقت النافذة منتظرة ولوج الصباح، تقت لمكالمة اعتدتها منها بجوف الليل لتخبرني أننا في الليل شريكتان .غياب غيداء ضاعف وحدتي، مكالماتها الأخيرة أفصحت عن سوء أحوالها، كانت أمها تمر بأسوأ مراحل المرض ، وساعاتها تنفد تباعا، ضاعف خروجها المؤقت من الصورة من إحساس متنام بالفراغ برغم انهماكي

بالعمل، وأصبحت نوبات الصداع تلازمني كقرينٍ، وأصبحت كغريق يستجير بآخر الأنفاس .كل ما أفعله يزيد ارتباكي، أفتقد أشياء لا أعرفها، وحين أعجز عن إيجادها أتناول السوشي، أحتسي الشيكولاتة الساخنة وأظل غير راضية، يجافيني النوم فأشاهد فيلما بالتلفاز ويزداد الأرق، أشتاق للقراءة فأطالع "أنا لست لي لدرويش" ويغتالني الشجن، أزهق أنفاس وحشتي بالناس والشارع ؛فتسحقني دوائرهم المشتعلة لتلتهم دائرتي المنهكة، توتر غريب يشبه موجة تحت سطح خامل، تتوالى الترددات وكأنها تمهد لبركان، تبدأ برعدة تكاد لا تحس وتنتهي بتنهيدةُ ضجرٍ طويلةٍ، أقفز على إثرها من الفراش إلى المرآة. أتجاوز كل ما بينهما، أنزع دبابيس الشعر، أتركه بشكل عبثي، أضع كثيرا من الكحل وطلاء الشفاه.. أتعطر.. أدير مؤشر الراديو.. أشاركني مرحا مرهقا لا يناسب حالتي.

*****

ربما تكون هي، ربما تشبهها، دققت النظر.. نقرت زجاج السيارة بإلحاح..كأنني أعرفها، بشرتها السمراء وعينيها اللامعتين، مدت يدها وكانت تقبض على روشتة زرقاء مهلهلة كالتي يتداولنها في مواقف السيارات والإشارات، في العادة أمنح مثيلاتها ابتسامةً وورقة نقدية، وربما ما تبقى من ساندوتش الغداء؛ لكن معها الأمر مختلف، ترجلت من السيارة، انفرجت شفتاي عن ابتسامة ..

obeikandl.com

. مريم .. أنت مريم؟ !

حين تأكدت مني كادت تهرول، لولا زحام الإشارة لانسابت بين السيارات، قبضت على ذراعها فالتفتت وبوجهها ظهرت مسحة حزن.. تراجعت نصف خطوة للوراء بينما ترفع بصرها نحوي، فكرت لحظة قبل أن ترد " أيوه.. أنا " راحت تنفض الغبار عن ثيابها، وتضبط منديل الرأس بارتباك ..

. كنت حاسة أني هاشوفك، قلبي دليلي .

ضممتها، لم يثنني اتساخها ولا الندبة الغائرة فوق الجبين، تعالى نفير السيارات معلنا فتح الإشارة بينما الجميع يحدقون بنا، فتحت الباب بتردد، واندفعت للداخل.. تعمدت أن تفقد تواصلا بيننا، أشاحت بوجهها خارج النافذة، هبط على قلبي حزن مفاجئ، سرحت ببصري لحظة قبل أن أقول لها :

. تعالي معايا، متخافيش .

تفرست بي وكأنها تتعمد أن تذكرني بما حدث، خلتها تقول أنا مريم.. كنت ابنة سعيد قبل سنوات.. والآن ابنة الشارع فحسب، سادت لحظات صمت ثقيلة، تذكرت القصة التي أهديتها لها قبل سنوات عن ذئب يتربص بثلاثة حملان ..اعتقدتها تعرف الآن عن عالم الذئاب ما يكفي لملء ثلاثين كتابا، قررت أن أضمها لنادي لاجئي الوجع.. وكأن

شقة روكسي ملاذًا لكل مساكين الأرض، هكذا يحدث الأمر طِبْقَ تسلسل منطقي..وجبة ساخنة..حمام منعش وبعض ساعات من النومِ المريحِ، لا بأس بقدر متزن من الثقة كرغبة في الانتصار للإنسانية على كافة المبررات الواهية والأنانية الوضيعة.

لمحت اشتعال عينيها بالفضول برغم تحفظها ؛فاستبدت بي طاقة غريبة لم آلفها من زمن جعلتني أصر على ما انتويت، ظلت طيلة الطريق لا تبادلني النظرة، مطت شفتيها وزمتها بخجل، سعلت أكثر من مرة ولم يكن لوجهها أي انفعال، لا ملامح مميزة كالتي عرفتها في السابق، ثمَّ شيء ثقيل جعلها تبدو كدميةٍ بمتحفِ شمع، قرأت تفاصيل وجهها المنهك بلا أحلام ولا رخصة لممارسة النوم بلا أرق ولا كوابيس، حين وصلنا توقفت بالمدخل.. تأملت غرفة السلم.. تحسست الباب، تسللت أصابعها لبقعة محددة بالجدار، كانت رسمة مصغرة لرجل تجاوره طفلة بجديلة.. حين اقتربت لأتفقد الرسمة.. رفعت أصابعها عن الجدار وبكت، سبقتها للسلم، تسحبت خلفي، دخلت الشقة مرتبكة بعد أن خلعت الحذاء، جلست على حرف الكرسي مشبوكة اليدين، تبادلنا حديثا ذوب من ضيق اللحظات، ارتسمت على ملامحها ابتسامة، تركتها لبعض الوقت، عدت لأمنحها طاقمَ نومٍ قطني وفستانًا وحذاءً رياضيًا مسطحًا، رغَّبْتُها في الاستحمام؛ فغابت قرابة نصف ساعة وخرجت وقد بدت على وجهها وشعرها ويديها وساقيها آثار الاغتسال، كانت نظيفة بعطر فواح .

طلبتُ لنا وجبة... التهمت نصيبها منها على عجل وتركت لها نصيبي، أوحى تعبير وجهها بعدم اكتراث فبداخلها جوع للحياة أكبر من ضجيج معدتها الفارغة. لمع بمقلتيها فرحٌ بينما تقطعان أرجاء الصالة لتتعلقا بالشرفة. تسللت وانزرعت وسط النباتات لتتشمم عطر الياسمين، بدت كقطة تلتقط بالغريزة عالما تعرفه. استكانت ككائن بري حذر يترقب شركًا لصياد. حكت عن أشياء توقعتها. طمأنتها بأنني أعرف وأدرك وأصدق وأتعاطف: فلا تظنني كائنًا غافلًا عن عذابات الحياة. منحتها ورقة وقلمًا وتركتها ترسم أحلامها فرسمت طائرًا بالسماء وقطةً ورغيفًا مستديرا .أوحى الفرح المستتر الذي لف المكان بأن به ما يستحق التصوير.. اتخذت أوضاع كثيرة، عبست، قطبت حاجبيها، مدت لسانها، انفرجت شفتاها عن ابتسامات مدهشة، تربعت، تمطت، استكانت..قضت ساعة أمام التلفاز ..بالنهاية احتضنت الوسادة وظلت لوقت تقاوم النعاس، دعوتها لتنام بجواري فجاءت متباطئة. مددت يدي ومسدت شعرها فأطرقت بخجل. كان وجهها باردًا تماما كجسدها. جذبت عليها الغطاء؛ فاطمأنت وظلت عيناها تراوغ. حدثتني عن صويحباتها في الشارع وعن مناطق النفوذ لقطيع الذكور. حكت عن جنين فقدته منذ عام، وعن مضاجعةٍ ليليةٍ تهبها طواعية لمن يضمن لها ليلة هادئة بلا اعتداء جنسي عنيف. قالت إن لقاءها بهم يختلف عن لقاء صهر ابن الوزير؛ لقاء حبيبين افتقدا الجنس لسنوات. لم تعد تستطيع العيش سوى في الشارع. قضت أكثر من شتاء بعربة قديمة لقطار. بدت السماء من النافذة أرحب بكثير..

بكثير جدا، تروقها فكرة النوافذ المفتوحة مساء لطرد الأشباح القديمة، تستسلم حينها لرغبة تدفع عنها البرد وتقودها للنوم حتى الصباح.

غفوتُ بينما نتكلم وأفقتُ بعد ساعة لأجدها مضجعة على جانبها بجوار الفراش غارقة في النوم .. في تلك الليلة نمت نوما عميقا بعد أن أغلقت هاتفي المحمول ورفعت سماعة الهاتف الأرضي . أكثر ما آلمني حين استيقظت ذهابها بلا وداع، واختفاء قرط أمي ؛وكنت احتفظت به بركنٍ بدولاب ملابسي، لماذا اضطرت أن تفعل ذلك، وكنت سأهديها خاتمًا في الصباح! اختلط ذهولي بإدراكي الساخر لطبيعة البشر، وأزمات الثقة فهكذا دائمًا تنتهي الأشياء. ارتسمت بوجهي بسمةٌ واسعةٌ، ولا أدري لماذا قررت القيام برحلة لأى مدينة ساحلية لأنفرد بنفسي بعيدًا عن الكتابة والناس وعن كل شيء .

صباحا انفعل ناصر، ونعتني بالمجنونة حين أخبرته عن السرقة، وأسمعني ما كنت في غنى عنه من تأنيب، ذكَّرني بالمصير الأسوأ الذي غالبا تتلقاه مثيلاتي من حسناتِ النيةِ في حال قررت صديقتي من الشارع نحر عنقي أثناء النوم؛ ازددت ارتباكًا لكنني زجرته حين قرر اصطحابي لقسم الشرطة لتحرير محضر بالواقعة، وحين فشل في إقناعي أمرني باتخاذ كل التدابير اللازمة لتأمين الشقة، لجزء من الثانية انتابني القلق، ولكنني بالنهاية قررت الكتابة عنها من دون ذكر حادث السرقة، والاكتفاء بالإشارة لها بأول حرفين من اسمها (م ، س

). وكما وعدتها بنشر لوحتها حتما كنت سأفعل، اخترت عنوانًا لطيفًا للمقال وكان "قطةٌ ورغيفٌ ." دعوت الله أن ألتقيها من جديد لمنحها نسخة تحتوي صورها الفوتوغرافية و رسومها علّها تبتهج .

بنهاية اليوم قدمت طلب إجازة لأسبوع، آملت الذهاب لمدينة توطنَها النوارس وشباك الصيد، لم أرغب بغطسةٍ عميقةٍ لاصطياد لؤلؤة بحجمٍ نادرٍ؛ ولكن أكثر ما انساب لإحساسي رائحة اليود البعيدة ، وسماء قرمزية ،ومشهد كلاسيكي للموج ينشطر على الحافة، تعجبت لحقيقة أنني لم أصور مشهدًا للغروب بكورنيش الإسكندرية، وقبل أن أُحلق بخيالي للبعيد، فاجأتني دعوة ناصر لحفل بفيلته بالهرم على شرف صديقه المغترب، وبدء شراكة بينهما، ظل الحفل شاغلي الشاغل طيلة المساءِ بعد تفقد النوافذ وظل فستان السهرة الذي سأرتديه يومها لغزًا محيرًا .

تلك هي المرة الأولى التي أقترب فيها من عالم ناصر، بعيدًا عن المجلة والأوراق والصور ورنين الهاتف وعشرات التحقيقات، فريق عمل سبوت كان من بين الحضور لذا لم أجد أي صعوبة في التأقلم على المكان، شعرت ببعض الألفة وحين أمعنت النظر في المكان اكتشفت كم أن الفيلا رائعة، شغلت ربع المساحة تقريبًا واحتلت الحديقةُ الباقي منها، دققت بتلك الأجسام الفخارية المستديرة المتناثرة على العشب ومن تجاويفها انبعثت إضاءات غير مباشرة، رسمت انعكاسًا لطيفًا على الأرض الرطبة، كان لها تأثيرا فوضويا مبهجا على أشجار اليوكا

والأكاسيا، لم أشاهد مثل روعة تنسيقهم لأبصال الجلاديولس بألوانها المتعددة وعصفور الجنة ببرتقاليته الحادة، بلمسات دافئة اتشحت الطاولاتُ بأغطية حريرية أرجوانية، واستقرت فوقها كئوس من الكريستال- أعتقدها بطبيعة الحال سينييه -لأن بريقها كان مبهرًا، اجتذبني كل شئ منذ البداية حتى الشموع الزرقاء الضخمة توسطتها أناشيط معطرة، انطلقت موسيقى Yanni لتتداخل ومقطوعات Buddha barلتلف الأركان بدفء خالص.

أدهشني وجود شقراوات يرتدين فساتين موحدة بلون زهور اللافندر، ويقمن بتحية الضيوف بكئوس من المشروب أو بأطباق من الحلوى والمملحات منحت الحضور طاقة غير اعتيادية، ساد الحماس ودارت أحاديث كثيرة، أحاديث لا تنقطع عن كل شيء، اقتصاد، سياسة، جمل متشابهة عن الفقر والغلاء، واقع المثقفين، الحرب الباردة، نزاعات دول الجوار، أصغيت، استنفرت حواسي للرد، توقفت قدرتي على المتابعة وخذلني الاستيعاب، انتشرت سحب التبغ الكوبي، مرت كثيفة كعطور النساء، للمرة الأولى أسقط بكاملي داخل بهو المجتمع الأرستقراطي، هذا الكم الهائل من رجال السياسة والاقتصاديين، فنانين ورجال أعمال، سيدات عاريات النهود ومنفتحات. أحاديث منمقة، أنوف مرفوعة للسماء وأخرى تتشمم النبيذ، وقفت أتابعهم عن بعد.. فتح ناصر زجاجة ويسكي بلاك ليبل وناولني كأسا، رفضت يده الممدودة فاحتساه ضاحكا..بدا الأمر عاديا جدًّا هنا لدرجة أن أعاد لخيالي بعض المشاهد المماثلة على شاشة التلفاز.

تسللت للبوفيه بنهاية الحديقة لشعوري بالعطش الشديد. كان الكل مشغولا بالكل، وحين منحني ياسين لثغته المميزة قمت بتحيته عن بعد لتجنبه بقية الأمسية. امتد البوفيه لمسافة كبيرة، أغرتني كرات الفريرو روشيه المتناثرة بشكل عشوائي على الغطاء الأرجواني بطول الطاولات؛ فمددت يدي لإحداها، فضضت عنها غلافها الذهبي ووضعتها بفمي كاملة. وقبل أن تختفي تماما ممتزجة بدفء اللعاب، فاجأني صوته فندت عني شهقة لم يسمعها سوانا .

. أهلا. ااا .. .!...

واجهته مبهوتة مأخوذة الأنفاس وفمي مازال منكها بالشيكولاتة .

. أنتِ اا ... اتقابلنا عند ناصر من شهر تقريبا.. مش كده؟

. يمكن .

. لا. مش يمكن..أنا متأكد .

كان عطر الـ جاكومو قريبا لحد كبير، وبرغم التوكسيدو الملتصقة بتفاصيل جسده مازال وجهه ينفرج عن ابتسامة باردة حسبتنى رأيتها من قبل، هالني تحركه باتجاهي، كنا قريبين وربما تفصلنا خطوتان، أشار بيده لشفته السفلى فلم أفهم، ظل يحدق بي ويكرر حركته بإصرار شديد .

obeikandl.com

. هنا .. هنا .

لامس فمه بطرف سبابته ، أمجنون هو.! ما المفترض أن تعنيه تلك الإشارة ؟!...

. هنا لون بني .

. أدركت أنه يقصد الشيكولاته، دائما ما آكلها على عجل ؛ فتترك أثرا يفضح المحتوى، كنت خجلة، ناولني منديلا ورقيا، وظل يحدق بي.. أزلت ما علق بشفتي ..أدرت وجهي والتهمني الخجل، اقتربت من الطاولة أكثر وانشغلت بالبحث عن خليط سكري أرتشفه على مهل .

. جميل اللحن ده .

. مش قوي .

. أشك، مفيش اتنين ممكن يختلفوا عليه .

. بالعكس، ممل لأقصى درجة .

مشيتُ قليلا قبل أن ألتفت إليه وأكمل :

. مش بتفارقك الابتسامة دي ؟!.

obeikandl.com

. مضايقاكي للدرجة دي ؟!

كان اللحن لبودا شديد العذوبة وخاصة لنكهته الشرقية؛ لكني لم أوافقه، بل تحفزت للرد متخذة قناعًا باردًا؛ فلعبة الانفصام دائما تجدي، بادلته نظرة غير مكترثة وقلت :

. مش مهم .. كل واحد حر .

. بالتأكيد.. تعرفي يا آنسة اا... جورية ، فستانك جميل؛ بس لون أحمر شفايفك باهت، محتاجة لون أكثر جرأة يناسب فستانك الأسود .. بجد ذوقك رائع ..الدانتيل مثير.. يمكن كمان بتشبهي نجمات السينما..

صمت قليلا وأردف بشيء من السخرية :

. إلى حد ما ... مش قوي

ابتسم ابتسامة اعتقدت لها معنى آخر غير الذي احتوته كلماته؛ انزعجت .. تراه يسخر فعلا أم أنه يحاول إثارة فضولي.. وربما كلاهما !.

. لون مكياجي مناسب لبشرتي وفي كل الأحوال، و بكل صراحة أنا مش مهتمة أبدا بكل اللي قلته .

. أكيد ردك سخيف .

. تمام زي ابتسامتك .

قلب شفتيه محاولا إبداء امتعاض، لكنه أحالهما لابتسامة عريضة، وفي تلك المرة تأكدت أنني أسبر أغوار عينيه برغم ما بدا بيننا من تحفز .

. صدقيني، روحك أجمل بكثير من إنك تسجنيها بمشهد ردئ بفيلم كلاسيكي ممل .

قالها وتركني أفكر في المعنى الأبعد من ظاهر كلماته . قضيت ليلة مشحونة أحاول فيها أن أفهم لمَ كنت تلك السخافة معك ؟ كيف سيكون الصباح وأنت رئيسي بالعمل؟ قلت لي ذات مرة : إنني أنثى الكهف التي تنتظر رجلها ليحملها فوق ظهره ليعبر بها الوديان، وليقاوما التصحر معا ببضع آلاف من القبلات، وجدته تشبيهًا غريبًا لكنني حين قرأت كتابك "سيلينا" أدركت أنك تفتش عن أنثى مثلها، وحين صارحتك برأيي قلت ضاحكًا :. هاتصدقي لو قلت إني كتبت مجموعات كاملة عن "سيلينا " ومن غير فايدة !.

لم أتخيل إلا أن يجمعنا مشهد بين الجدران الرمادية، النوافذ المغلقة دوما لتجنب العادم، جهاز التكييف الممعن في البرودة، مئات الأوراق والبروفات، عشرات الصور المرفقة مع التقارير، قلم يتطلع بحيادية للمواضيع المفترشة طاولة الاجتماعات، كل الهمهمات الجانبية، أصوات النقاش الحاد أحيانا والمفعم بالفهم كثيرا، وفي خضم ذلك

كله أتأمل خطوط وجهك، وأتساءل ما الذي تخفيه أعوامك؟ ما الذي يتوسد عقلك؟ أدقق النظر في شعرك الأبيض، أتطلع إلى حركة أصابعك حين تتوتر، وحين يزداد الإيقاع تلجئ ظهرك للمقعد، تلتقط نفسًا عميقًا وتنقر الطاولة، كنت أتخذ آخر مقعد لأنفرد بمشاهدة تمتع داخلي ولا يحاصرني تلصص أعينهم والسأم .

ـ جورية، إيه اقتراحك بالنسبة للي ناقشناه حالا؟

ـ اااا ..

ـ ما سمعتش اقتراحك بخصوص ملحق العدد .

ـ اااا .. انا اا ....

كنت غير منتبهة وكان يتحين الفرصة، تماما كحالي مع مدرس اللغة الفرنسية بالمدرسة، يتصيد انشغالي فيحرجني أمام البنات، لم أدرِ كيف استطاع بكل تركيز اقتناص لحظة حاسمة ليفاجئني بسؤال أو حتى ملاحظة، وكثيرًا بعض العبارات التي تحمل نوعًا من التأنيب، حينها وكما دائما، ألتف حول نفسي وأنسج جدارًا نفسيًا عازلًا، وأبتلع الدموع قبل انهمارها فلا يهنأ بانتصار، لم أظنه غير ضعف لا يليق، هيأت لنفسي سلاما نفسيا غرقت فيه حتى أذني فلا يزعجني غروره، وحتى أن وجود ناصر بألمانيا منعني من شكايته، كان علي أن أتقبل الأمر فلخالد نسبة ٤٩% من سبوت، ويشغل الآن منصب نائب رئيس

Obeikandl.com

التحرير ، ولست سوى إحدى المرءوسات، ليت له نصف كياسة ناصر، رجل خفيف الظل، مهذب ولبق، مميز في أمور كثيرة، لم يغب عن خيالي حفل فيلا الهرم، ولا كيف استقبلني بحفاوة، كانت المرة الأولى التي ألتقي فيها بـ داليا، لم تمل ذراعه التي أحاطت خصرها بشغف، ولا قبلاته التي غازلت وجهها طيلة المساء، مازحته يومها قائله:

ـ touch the wood .

.ده العادي ياجوري .

. خافوا من الحسد .

. المنطق سجن كئيب.. حرري روحك هاتكوني أجمل بكتير.

لفني شعور غريب بأن ثم عالم لا أعرفه يفتح بابا لي، قلت ضاحكة :

. الجنون هو عين العقل في نظرك؟ !

. في الحياة حاجات تستحق . صدقيني.

قالها وابتسم ابتسامة كشفت نصوع أسنانه . لكن. هل كنت أعنيها حين قلتها أم أن غبائي يأبى إلا أن يظهر من جديد؟! أيقنت يومها أن عطشي الدائم كان يلاحقهما أينما ذهبا، وما زال يلهث خلف وهم

الارتواء، لكنه يرفض كل ما هو استمتاع خاطف، وهاهي الصدفة تشكل جداريتنا معا، لكن أكثر ما أخافني، الهدوء الذي تدعيه، خاصة حين تتعامل بثقة مع قاربنا المتأرجح بلجة بحر هائج، والثغور تملأ قاعه، ولازلت بثقة تنفث دخان سيجارك الكوبي برغم ضياع فرص النجاة، فالماء ينفذ والقارب يميل، وأناعاجزة أرقبك تفتش عن شيءٍ طافٍ نتعلق به؛ فينجو ما افترضناه حصننا الآمن وننجو معه.

*****

ينتهي العمل بالمجلة في السادسة مساء. تختلف ملامحنا بنهاية اليوم، تتشح قدرًا من البؤس ،وتستكين بالأنسجة بعض الظلال المرهقة، حتى وقع أقدامنا يتثاقل كلما مرت ساعة تلو أخرى، قرقرات أمعائنا حنينًا لوجبة ساخنة، وفراش دافئ وبعض الكاكاو، واغفاءة ربما لا تقربها الأحلام، لكنه الشتاء، كان خالد آخر من يغادر، يتصادف أحيانا أن يجمعنا المصعد فيتقدمني للباب مبتسما، يصبح النظر إليه مغامرة يدفعني الحذر لتجنبها، ومع ذلك كلما مددت نظري وجدته بكامل أناقته، أزياؤه الرمادية والسوداء تطلق زخات عطوره، حذاؤه الكلاسيكي يغازل الأرض بشغف، وها أنا ذا عالقة بين السماء والأرض مستسلمة لجاذبيتين على قدر كبير من التناقض، تولدت شرارة البطولة بداخلي فاستدعيت طاقة هائلة لتدفعني للثبات عكس المدارات السحيقة لجاذبيته، وأشحت بوجهي للبعيد، حرارة جسدي تتسرب مني رويدا.. احتضنت حقيبتي ،وأرسلتنى للاشيء وأخيرًا توقف

المصعد .سبقني للمغادرة، تبعته متباطئة، اتجه لل .. Jeep وكانت ال Fiatعلى مسافة أمتار، لكن محركها أبى أن يدور، حاولت إنعاشه من دون جدوى، عيناي مثبتتان بها والبرودة ملتصقة بي، لكن إصرار المحرك ألا يتنفس قادني للجنون، سرت بي لفحة ساخنة، كان بالجهة المقابلة يجلس بالسيارة مطفئا كل الأنوار، ويدخن سيجاره على مهل، شغلني سؤال لحوح، لو أن رجلا غيره بالمكان ماذا تراه ليفعل ؟ !

. ما تحاوليش .

جاءني صوته عن بعد، اخترقني ككرة لهب ذوبت ارتجافي ..

. نعم ؟ !

ترجل من السيارة وسار باتجاهي، نقرات الحذاء على الأسفلت بددت الوحشة .

. ممكن أشوفها بس صدقيني من غير فايدة.. يعني تعب عالفاضي.. سيبيها للصبح وهاوصلك لأي مكان .

. فعلا مش هاتدور.؟ !

. هاجرب عشان تتأكدي .

obeikandl.com

ترجلت وحل مكاني، كان غريبا بالفيات، لم يبدُ متوافقا وبساطتها، غاب بمحاولاته إنعاش الموتور، لم ألتقط وهج عينيه سوى مرتين، تعبت من الوقوف فجلست فوق السلم الرخامي بواجهة باب المجلة، كان باردًا جدًا، طوقتني البرودة من كل اتجاه ولا زال يحاول، احتضنت الحقيبة وقمت لأتجه إليه.

. هاخد تاكسي.

. باحبها لاتيه ، وأنتِ ؟ !

تساءلت بسري مالها تلك الليلة لا تمر.! تسللت للداخل، أغلق الباب خلفي، قاد بنا فاتسعت نافذة الرؤية لكل شيء، المارة، أعمدة الإضاءة، الشوارع الجانبية، لافتات المحال، الليل والبرودة، ونافذة قلب شغوف تقاوم الصحو، رغم تضارب مشاعري ظل جزء مني يرفض ما يحدث والآخر يدفعه لالتقاط الأنفاس، حاول استدراجي لمنطقة من الكلام فهززت رأسي، لكنني بعالم من الغيم، أتلمس الطريق بين غيمة وأخرى بحذر. شيء فيه يسكنني .. يشطرني.. يمتصني وبثوان يعيدني إلى حيث كنت بالمقعد إلى جانبه، أثارتني النقلة المذهلة، الوجه الآخر لحوارنا، امتلكت كل التركيز لأدرك الفرق بين ما كنا فيه وما نحن عليه، صارحني بأنه كلما قابل "ناصر" سأله عن صديقته العصبية "أبله الناظرة"، ابتسمت حين قال ذلك وانتابني الخجل.

بـ "الخان" احتسينا القهوة، مضت ساعة حاول فيها أن يقنعني أنني لست تلك المرأة التي تدعي القوة ،ويسألني لماذا اخترت صورة باهتة لامرأة متنمرة برغم حضوري الشديد، لماذا أخفي ذاك الشعور بالدفء الذي يغمرني، وأمنح الأخرى بداخلي صورة باردة ؟ عندما سألته عن سر ذاك الانطباع قال: إنها كلماتي القصيرة بمقدمة كل مقال ؛وكأنني بلا قصد أسرب إحساسًا ما، أجرد نفسي من اعتراف وأفرغ أسراري على الورق، ابتسمت.. قلت له أن عباراته المغلفة بسخرية كانت السبب في أن أعيد قراءة رواية "هاجس" لميريام الكاشف اندهش لكونه محركا لعالمي من دون قصد، اعتذر عن طريقته وعن ابتسامته التي كانت سببًا في الخلاف، تنفست بعمق ؛وكأنني ألفظ للعالم كل أوجاعي.

كانت الألفة التي غلفت ليلتنا دليلي بأن حكايتنا توشك على البدء، تكلم كثيرا، تخفف من أحماله، حكى عن أماكن أحبها.. التحرير وشارع القصر العيني..القاهرة القديمة وحواريها الضيقة، مئذنة الحسين، زهرة البستان،ريش والتكعيبة، حكى عن صوت فيروز في المساء، عن الورق الأصفر لمصحف أمه، شاطئ جليم وآيس كريم نص الليل، عن عطر يقص حكاية صوفي مدرسة الموسيقى بمدرسة تواجه بيتهم .. استعرض بعض صور الأصدقاء، حكى عن خادمة الجيران الفلبينية، وقبلة مجنونة بالمصعد، كان مجرد مراهق يختبر ذكورته، حكى عن دراجته النارية، وقصيدة كتبها عن بنت بجونلة " فوشيا" ونهدين من

زجاج، تحولاته مربكة، مراهق جامح ثم فتى حالم ثم بالنهاية ناضج يجيد التعاطف.

كان من غطى تفجير برجي مركز التجارة العالمي، وكانت "لورا" إحدى الناجيات لمغادرتها المكان بفارق دقائق. التقطَت صورًا للمبنى قبل انهياره كليًا بعدها أصابتها حالة هيستيريا، أما هو فقد تواجد بالمكان على مقربة منها وهناك كان التعارف . تقمص نبرة جادة عندما تكلم عنها، سرعان ما اختفت عندما تحدث عن طفلتيه لتصبح أكثر ألفة وحميمية، لم يكن في حاجة لأن يثبت أي شئ ببساطة لأننا اتفقنا أن ننزع الأقنعة . كنت أخرج الأسئلة تباعًا، وربما دفعة واحدة بينما تتداعى إجاباتي مرهقة بقليل من أسئلته، لم نفقد رغبة في التواصل وهذا كل ما في الأمر، مرة بعد مرة أدركت أنه في زمن ما بمكان ما اضطر للتواجد، وأنه بكل بساطة لم يكن يحبها، وربما لم يحبها بقدر حبها له .

. محتاج أعرف عنك أكتر.. مش عاوزه تحكي؟

أتبع جملته بدعوة على عشاء بـ كاليجولا، طيلة الطريق كنت أفكر كيف ستكون أمسية للمكاشفة، وقبل أن تتوتر كل خلية بي واجهت نفسي بأهمية وجوده بحياتي، وضرورة إزاحة كل ما يمكن أن يستثنيه . لم أستطع النوم بتلك الليلة، كنت أقرأ لها وأخط وأعاود القراءة وأضحك ويفاجئني البكاء، كيف استطاعت أن تترجم حالي بتلك

العبقرية ،ولم يخنها التعبير !لكم ألجمت شوقي لبزوغ النهار حتى جاءني رنينه صباحًا يخبرني بأنه لم ينم؛ تعلل بقهوة المساء، سألني إن كنت استطعت النوم، أجبت بدون تفكير : بعمق كما لم يحدث من قبل، ضحك فتسرب لداخلي شعور بالدفء، أحب حين يحدث ذلك فيكاد قلبي يقفز من بين ضلوعي، يشتهي نافذة رحبة تطل على العمر الجميل، هو من قال مرة " إنه ليس هذا الرجل المبرمج المعلوماتي وإن بداخل صدره كتلة حمراء تنبض باشتعال" .. وقلت حينها: " إن الجميلات لا يبحن بكل أسرارهن وإن الاعتراف بالحب أول علامات الهزيمة" . لكن شيئا ما دفعني للتعرف إلى ملامح جديدة تسكن روحي، وكأنني عرفتني فقط بالأمس، تسللت إلى قلب الموجة عمدًا، شعورٌ غامضٌ يلف إرادتي، وكأنني وجدت أخيرًا ما كنت أبحث عنه.

*****

ب"كاليجولا" لم أخف مشاعري، كانت ليلة دافئة، وعيناي لم تبرحا وجهه، له نظرة بعمق الكون، تهديك مساحات للركض الآمن من دون احتمال للتعثر .

. خالد فعلا جميل، كاسم أقصد ...

. فعلا !.

. فعلا، أو زياد .

. ليه زياد؟ !

. بحب الاسم ده.

. اسمك دافي يا جورية، سمعتهم بيقولوا جوري.

. جوري الأقرب لي.

. في سبب محدد للتسمية؟

. يمكن يكون مش لطيف.

. لو حبيتي تقولي أنا سامعك.

. جورية هي الوردة الزهرية، ولون الشمس ساعة الغروب لاختلاط لونها بحمرة الشفق.

نظر لي بابتسامةٍ متسعةٍ يشوبها بعض الفضول:

. أنا مش مندهش من الاسم ببساطة لأنه دافئ وحنون، جميل أني توقعت، بس فين المشكلة هنا؟ !يمكن تكون في اللي اختاره مثلا !- قالها ضاحكا- وأردف:

. آسف للتطفل.

obeikandl.com

. لا أبدًا، كان اسم حبيبة والدي في وقت من الأوقات.

. متوقع النتيجة.

. دايما في حد لازم يدفع التمن، مع إن علاقتنا بالحياة مجرد علاقة افتراضية زي اللي بتربطنا بناس من ورا شاشة، ده حتى النفس اللي بناخده مجرد أمانة في يوم هاترجع.

. دي فلسفة.

. ده مجرد رأي.. جميلة مراتك على فكرة..

. تعرفي إن لورا نص أمريكية ونص إيطالية، الإيطاليات فيهن دفء تمام زي المصريات، أجمل ما فيها أنها بتستخدم إيديها وهي بتتكلم فتحسيها مننا، نبرة صوتها جميلة بتفكرني بنبرة جيسي نورمان، ورغم كل الجمال ده مش سعيدة، ماضيها خانقها.

تعجبت للحظة تلتقي فيها جزيئات صغيرة تحمل قدرًا من التشابه في كون شاسع، لم أتصور الحياة بتلك الدقة، فكما لم أنس أبدًا أمي لم تنس "لورا" أمها، وكانت تعاقب أباها كجلاد لمجرد أنه أخفى عنها حقيقة هجرها لهما لعشرين عاما كاملة مشيحًا بوجهه عنها عبوسًا كئيبًا صامتًا، كانت تكرهها ،وتتمنى لو أنها واجهتها بجرمها.. فبرودة لياليها الفارغة منها و الحساء البارد دومًا، وحبات البازلاء الصغيرة

المتناثرة تحت المنضدة حين سقط الطبق محطمًا قطعًا، أكبرها بحجم خيبتها فيها وأصغرها بحجم قلبها المتهالك وجعا، لم يجعلها كل ذلك تنسى كيف كانت تلتقطها بأصبعها الصغير ثم تعود تلقيها؛ فربما تعود من غابت فتجمعها وتنظف فوضاها فيعود البريق. حين ماتت وجدته يبكيها كطفل يتجرد من جبروت، سألته ما الداعي للبكاء إن كانت من اختارت أن تلقننا أول دروس الهجران وجفاف الذكريات؛ قال : كانت دوما ترغب بالعودة لأجلكِ فقط وليس لأجل خاطري .

جذبتني الحكاية، ومسحة الحزن المرسومة على وجهه، بدأ يهاجمني فوران المعدة لمجرد أن تسربت الحكايات المخبوءة من بطن الذاكرة .

. قبل لورا كنت على علاقة ببنت أسيوية، استمرت سنة تقريبا؛ برغم أنني ما كنتش حابب ده، كانت معلبات السوشي و لفائف ال سبرينج رولز تقريبا الرابط الوحيد بيننا، يضايقك لو قلتلك إني كنت... صمت لبرهة ثم قال ...

. كنوع من الواجب ليس إلا، مش من اللائق ترفض صديقتك لو استدرجتك لعلاقة، في الغربة بتعملي حاجات تندهشي من نفسك بعدها، يمكن الميزة الوحيدة فيها إنها كانت منظمة جدا وواضحة أكتر من اللازم، بسهولة أنهت العلاقة لمجرد أنها زهقت، وببساطة لمت حاجتها وباستني بوسة عميقة وصديقها الجديد على الباب منتظر ..

قاطعته مستسلمة لصخب مشاعري، ومن جديد انتابني الغثيان ،فبتلك اللحظة اكتشفت انني لا أملك ترف الاعتراف بأن فصولنا لم تكن متشابهة السواد.

. حاسة طفولتك هادية، مش متخيلاك زينا معرفش ليه.. يمكن هدوءك السبب؟!

. مش للدرجة دي صدقيني .. قالها ضاحكا ثم أردف :اتولدت أكتوبر ٦٢، وبعدها بأقل من عشرين يوم مات والدي في حادثة.. كان ضابط بسلاح المهندسين وراجع إجازة، مش هاقدر أقولك عن مشاعر طفل افتقد طول الوقت ضمة قوية تمس ضلوعه فمعرفش يحس الأمان، كنت ولد شاطر مش عشان حابب ده؛ إنما عشان الناظر ما يستدعيش أمي فتحس إنها قصرت في تربيتي، تقريبا ما لعبتش زي باقي الولاد اللي في سني ،ويمكن ما صاحبتش بنت، والفلبينية إياها، يمكن مكانتش أكتر من محاولة جريئة لكسر الرتابة ويمكن حلم باهت يشبه حفلة آخر السنة في المدرسة، وغالبا ما كنتش بشارك فيها عشان والدي مكانش هناك . يمكن المرة الوحيدة اللي سمحت لنفسي أكون بينهم لمحت دموع أمي من بعيد، كانت عصبية طول الوقت.. عصبية وحزينة.. ما عملتش شيء في حياتها غير أنها تربيني، صعب ست تكمل حياتها وحيدة لأكتر من ٣٠ سنة، وفي الآخر تلوميها لو يوم بكت.

. سألتني الصبح سؤال ومحتاجة أجاوب.

. سامعك .

. نفسي ما ارتبكش أو حتى أبطل أفكر في إجابة مختلفة لمجرد أنها ترضيك، باختصار اتفقنا نصارح بعض.. محتاجة بس شوية وقت لأن الرحلة دي فعلا مجهدة .

كان مندهشا من مقدمتي، متحفزًا لرد ربما بقرارة نفسه يتوقعه، لكنني حين هممت بالحكي اعتراني القلق، ابتلعت ريقي مغلفا بروائحهم ومنكهاتهم، زفرت زفرة حارة ودققت النظر لحركة أصابعه، يا رب كم باب يفتح على مصراعيه كلما ولجت ذاك الزقاق؛ لتفلت روائحُ وشخوصٌ، كل سخافات الماضي وأوجاع الخذلان تتجدد بلحظة، كل النوافذ التي أغلقتها تتفتح عن روائح عطنة كتاريخ تليد قابع تحت الركام .

بـ "كاليجولا" وعلى أنغام الماريمبا كان "دين مارتن يغني Sway"، وفي زاوية ما من العالم توجد امرأة تنتظر رجلها بكل شوق ، لا ليضمها كمحيط كسلان؛ لكن لتسأله عن رقصة مبتكرة، لن يتحدثا خلالها عن الأثر النفسي للحروب، لن تتطرق لقرارات منظمة العفو الدولية، فيسألها بدوره عن رأيها في آداء المنظمات الحقوقية، لن تحدثه عن أزمة كوسوفو، وأثر الاحتباس الحراري على الكرة الأرضية، لن يشغلهما توثيق "وكيلكس"، وبالتأكيد لن يتطرقا إلى أحب الألوان لكليهما أو عن المعنى الشجي للغروب؛ فقط سيكونان نفسيهما؛ لذا

وعلى طريقة عاشق بفيلم كلاسيكي، مد يديه برفق. دعاني لرقصة نتبادل من خلالها الأدوار، وليكن لنا مطلق الحرية أن نرفضنا أو نقبلنا، في كل الأحوال لن تكون محاكمة، بل مجرد تعرية، نبش بين الصخور، وهاهو رأسي يتوسد صدره، تتهادى خطواتنا، مستسلمين لجاذبية فك الرموز واستدعاء الصور المتوارية خلف الجدر، كنوع مبتكر من تنشيط الذاكرة.

وجدت بعض الصعوبة بينما أقص عليه ما اختبرته من رجال حياتي، تعثرت الحروف ؛وكأنها عار يصمم أن يحتجب. كانت حكاية متقطعة لملمتها بمعجزة، وصلته مفتتة كأحجية، لم يكن عليه سوى أن يربط بين الخيوط،و أن يصل بين بعض الأجزاء لتكتمل الصورة، أحيانا ما رغبتُ في التوقف، أو اللجوء لزقاق ما، لكنه كان يستمع بثبات. كبحر يتنفس بعمق، تورطت حتى أذني بالحكي، تملكتني رغبة مجنونة في الخلاص من أمس بغيض، صمته كان مربكًا، أدركتُ أنني أتعامل مع عقلية متفتحة وثقافة مزدوجة، وكل ما يعتنقه من مفاهيم منبعها وعيه بالضعف البشري، وفهمه للحاجة لمن يعبر معنا الأوجاع، ويحمل عنا أثقال العمر، كان يؤمن بذلك ،وكنت أؤمن بازدواجية المثقف وانفتاح المغترب، خشيت من حكم قاس مشمول بالنفاذ يوطد الألم ويعيد كشط السحجات؛ لكن عجبا!.. ما زلت أتابع.

كنغمة غير مألوفة بَدَونا بإيقاعنا المتناغم كغريقين يتماسكان، أي عاقل كان ليدرك أن ثمة انفصام بين ما نفعله وما نؤمن به، عين

الرحمة وقلب الجلاد، عاد يشغلني رد فعله عند اقتراب النهاية ،فسكت للحظة، أومأ لي لأكمل وعادت من جديد تطمئنني عيناه، كل الاحتمالات تقتات على راحتي، كنت بحاجة لاستكمال الرحلة الكشفية للتنقيب عني بين الركام، لأقاوم الخوف المتنامي من إفلات آخر الأشباح التي ربما تأكل سنابل القمح التي لم يلتهمها الإعصار، كل التفاصيل الدقيقة عن عالم لم يلجه ؛و إنما يتسلل خلسة من بين حروفي، وردود فعله الهادئة وصمته الطويل، يا رب متى يتوقف كل هذا؟ ليته ينهي ما بدأناه سويا، أو لينتصر لشرقيته فيطعن إثم أنوثتي أو لتتوقف رقصتنا للأبد.

مشتعلة كجمرةٍ تداعبها الريحُ، مارشات صخب تفتك بجمجمتي، الرحلة توشك أن تنتهي، وكلما عَلا الصخب كلما أدركت أن الصمت آت، ابتلعت ريقي ،وتنفست أخيرًا فشفتاه تحفزتا للكلام.

. ما كنتيش محتاجة تقولي كل ده.

. بالعكس، كنت محتاجة جدًا، كان لازم أتأكد إني قدرت أواجه خوفي من أني أتكلم، هي دي الحقيقة كان ماضي سخيف بكل ما فيه، وبرغم كل ده عديته .. خسرت كتير قليل مش مهم ، المهم إني قدرت.

. اكتبي عنهم، وقتها بس هاتنسي.. وهاتبطلي تلومي نفسك.. وهاتبطلي تفتكريهم عشان تعلقي عليهم شماعة إحباطك، مش بلومك ،على فكرة كلنا بشكل أو بآخر مازوخي بيستمتع بجلده لذاته.

- خالد، اا ...

- جوري، هاحكيلك حاجة عن أمي، بس اوعديني ما تضحكيش.

استعار كل شيء ليسرد حكاية ملؤها الحنين، أبدى براعة فائقة في ذكر كل تفصيلة. كانت حيلة تعلم بها أن يفرغ شحنة الغضب بداخله، ربما أدهشني أنها حيلة أمه، دخل عليها فزعًا غرفتها مرة بعد أن وصله صوت اختلاج أنفاسها، كانا وحيدين تماما بعد وفاة أبيه، فمن عساه يكون معها بجوف الليل؟ ظنه لصا، اندفع إليها وكان مجرد مراهق يحمل سكينا للدفاع عن أمه التي لا يعرف ماذا ألمَّ بها؛ كانت مهوشة الشعر حمراء الوجه بينما تكيل اللكمات لوسادة تتدلي من حبل بمنتصف السقف، كانت الوسادة تحمل أكثر من عشرين اسما دونتها بخط واضح، فكر ..ربما أصابتها لوثة، كزَّ على أسنانه، التصق بالجدار، تسمر بمكانه وأسقط السكين من كفه، منحته ابتسامة مطمئنة بينما تلهث، قال : كانت الأجمل برغم كل شيء، سألته عن سر الوسادة ، قال أنهما سمياها مجازًا " وسادة المُحبِطِين "إذ كان عليهما أن يكيلا اللكمات لهؤلاء طوال الوقت، فهم في سيرهم لا يتركون لنا سوى العثرات، ما كان منه يومها إلا أن التقط القلم ودون على الطرف الآخر من الوسادة اسمين، أحدهما لمدرس الفيزياء ؛وكان دائم التقريع له، والآخر لزميل فصل بدين يسلبه الساندويتشات؛ كان يعترضه يوميا.. يقف بطريقه ،ويطلب منه دفاتر الواجب لينهي فروضه ،وأحيانًا مصروفه ،ويتعلل بالحاجة، يحدق به طويلا بطريقة رجل

عصابة بفيلم كاوبوي، تضيق عيناه ويمد ذراعه لتجذب الحقيبة، يفتحها بتحدٍّ غريب، يأخذ ما طاب له أن يأخذ ويلقيها إلى الجانب ..

تبادلا ليلتها تسديد اللكمات للوسادة، فعلاها كل شهر غالبا حتى ماتت، بعد وفاتها تعلم التصويب، واكتشف أن الغرفة التي صوب فيها على الجدار، تحديدًا على الرقعة الجلدية المتداخلة الدوائر، حين يوجه للداخل بعمق فتسقط إحدى الخيبات، هي الغرفة ذاتها التي تتسلل لها العصافير، هي ذاتها التي كان يقرأ فيها الشعر ويصلي الفجر، اكتشف أن للشرفة روحا ،وحين يخرج يوميا لها مستقبلا الصباح تملأ الدهشةُ فمه بطعم حلو، يقينًا كان يدرك أن للشارعِ نافذةً وبابًا لم يفطن لهما العابرون . واجهتُ عينيه.. أعدت رأسي إلى حيث كان، قبلت كتفه من دون أن يشعر، جاءني صوته مفعما بالنضج :

. بطلي تعاقبي نفسك، لما تروحي مارسي حيلة المخدة لأسبوع .. صدقيني هاتفرق معاكي كتير .

هززت رأسي واستكنت، جزء من عقلي مازال يعمل كزنبرك لا يمل الامتلاء، تراه كان متفهما بالقدر الذي ظهر به؟ تراه كان مدركا لطبيعة الحال؟ ليت رأسي يتوقف عن الضجيج، تلومني التي تسكنني، لا تتوقف عن قرع رأسي.. عن جذبها حتى بعد أن اكتشفت أننا آخر من غادر، وأن المكان أصبح فارغًا إلا من خطواتنا، اصطحبني بسيارته،

obeikandi.com

وجهها بطريق مفتوح بعيد عن ضوضاء المدينة، قاومت إحساسا بالراحة يروح ويجيء، توقفت مؤقتًا عن التحليق لأبعد من تلك اللحظة، في الطريق كنت أتحاشى نظراته برغم أنني التقطت سهما يؤشر بالحب، ليته فقط لا يكون حلما، وبرغم ذلك مازال يطاردني السؤال نفسه، كيف سمحت له أن يتسلل؟ كل هذا العمر مر، وأنا أحافظ على بقايا كبرياء، كيف أتعرى بكل هذا اليسر ليقرأ داخلي؟!.. وكيف أخذلها حين صدقت كلماتها وآمنت بكل حرف فيها؟! فقصص الحب المرتبكة غالبا ما تترك خلفها خرابًا وإعاقات مزمنة، تبقى شعرة فاصلة بين الحياة والموت، بين الوهم واليقين، بين الصخب والسكون، بين كل شيء ونقيضه، كيف لمجنونة أن تترك لهارب هدم نصف عمرها لتظل النصف الآخر تبكيه؟..أكبر فاجعة عندما تدخل معركة نسيان ضد هارب ،أن تكتشف أن حواسك خذلتك، وأن عليك أن تخرج هذه الحمى من جسدك فتقول لا بملء الروح لهاتف يذكرك بصوته ،وقارورة عطر برائحته، ومساء بعيد بلمساته، وعطش أبدي بقبلاته، وقبضة يد بحضنه ،وتجعد منامته .

لسعتني البرودة كما سرقتني الأسئلة، قاومته ملتبسة مشاعري تجاهه، لم يعد يجدي ارتداء القناع مهما فعلت، لم يعد يجدي. كل تلك اللحظات بيننا تترجم لغة جديدة غير التي تعلمت حروفها في الزمن البعيد .. توقفت السيارة .. نظرت إليه بدهشة، وسألته من دون كلام .. كان صافيا تماما وهمس ..

. يمكن يكون حب كبير ...

. يمكن ...

. أكيد ...

. لو حصل حبني زي ما أنا ...

. مش عاوزك تتغيري ...

. اوعدني ...

. بحبِك ...

. بتقول إيه؟ ماسمعتش !..

. بحبِك ...

. حاسه بالأمان معاك، ومش عارفة السبب.. واحدة زيي صعب تحس ده .

. ماتكونيش قيد على مشاعرك .

obeikandl.com

ظلت هذه الجملة تطن في أذني، رافقتها ابتساماته، تركنا الطريق يقودنا إلى حيث يشاء، تحدثنا عن "سماء تمطر صدفا".. عنوان مقاله الجديد.. فجرًا جاءتني رسالة بالجوال، حوت كلمة واحدة، طالعتها مائة مرة، وكأنني ألتقط صوته من بين حروفها، خيل إلي أنني سمعت نبرته تطالبني بـ" تزوجيني ".

خفق قلبي، ارتعدت، وضعت الهاتف إلى جانبي، استلقيت فوق السرير في شرود، كان الأمر مربكا، والبنت ذات الوشم تطل من لوحة فوق الجدار، أمسكت الجوال ،واتصلت أكثر من مرة ،وفي كل مرة أغلق الهاتف قبل أن يكتمل الرقم، تساءلت : كيف يكون الأمر بتلك البساطة ؟!..وكأن العالم كله لم يحتشد لتلك اللحظة بطقس خاص، ما من أوركسترا تعزف الجمال النائم لتشايكوفسكي، ما من دو تتصاعد ركضًا لل سي، وما من إيقاع صاخب يصاحب رحلة صيد بدغل إفريقي تتوطنه الأفاعي وبنات آوى، ما من مشهدٍ معجزٍ لموجة رحيمة ترسلها ملائكة الرب لينجو صياد من موت حتمي، ليست حتى بتعقيد احتضان القمر الرقيق لأشعة الشمس الساخنة لحظة الكسوف، كانت أبسط من ذلك بكثير كاسترسال نسمة في البعيد .. أمسكت الجوال بكل حيرة، فعَّلت الرسائل ، وكتبت كلمة واحدة " ليه ؟!.. جاءت نغمة رسالة بعدها بثوان، كل مابي يسرع لانتهاك ستر الحروف، أجاب بجملة مقتضبة : "لأنها أنتِ ".

كنت سيلينا، سقطت تلك الحقيقة بقلبي كنجم الشمال يرشدني لعالمه، في كل ارتعاشة يمنحني دليلا إليه، في كل مرة أعود أكثر صخبا وجنونا به، فعالمه مفعم بكل الألوان. وكل ما فيه يكشف عن تلك الحقيقة .

*****

ليلة مختلفة.. ليست كليال أطبع فيها صورته كوشم أهبه من روحي يوميا ليكتمل، أخيرًا ضمنا بيت واحد، انصرف ناصر بصحبة الشاهد الثاني على عقد الزواج، البيت مضاء بكامله، النوافذ مفتوحة عن آخرها، رائحة العطر والبخور تملأ الجنبات بما يثير الخيال ويدغدغ الحواس، تفرقت باقات الزهر بالأركان وموسيقى الفرح لـ "كيني روجرز" تغزل شركا لائقا بالمساء. كنت وحيدة بالشرفة.. أفكر فيه، فيه وحده. اقتربت خطواته، أحاطني بكامل ذراعيه، أنفاسه لفحت عنقي، قبل كتفي العاري فالتفت لأواجه عينيه، بدت الإضاءة خافتة على وجهه..كان ناعما وناضجا ودافئا وهامسا ،وكل الأشياء المربكة التي لا تخطر على بال..

أردت أن أرسمه في تلك اللحظة، أردت أن أرسمه كمشعل للنار، كواهب للفرح الذي لا يشبهه فرح، أردت أن أرسمه لأوقن أن جنوني المطلق به هو العقل ذاته ،وإيماني بسواه هو الجنون، أردت أن أرسمه كبداية لخطة اقتحام محكمة، أتلصص فيها على وحدته. أفجرها كما

أفجر هواجسي.. أردت أن أرسمه لأنه متسرب بعمق إلى روحي، موغل في حد التعشق، أردت أن أرسمه لأنه البحر الجميل في صورة إنسي..

تشبثت كفيّ برخام السور البارد، كززت على شفتي وتسمرت كراقصة بالية تناست خطواتها على المسرح بليلة عرض رئيسي، تقافزت الصور الشهية والاشتهاء، كنا وحيدين تماما، لم يكن بالحفل ضيوف ينثرون الزهر ويرشقوننا بالأمنيات، لم يكن فرحا تطاردنا فيه البنات بفساتين السهرة الكاشفة عن سيقان جذابة، حتى أننا لم نجلس على الكرسيين الأماميين لنضحك كما لم نضحك، في الخلف لم تحسدنا امرأة ورجل قدرهما الفراق، النافذة المتسعة لم تتزين بعقود الضوء، ولم تتداخل بقضبانها الياسمينات... كنا فقط نتقاسم مشروبا ونقضم نصف تفاحة.

بالداخل اشتعل فستاني بغابة من لمساته، وبي رغبة موارة أن تترك الليلة أكثر من آهة مرسومة على وجه بعثرته القبل، رغبت بسيجارة لعل دخانها يحرر خواطري السجينة ، بدا مندهشا حينما تطلعت بوجهه بعينين حزينتين شاكرتين متفرستين. تمنيت أن أستعيد تلك الصغيرة قبل سنين، فتاة المدرسة بقميصها الأبيض وجونلتها الزرقاء جالسة على السلم تطالع مجلة الموضة في شغف، وددت لو أستعيد بكارتي ليكون مغامرتي الوحيدة، فأتجرد له ولأجله فقط أنزع أقنعة الرهبة والخوف، أركض عارية مني، فأهبه نفسي بالكامل، وددت لو أتدثر به فتهزمني ضلوعه.. حين ارتعشتُ بين يديه لأول مرة فارقني

النوم بعدها، أعدت الغوص في عينيه حتى أثبت لنفسي أنه حقيقة لا وهم وأنني واقع لا حلم، لا أذكر إن كان ضمني أو أني ارتميت به.. لم أخجل.. تشممته، داعبت شعر صدره بأصابعي، فرقته، لهوتُ به، جذبته بشفتيّ، شعرت بسخونة نبضاته.. رغبت بالبكاء، وأنا ملتصقة به في استسلام تام.. سألته عن مطر انهمر في غير موعده فقال : " لأنه يوم الفرح ".

كيف لا يكون فرحا وهو لي.. ساعاته لي.. جنونه لي.. شوقه لي.. نومه، يقظته، شروده، دفاتر تدويناته، فنجان قهوته، سيجاره، معاطفه الشتوية، جواربه، فرشاة أسنانه وموسي الحلاقة، وجهه، جسده، نبضه، سخونة خلاياه، نوافذ أحاسيسه، طقوس غرامه، ارتعاشه عندما تغرقنا الموجة فيجمعنا جسد واحد، ما الذي يحدث وهو لي؟ كل ضجيج العالم مصير المغرمين وضجيجنا كهفنا نلوذ به فلا يتسع لسوانا، وحين ننفلت يحدق بي طويلا، يتنفس بعمق، يقبل كفي ويهمس : " أنتِ بنوتة جميلة ".

لم أفهم هذا التناقض، كيف يكون تواصلنا بهذه القوة ويسحقني الوجع كلما رفع رأسه، لنتبادل صمتا غائما ،وبكل جنون الحيرة تسأله عيناي" ها؟ ".. فتجيء إجابة فضفاضة " أنتِ السر الوحيد اللي اتمنيت أصارح الكون بيه "..كان علينا وقتها أن نتكلم عن وضعه المعقد كونه فرض ظرفا معقدا لا يلائم احتياجي ، تصرفت كما يفترض أن تفعل سيدة راقية. تجنبت المناطق الوعرة بكلامنا تفاديا لحدوث

أزمة، كنت مذهولة من أننا غير قادرين على صنع حياة كاملة متخمة بالتفاصيل، دوما ما نتحدث بينما نرمي نظراتنا صوب الشرفة أو النافذة، وكأننا نطلب المدد من السماء، فيرفع كفي بهدوء ويقبل أناملي، فأشم رائحة الشتاء، أرتعش، تتشابك أيدينا بقوة، يسارع إلى عيني الذابلتين، يرفع ذقني، يكبلني احتياجه الدائم، نتداخل، نتعشق من دون أن نترك فرصة للوعي امتصاص مشاعرنا على مهل، ويظل داخلي يشعر بالنقص، وكأني أهبه برضا منحةً امرأة عابرة .

كانت العودة مستحيلة، تنتابني نوباتُ بكاء صامت في حين يخالني نائمة، يأتيني وقع خطواته بينما ينسل بهدوء لحجرة المكتب، ألمح انعكاس المصباح على أرض الصالة، تنهمر الموسيقا، يستمر تدفق اللحن حتى يقرر التوقف عن الكتابة، أمر به أحيانا، أحتضن رأسه وتروح عيناي تفتشان بين السطور، يخيل إلي أنه يكتبنا ،أو أنني ربما مررت صدفة كعابر سبيل، أدرك أن لحظات متعتنا هي حافزه للتوقد، ليست مصادفة أن يتدفق طوفان إبداعه بعد كل لقاء، وحين أسأله لا ينكر، خفت أن أكون "سيلينا سيدة الدهشة" وفقط، مجرد حالة يتقمصها شعوره فيتسرب الهوينى للخيال فيكتب ويكتب ويظل يكتب حتى يعتريه الملل أو يزوره النوم أو ينفذ المداد .

. ارفعي عنيكي يا جوري، ما تخبيش وكأنه سر، سهرك وقلقك وارتباكك بيقولوا كتير .

تمر الليالي.. كنت أتمدد عارية بالبانيو لأكثر من ساعة، يطرق الباب، وبقليل من الجهد يدلف، يطيل النظر إليّ ويردد نفس الجمل المهتمة.. تربكني لمساته لعنقي المبتل فأستدعي ابتسامة وبعض الهدوء لأجزائي، يمد أصابعه للنهد الزلق فأجفل، يسلمني لخدرٍ يُذهب حذري، ويراهن على استكانة جسدي المأخوذ، يجفف شعري في عادة جديدة، تمتد يداه لتحاصر وجهي، تداعبان أذني وتطوقان ابتسامتي،أمنحه أفكارا متهورة، أفككه وأجمعه، أذيبه وألملمه ..أشغله عن خيالات قديمة مشحونة بحقائق ملموسة، يفرغ فيّ احتياجه العاطفي في مقابل عناوين جذابة لمجموعة جديدة تيمتها الغواية..عناوين رائعة مدهشة " نهود الجنيات، عطش التوت، أعشاب شيطانية، أناشيد لامرأة عارية" .كان واثقا دوما أنني هناك فالتورط ليس سوى قبلة.. والبداية دوما حضن عابث .

شتان ما بين لحظاتنا، أغرس الزهر لأخي حديقتي فيجمعه ليؤنس عمره الحيران، وبالنهاية ألوذ بالفراش لأحتضن الوسادة، فتتلمس أناملي المفتاح، أكور شفتي عن آهة، يغمرني فرح اصطناعي يبعثر شعري المبتل ويذهب رجفتي، أتناسى الفرق بين وجهه المسالم أبدًا ،والآخر الحاد الشهواني، تذهلني لقاءاتنا الساخنة بهباتها المشروطة، خواتمها الماسية، عقود اللؤلؤ، فساتين السهرة والسترات الجلدية، لكنها اليوم كرايسلر سوداء فاليوم عيدنا الأول، ليلة مختلفة سبقتها لوحة غنية بالتفاصيل، باقة تيوليب تتوسد شرشفا أرجوانيا، بالأجواء

يعبق عطر فرنسي لتراوده زجاجة مشروب معتق وجسد مفعم بالرغبة وليل ماجن طويل.

فاتحني برغبة بحفل توقيع لعمله الأخير "هرطقات". بعدها قال سيرتب لمفاجأة. لم أكن أفكر إلا في شيءٍ واحدٍ. إعلان زواجنا. تشبثت بساعده كطفلة ،وتوسدت صدره ،وعقلي يموج بكثير من الأسئلة، وللموقف الذي يشبه الدوران بمتاهة. أغلقت عينيّ.. وصار يعبر بين خيال وخيال، وكالعادة كان العابر في الغمام .. قال مبتسما بمكر رجولي :

. هاتكتبيني، تأملاتك توحي بكده، عارف أعراض المخاض على الورق، مش متفاجئ على فكرة بس خايف تتألمي . مسدت شعره بكفي، وقلت :

. هاكتبنا في رواية ...

نظر لي متصيدًا رجفة عيني :

. ممكن نكتبها سوا ؟!..

ضممت وجهه بصدري، شعرت بسخونة أنفاسه :

. طبعا ممكن .

رفع رأسه وقال بفضول :

obeikandl.com

. فكرتِ ف عنوان ؟

قلت بشيء من تحفز :

. طبعا ..المستبد ..

صمت لبرهة وعاد يدقق في الأوراق على الكوموود ،ثم أردف :

. غريب عنوانك، والأغرب أني مستبد في عنيكي .

. المعنى في قلب الشاعر زي ما بيقولوا، كل اللي محيرني إني لسه مش عارفة النهاية ..

نظر إلي بوجهٍ عابسٍ ..

. خلينا نختارها سوا، بس ليه تسميها نهاية ؟!ده شيء سخيف جدًّا على فكرة .

رمقته في شرود، قبلت رأسه، تركته يمارس طقوسه وعدت إلى غرفتي، فكرت بهذا المساء و في كونه هنا، فكرت بالغد وأين تراه سيكون، فكرت بي، وفكرت بنا، أيها الحاضر الغائب، كيف تراني سأكتبك ؟ !

*****

obeikandi.com

الوقت يمر بطيئًا كسلحفاة، الساعات متناثرة بالجدر تحدق بي متسائلة عن مساءٍ مملٍ لم ينقر صحوَه صوتُ مفتاح، ولم توقظه من غيبوبته انفراجةُ باب، ما الذي سيحدث لو علقت اللوحة التي ابتعناها معا ؟ لا شيء، جاكوش ومسمار وبعض دقات متتاليات تنتهك أصداء الصمت، قليل من الإزعاج للجيران الذين لا أعرفهم، يخيل لي أحيانا أن لنا طفلين، أحدهما لم يتعد العام ،والآخر ثلاثة أعوام يقفزان فوق سرير يرتكن إلى الزاوية، يلعبان، يصرخان، يغفوان بينما تحيطهما الدببة والعرائس، ما الذي وهبتني أحلامي غير الإفراط في مشاعري وغير التمسك بها أكثر،

دوما أتهيأ لك برغم أني أعرف النتيجة مقدما، كُلي يئن من رغبة تلائم إعصار، تترقب اللحظة بعيني خبير يجيد قراءة المؤشرات، تمعن في الإنصات، ترصد كل تغير، تضبط كل شيء حتى إيقاعك، تدرك أنها اللحظة الفارقة، تخشى من اندفاعك وثورة بركانك، ترهقني محاولاتي لتطويق حركتك فيحدث ما تخشاه، لكنك دوما بمنتصف المسافة، لا يمكن أن أخبرك حينها أني بانتظار غيمة واحدة في مكانها لنقاوم التصحر، وربما تولد بعدها في الأفق نجمة، لكنك دوما شهاب يشاغب في البعيد،

ارتدت عيناي للغرفة الإضافية التي لم تستوعب سوى الفراغ، وارتد لي صدى الأنفاس محملا بكل طاقات الملل.. أعادني لتلك الليلة قبل شهرين" ..أحن لطفلنا الذي لم يأت"، دونت الجملة بهامش الجريدة

التي يطالعها، تناول رشفة من فنجان الشاي المر متجاهلا مرارته، تناولت قطعة سكر وأضفتها له ، فتناول أخرى ووضعها بفمي، كانت مُرة كفنجانه الذي لم يشكُ مرارته.. نظرة عيني أرعبته وصمته كذلك، وجه نظره للصحيفة، قلب أوراقها، كانت إحدى دلالات الغياب، قلت :

. لازم وقفة يا خالد، أنت عاوز أنثى من نوع خاص، مش بس احتياج عاطفي ..فاهمة ده كويس، حد يفهمك.. يستوعبك، يرضيك ويرضي غرورك .

أسند ذقنه إلى كفه المفتوحة بانتظار تتابع الكلام، فقلت :

. أنا عمري ما حددت قيود على علاقتنا بس صعب كمان نختصرها في مجرد رغبة، أنا باديلك كل اللي ممكن تحتاجه من واحدة ست، وأنت بتحرمني من أكتر شيء تحتاجه أي ست .

أضافت جملتي شيئا من الضيق فأربد وجهه، لكني تابعت :

. افهمني من فضلك.. خليك مكاني.. أنت مش ليا لوحدي وكمان عندك بناتك.. على الأقل لازم يكون بيننا اللي يخليني أتحمل .

التفت إليَّ محتفظا بقطبة حاجبيه ،وقال بلهجة حادة :

. مش أنا بس اللي محتاجلك، أنت كمان محتاجة لي وأكتر، من غيري بتمري بأزمة ثقة .. أنت عارفة باعمل إيه علشانك، ومع كل ده شايفاني مجرد راجل بيدفع مقابل متعة وست بيتمناها.

تظاهرت بالتماسك ،وقلت:

. أفهم من كلامك أنك عاوز ست ترضيك من غير أي التزام .

. أنتِ مجنونة فعلا.

زفرت بعصبية لم تفلح في إزالة الثقل الذي يعذبني، كنت أدرك أن القدر وحده قادر على منحي ما أريد من دون عناء، فقط لو ابتسم، أصبح كل منا لغز الآخر، تكلم بموضوعية لا تلائم احتياجي الإنساني بتلك اللحظة بالذات، في النهاية سألني ما إذا كنت قد فهمت أو تفهمت، كانت مرة أخرى من مرات جدلنا العقيم، دائما نتحدث عن علاقتنا بحذر لكننا نستفيض حين نتكلم عن العالم وأزمات الوجود، الأدب المقارن، عنف العشوائيات ..سكت للحظات وعاد ليكمل:

. مفيش أقذر من كده.. إيه القرف ده!

وددت لو أسأله ماذا تخبئ تلك المرة غير تلك الترهات التي تأكل منك، لم تزاحمني تلك الأشياء السخيفة فيك، ولا تزاحمني كتلة حمراء

obeikandl.com

تنبض؟ لماذا تكررت نفس النقاشات العقيمة ،ولماذا تفضي دوما إلى النهايات ذاتها بشكل نوبات صداع حادة ،وألم بالمعدة لأيام؟!..

. في العشوائيات أطفال بعدد حبات الرمل، تفتكري أنهم سعداء فعلا، ولَّا لهم أي دور في إسعاد اللي خلفوهم؟! دي أقل حاجة بيبيعوها دمهم عشان يقدروا يعيشوا .رغبتي في الحديث تلاشت ولكنه تابع :

. شوفي الخبر ده .

ناولني الجريدة، طالعت عنوانا جانبيا بصفحة الحوادث "يلقي بعشيقته من النافذة خوفا من زوجته "لم أفهم ما الذي يعنيه بتلك الحادثة، تراه يرمي إلى علاقتنا المربكة، أم زوجته التي يخيفه فقدانها لو اكتشفت ما بيننا، تساءلت كيف يتحول هذا الرجل المفعم بالحب لقاتل يصوب الكلمات لتصيبني في مقتل، كززت على أسناني متشبثة بخيط ضعيف من التماسك، أصابني الوجوم فسألت :

.وده ماله بكلامنا؟ ليه مصمم تجرحني؟

. مش فاهم، إيه اللي بتقوليه ده؟ إيه علاقة ده بينا أصلا؟ !

ناولته الجريدة ،وأشرت للحادثة فزفر عميقا حتى ظننت روحه تبلغ حلقومه، أشار لعنوان آخر بأقصى يسار الصفحة . "تذبح عشيقها وشحاذ عجوز بعد ضبطهما متلبسين بالشذوذ ".

obeikandl.com

. إيه الغريب .. صعب جدًّا تثق في راجل اليومين دول سواء كان زوج أو عشيق .

. كملي..

"قتلت فتاة عشيقها بأكثر من عشرين طعنة نافذة ؛فأردته في الحال،وحين وُوجهت المتهمة اعترفت بارتكاب الجريمة ،وقالت :إن صديقها دفع العجوز لممارسة الرذيلة مقابل عشر جنيهات، الفتاة تدعى مريم سعيد ،وتعمل بائعة مناديل، وكانت تنفق على صديقها العاطل ،وتجلب له الحبوب المخدرة ".

مع كل حرف كنت أزداد يقينا أن الحياة أكذوبة كبرى، اتسعت حدقتاي، لا سيما بعد أن قرأت الاسم، شعور بالرهبة غمرني، ورغبة في أن أمضي وأترك كل هذا الهراء،أو أن أنام عارية بمنتصف الكون لتبعثرني الريح. كيف أحتمل حياة بهذا النكران؟ ولماذا تضيف لإرثي الأسود يوميا فيتلون قلبي بالقسوة ويعاقبونني للجحود؟ ماذا فعلت لي السنون غير منحي الألم وتلالا من الوهم يوما بعد يوم وسنة تلو سنة؟ أي عدالة في الأرض تلك يا رب؟! أين عدلك ووعدك للمساكين يا الله؟ وددت لو أفجر كل شيء، القتلة، اللصوص، الجبارين، متعاطي الترامادول، المتحرشين، سائقي التاكسي، التكاتك، واضعي اللافتات، أمناء الشرطة، زنازين التعذيب، طياري الدليفري، المحامين، جزاري الرحمة، بدينات التمريض، موظفي شركات النت، امرأة الخدمة

openkanzi.com

الصوتية، بائع اللبن المخلوط، زوجة الحاج ونفسي، بعناء شديد استطعت أن ألملم الحروف.. قلت بضيق :

. حلمها مكانش أكتر من رغيف عيش تاكله ونومة مرتاحة؛ ليه العالم سخيف قوي كده؟!..

.مش فاهمك؟

. مريم اللي أعرفها كان حلمها بسيط قوي، ليه تتحول بين يوم وليلة لمجرمة؟ !

. يمكن تشابه أسماء.

. ويمكن لأ ...

. ولنفرض إنها هي، ده يؤكد وجهة نظري مش ينفيها.. نبقى مجرمين لو فكرنا نجيب أطفال تتعذب في عالم زي ده.. إحنا اللي بنصنع سعادتنا مش العكس.. ومش كل اللي معاهم أطفال مرتاحين.

على الرغم من أن عبارته الأخيرة لم تضف جديدا، فإنها نزلت على قلبي كسكين، أدركت عمق المأساة، تزوجت في السر رجلا له زوجة أخرى، وله منها ابنتان، تبينت أنه من العبث الجلوس والانتظار لشيء ربما لا يأتي، كنت مجرد فجوة في حياته، بين عمله وبيته، فجوة يقذف بجوارها سائله ويمر، أي عبث أن أنتظر كل هذا الوقت لينتهي الحال

obeikandi.com

بي مجرد فجوة، توضع بداخلي كل الأشياء لتثمر خارجي فرحا لم يكن أبدا لي.

لم أكد اتماسك حتى استرسل، قال أنه لا يريد أن تتأزم الأمور بيننا، ربما نحن أكثر سعادة الآن . وربما أن لهاثي المحموم خلف جنين هو مجرد حالة تنتهي لو أن القدر فاجأنا بطفل مشوه أو به إعاقة ما، كانت كلمات قاسية تماما كخبر الجريدة وضياع مريم بشكل نهائي،أي جبروت هذا الذي يمارسه العالم ضدنا.. أي تعنت هذا الذي يسهم فيه البشر تجاه البشر. حسبت ما بيننا لم تكن مجرد علاقة تنهيها ارتجافة النشوة بلحظات لقائنا المحمومة، كانت تشبه المغناطيس يجتذبني باتجاه محوره فلا أملك الانفلات، يظن أن لحظات توحدنا المعدودة تحقق بعض ما ينقصني؛ لكنه لا يدرك أنني مازلت ملتفة حول نفسي بانتظار ميلاد حقيقي يفكك أجزائي .كانت ليلة سخيفة تركت بي من الحيرة ما لا يحتمل.. لم يمكث طويلا، رشف رشفات متلاحقة من فنجان الشاي، هز رأسه ممتنا، وربت على كتفي ،وغادرني لينام.

*****

قضيت معظم الليل أحاول أن أدون، كنت منكفئة على المكتب، لم أكد أنتهي من ملء ورقة حتى ارتسمت في الأفق ذكريات الأمس الكئيب بكل تفاصيلها، تذكرت كلامه فانسحبت، في تلك الليلة الفارقة لم أنم دقيقة واحدة، أغمضت عيني لأوهمه بأنني نمت، وظللت مستيقظة،

استعدت حياتي كلها صورا متتابعة، كل ما قلته، كل ما لم أقله، عدت إلى نفسي، عريتها تماما، أدركت أن كل انتصاراتي العاطفية مجرد هزائم متتالية، أسميتها كوارث، زلازل، أعاصير ربما .لم يكن الليل مفلسًا إلى حد أن أجدني أراقب كل تلك الكآبة بصبر غريب، فتولد بين أضلعي غمامة، تكبر فتكبر لتبتلعني، يقال بأن الأرض الميتة.. يمطرها الغمام فتحيا .. تلك الأرض هي أنا، فأنا ميتة بك.. وأحيا بك، أحاول بدأب أن ألصق صورة لامرأة تعجبك - كنت قصصتها من صفحة الملحق- لأثبتها على وجهي، تثبت برهة ثم تسقط.. لكن..ألن ترسم أبدًا ملامحي؟ !

صباح جديد يباعدنا، توقف أمام منضدة جانبية تعلوها بعض نسخٍ قديمةٍ لأعداد سابقة، قلب فيها من دون كلمة، تابعته حتى التقت عينانا وارتدتا في فتور، تراه الرجل الذي قبلته صباحًا ،وأغلقت الباب خلفه قبل أن أعيد ترتيب الفراش ،وأتفقد اللحم للغداء، وكأنه ليس هو !.

. كريم، من فضلك نزل خبر عن توقيع "هرطقات" في المركز الثقافي الروسي الخميس الجاي، بعده هاكون بره مصر لأسبوع ..

كان من المفترض أن أستقبل جملته الطويلة بابتسامة وحركة تعني الاهتمام، أو أن أقولها مكورة شفتي " واااووو". لكنني وجمت، سرت سخونة بجسدي، سخونة حادة غلفها صقيع نفسي وكيف لا ؟! عاتبته مساء فأطلق ضحكة مصطنعة وتعلل برغبته في منحي مفاجأة، سادت

حالة من الضيق طيلة الأمسية لم يخفف احتقانها برنامج التوك شو الشهير، ولكن أنهتها زفرة حارة افتعلها قبل أن يقوم متجها للنافذة..

. حاولي تكوني سعيدة يا جوري، حاولي، باعمل المستحيل عشان أسعدك ،ومع ذلك مفيش فايدة.

وقف في الهواء البارد بضع دقائق يدخن سيجارًا ثم أغلق النافذة، ربت على كتفي وقبل جبهتي، وانسحب للداخل بهدوء ..ما الذي يحدث هنا؟ ما الذي يتسرب؟ أكتب قصاصات يومية أشكو من ضجر يتسلل فلا يعلق بكلمة، فقط يتناول الجاكيت وينفلت خارجا بهدوء، يأمرني بغلق الباب خلفه وإحكام المزلاج، أي قناع كذوب يغلف قشرته؟! لم ينس حساباته الدقيقة ولو لمرة ،ولكنه تناسى حاجتي لانتهاك الحذر ولو مرة، أتفهم حاجته لامرأة ترضيه وليس لزوجة تطارده وطفل يعبث في الأرجاء، سأتدبر أموري مؤقتا، سأرتب حقيبة السفر، وأعيد تلوين شعري، سأشتري الكثير من الملابس والأحذية، إنه الأسبوع الأمثل بعمر زواجنا، وقبل كل شيء سأعمل بنصيحته، سأحاول أن أكون سعيدة - فقط - لأنني أستحق.

*****

تونس، المدينة القديمة بطرزها العتيقة، نتأمل كل شيء كأننا نعيد اكتشافه، نتسابق للدرج الحجرية مأخوذين برائحة البخور، ندلف للمقاهي عبر أبواب خشبية مزدانة بحلي من نحاس، نقطع الأزقة

الضيقة معا، نفتش عن ممرات سرية بين البيوت تنفتح على شوارع واسعة نقطعها ركضا، نجلس على السلالم الرخامية لنتأمل البيوت بجدرانها الجيرية البيضاء والزرقاء، نأكل في أحد المطاعم المحلية البسيطة لا تزيد مساحته على عشرة أمتار ويقدم وجبات بيتية.. تلتقط آذاننا الفرقة الموسيقية بالساحة، نتسابق إلى هناك، تسحرنا التنانير بتداخل ألوانها، لها نفس سحر ابتسامته، يدور الراقصون، لا تتوقف الرقصة، تميل رءوسهم للجانب باتزان، لكن لا يزوغ بريق ضحكاتهم، تدور التنانير، تعلو وتهبط، تتشابك لتلتحم، يدور كل شيء.. فلا منطق محدد لفلسفة عنوانها الألوان والموسيقا ووشوشات المحبين، كما لا نهاية لهالة تثيرها تنانير يحيكها قوس قزح . نستمع لخطواتنا بالطرقات المبلطة، نقر متسق بإيقاع نقري، لم يكن صعبا أن ندعي كوننا راقصين بارعين ،وخاصة حين يلف يده حول خصري ؛فألقي برأسي فوق كتفه فتأخذني عيناه ويسرق قبلة، نتعانق بعدها ونعود نتأمل المشربيات الخشبية والأبواب المتينة المسمرة، ندلف سرًا لحدائق افترشت أرضها قطع الخزف والفسيفساء، وتسلقت أسوارها نبتات البوغانفي والياسمين، لم تتوقف روحنا عن التقاط الصور، لم يفتنا كمش تعابيرهم في المقهى العالي أو من خلف أسوار الجامع الكبير، أو حتى لنا بمساعدة من أحدهم، شوقي إليه جعل مني امرأة أخرى، كنت بحاجة لجنونها، امرأة تمنحه نفسها، يغرق في عطرها، يقبلها أمام الجميع، يصحبها للمطاعم الفاخرة والبازارات، يمنحها

تذكارات وقلائد فضية وأساور مجدولة، وفي الليل تتقلب بين ذراعيه كسمكة، فيتقاسما غرامًا لا يُنسى.

نعود منهكين في المساء، فيحتضننا الفراش بعد أن نتشارك حماما ممتلئا بفقاعات الخزامى، ثلاث ليال بفندق La Chambre bleue كفيلة بإحداث معجزة، لو أنه جني المصباح بنفسه لكان عاجزًا عن الإتيان بكل هذا السحر، أي هذيان استحوذ علينا حين وطأنا الجناح المتسع، كان ضخمًا فسيحًا بأرض من الفسيفساء، وكان السقف بشكل قبة برسوم بارزة لملائكة وألوان وتجاويف مضيئة، شعرت كأننا فوق بساط يحلق بنا في عالم من أجواء أندلسية، أو ربما كنا ننفذ عبر فجوة زمنية لمشهد عاطفي بفيلم كازابلانكا،ارتميت بصدره.. عانقته قائلة:

- مش مصدقه، كأنه حلم جميل.

- مش بجمالك حبيبتي.

بالصباح وقبل أن نخرج حكيت عن حلم راودني، كنا طيلة الليل ننزح الماء من غرفة طافية فوق نهر لتخذلنا القنينة المشروخة ولينفذ الماء فنغرق..أسكتني بقبلة من خدي ، وخرجنا..

قدنا سيارة مستأجرة، رأينا عن يسارنا أراض واسعة ومروج محاطة بسور مزخرف وقلعة عالية على الامتداد، كان المكان أثريا تحيطه بوابة

obeikandl.com

كبيرة وورود ملونة، وخضرة ممتدة على مرمى البصر، درنا حول السور العالي ،وجلسنا على إحدى العتبات بالكاد احتوت جسدينا،ملتصقين تماما، أمسك خالد بكفي، فرد أصابعي، منح خنصري خاتما جديدًا رائعا، ملت على كتفه لأعانقه، أحاطني بذراعيه، شعرت بارتجافة لذيذة، قبلني عميقا، غرق في شعري المتماوج وهمس، إعصار من الزفرات الحارة تلفت بعده خشية أن يلمحنا أحد العابرين، بالطريق الجبلي أخذني بكاملي جانبا .

. بتعمل إيه؟

. بطلي كلام.. أرجوكي سيلينا .

بجبل سيدي بو سعيد وددت لو ارتحلنا بعمق التيه، وضمتنا ظلمة الكهف، لنفعل كما فعل سيرفانتي بسيلينا، قبلني وبين شفتيه غاب عقلي للحظة، كان فيها يتحسس جسدي، حين فتش عن الأخرى بداخلي انتبهت، ركضت من الخوف، أربكتني نظرته الجائعة ، سبقته إلى المنحدر، كدت أتعثر فجذبني إليه، أمطر وجهي بقبلاته الشبقة ، كان من الغريب وقتها أن أستعير مشهدا لناصر وداليا يمارسان الغرام، حضرا تلك المرة وبإلحاح، لا أدري لماذا لا أحتل مشاهدي معك؟ لماذا أكون بحاجة لاستعارة وجوه أخريات لأمارس الجنون؟ فأعيش كسمكة بقلب أنسية تتوق للشاطئ، أسبح ضد التيار لترميني موجة للبر، وبين يديك تذوب زعانفي وقشوري وتنضج رئتاي فأتنفسك، أنتزع من على

obeikandl.com

وجهي قناع اللياقة لنمارس المستحيل ،ونركض معا لعمر مسروق من زمن الناس، لكني يوم تلبست وجهي لم يكن الإحساس ذاته، كانت رقصة المولوية على سلم ضيق، تساءلت في حيرة ، تراني سأكمل الصعود أم أن طاقتي أقرب للزوال؟ يا الله، وكأنني بحاجة لمعجزة ...

"كوني سعيدة يا جوري"

في يومنا الرابع زرنا ساحل سيدي بوسعيد بالضواحي الشمالية للعاصمة تونس، ما الأكثر سحرًا من مدينة أقيمت بالكامل فوق جبل ضخم يكسوه الشجر ويبطنه العشب ،وتمتد بمنحدره الغابات؟! كأميرة منحوتة تتوسد زرقة ودفء المتوسط، تنعكس إضاءاتها بوداعة على الساحل الممتد، وتنتشر بها أعداد مهولة من اليخوت الفارهة، مكثنا بناظور سيدي بوسعيد طيلة اليوم، يتوسط ربوة خضراء، بنهايتها يلتقي الشاطئ والخلجان، كان الموج يضرب الصخور الراسخة برقة، وكأنه عناق حار ،وبين الصخور ازدهر الورد ،ونمت الكثير من الطحالب الخضراء، كان من المدهش الاستماع لسكان المدينة المحليين يتحدثون عنها بشغف، أدهشني كم الصور التى عجت بها حوانيتهم للمشاهير والكتاب بين الطرقات وعلى المقاهي بينما يحتسون الشاي بالنعناع ويتناولون البمبالوني .

تكمن الروعة في التجول باكرًا في أزقة القرية الوادعة، وبين الممرات الضيقة المرصوفة بحجارة بات سطحها أملسا بفعل المشي عليها لمئات

السنين، حينها تخترق مجالنا صوت العصافير عبر الشوارع التي احتضنت بلطف عبق زهور البرتقال، تفقدنا دار العنابي بنهاية السوق، التقط لنا غنَّام صورًا كثيرة، وهو شابٌ عشرينيٌ أسمر ومهذب، وكان دليلنا في الرحلة، ترك له خالد الكاميرا ليوم كامل ليلتقط صورًا كيفما شاء للشوارع والبيوت، للوجوه والحوانيت، للسوق وصانعي الحلوى، سألته عن السر فأجاب بأنه سيوثق الرحلة بألبوم صور مرفق بالعدد الجديد وسيكون عنوانه " تونس في عيون غنَّام " تصورته يعود فيدعي فقدها أو لايعود من الأساس لكنه اتصل بظهيرة اليوم التالي، قابلناه بالجبل، كانت الكاميرا بعنقه وبين يديه وجبة شهية مكونة من دجاج تندوري وإناء فخاري كبير يحتوي برودو بالخضرة، وهو حساء نصف تونسي ونصف إيطالي به قطعٌ صغيرةٌ من لحم البقر، صنعتهما أمه خصيصًا لضيفيه، لم يشاركنا غنَّام الغداء وانطلق ركضا بالمنحدر، اقتادني خالد لنجلس فوق تبة صخرية عالية كشفت المنظر كله، كان النسيم باردا يحمل رائحةَ اليود ،وبعضا من عبق الياسمين، آرقني خاطر لحوح.. فهي بالفعل مجرد ساعات، أعرف أن عمرها مرهون بالقدرة على التماسك وادعاء الفرح، وربما نوثقها ببعض سطور بدفتر عنوانه الذكريات أو صورة تجمعنا مدون بظهرها " تونس، المقهى العالي ، سيدي بو سعيد،سبتمبر ٢٠١٠ "أعرف كل ذلك وأعرف تماما أن العمر الذي عاشني قبلك، محض موت.

تناولنا السمك بالعشاء في فيلا ديدون بقرطاج، كان عبقريًا بنكهته الطازجة، ومذاق الصلصة المصاحبة الحافلة بتوابل المتوسط والشرق

الأوسط، لم أتخيل أن للسمك مذاقا كهذا من قبل، وربما لم أتخيل أن تلك القطع الصغيرة التي يلقمني إياها خالد لم تكن غير أجزاء صغيرة من أخطبوط مشويّ، لم يخبرني عن محتوى الطبق الذي لم أظنه إلا قطعا من السمك، أو نوعا من المحار الكبير، في كل الأحوال كان لذيذًا ومدهشًا، أمضينا بـ فيلا ديدون المطل على حدائق قرطاج الأثرية الثلاث ليالٍ الأخيرة، كان هادئًا ومريحًا، وكان لابد لليلتنا الأخيرة من احتفال مثير.

ظلت اللفافة البنفسجية بخزانة الملابس سر خالد الذي حرص ألا أكشفه قبل يومنا الأخير، عندما قررنا باكرًا اللوذ بالبحر واستئجار يخت فخم، وضعها جانبًا بحقيبة الأغراض، تملكتني الدهشة حين وجدتها بين يديه ونحن على اليخت، لم تكن تلك الخبيئة سوى مايوه بكيني بلون الزهر.. اقترب مني هامسا بعد أن غلفت وجهه نظرة حنون .

. ممكن أطلب منك حاجة ؟!..

. بتفكر في إيه؟.

ابتسم في رقة وقال :

. طبعا فيكي .

بادلته نظرة ماكرة :

obeikandi.com

. إيه الجديد ؟!..

قال بخفوت موشوشا أذني :

. بالمايوه حبيبتي .

هززت رأسي بالنفي :

. طبعا مستحيل.. مش هاعمل كده .

. هاتعمليه وفورا .. أووو..

قلت بعند :

. لا... مش هالبس المايوه .

. هاتلبسيه .

. مش باعرف أعوم .

خلع ملابسه، ألقاها جانبًا..وقال :

.هاعلمك، وبعدين مين قالك إني جبان ،وهاسيبك تغرقي.؟

obeikandi.com

قفز للماء واختفى، غاب لنصف دقيقة، كاد قلبي يقفز من بين ضلوعي، فجأة انشق عنه الموج على مسافة قصيرة من اليخت، لم تحجب زرقة الماء جسده، ساقاه تبدلان بانسيابية، بدا مسترخيا، كان الأمر محفزا للنزول، دخلت لأبدل ملابسي، تأملتهما في المرآة، جميلين لم يخجلاني، صلبين كثمرتي رمان، كل دورة عام تذيب تكلسًا مِلحيًا عالقًا بالروح، فأنا الآن أخف وأروع، انطلقت بثقة للخارج, وكأنني للمرة الأولى أتنفس، وضعت سترة النجاة وقفزت إلى الماء. لوهلة صدمتنى برودته، بدلت إلى حيث كان، عانقني، ذبت بين ذراعيه، غلبه الاشتياق وضمني أكثر، نزع سترة النجاة فرأى النهد الثائر يتمرد على القطعة العلوية، غمره بنظراته، غمرني بكاملي، ضمني طويلا إليه، تماوجت حركاتنا، رفعني فوق ذراعيه. بدا لي أنه لا يوجد من هو أسعد مني في الدنيا كلها. طفوت وعيناي مثبتتان بالأفق، شعور بالتحليق يغمرني، سيمفونية من لون متدرج، زرقة السماء، زرقة البحر، رحابة المدى، صوت النوارس، عذوبة النسيم وطعم ورائحة اليود، كون من سحر طاف، نطفو معه ،وكل ما عدانا إلى القاع يغوص.. يغوص.

*****

صباحًا تطلع في ساعته، توقف قليلا وكأنه أراد أن يقول شيئا ما، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة ، صمت قليلا ليعطي نفسه الفرصة للتفكير وقال :

. باتمنى أن أكون عملت أي شيء يسعدك، عارف إن أسبوع مش كفاية .

بالطريق إلى المطار داهمني صداع مفاجئ، وبالطائرة طفرت دموعي رغم تجلدي المصنوع، فأشار بحزن إلى أني سألفت النظر . برغم أنني لم أر في الكون سوانا، لا أعرف كيف استطعت النوم واستسلمت لغيبوبة، عندما أفقت صفعني شريط الأسفلت الآخذ في الاقتراب، الناس والسيارات والطريق يركضون إلينا في جنون، لم يكن ثابتا غير وجهي المتوقد حزنا، ووجهه الثابت المحتفظ بعينين لامعتين، طوقت ذراعه وقبضت أكثر على اللحظة، كان صورة تتأرجح مع أنفاسي اللاهثة خلف سعادتنا المندثرة، شيء ما يخيفني، ربما وجهه الآخر، قطبة جبينه، نبرته الجادة وتحفظه الزائد. القاهرة على اتساعها لن تستوعبنا معا، ولا الشقة ذات المستويين، ولا الحي الراقي بجهاته الأربعة، ولا الكون بتفاصيله الجدلية.

شغله الجوال ..عيناه تراوغان كأنه يفتقد شيئا ما.. بصالة الوصول لا أعرف ما الذي حدث لي، أمسكت به وأنا أبكي، كدت أستحلفه أن نعود، أحطته بذراعي، تململ بينما يدفعني – برفق- إلى البوابة، كان المطار هو الخط الأخير بين عالمين، خطوات أخرى تفصلني عن ضجيجهم، حاولت أن أهيئ نفسي لمن سأقابله من بشر، تذكرت أن أحزاني تأتي دائما على مهل بينما تركض اليوم إليّ في لهاث، توالت لافتات الطريق ..سألته عن خططه لليوم فتكلم عن اجتماع مؤجل

لهيئة رئاسة التحرير.. فكرت أننا فعلا غادرنا الجنة ،وكلانا يخصف من ورق التوت ما يواري سره .

. أول مرة أحس بالخوف كده، مش عاوزة أشوف حد غيرنا، ولا عاوزه أحس حد غيرك .

. ما تبقيش صغيرة، كان لازم نرجع، والرجوع مش معناه مش هانشوف بعض ..روحي زايد ..

. هاتوحشني .

. أنا معاكي .

. كل حاجة معاك هاتوحشني، سيرفانتي، الكهف، البحر .

. حاولي تكوني سعيدة يا جوري، عارف إني بأكرر ده كتير ،ويمكن شايفاني سخيف.فكري في كلامي ..هاتقدري مشاعري وخوفي عليكي .

بدأت أشك أن إلحاحه كان جزءا من مقدمة تنذر بما هو قادم. لم يعد يمكن أن أتغلب على الشك الذي ينمو بداخلي. أو أن أخفي إحساسي الكامل بفضاء مقبل . وكأنه يدفعني إلى الابتعاد أو ربما كان يتخفف من أحماله لشعور مثقل بالذنب .كان يتقبل مخاوفي بكثير من الهدوء. يبرر هواجسه بالقلق عليّ. لم يكن منطقيا حتى في تبريره. في أعماقي

obeikandl.com

ألقيت اللوم على نفسي لكنني استطعت ان أتخيل الصورة كاملة عندما قال:

.كنت عاوز اتكلم معاكي في موضوع مهم ومكانش فيه وقت مناسب، عصبيتك منعتني ويمكن اخترت نسافر تونس في التوقيت ده لنفس السبب، لورا في مصر ، يمكن ما أقدرش أرجع زايد غير كل يومين، عاوزك تستوعبي إني مش مبسوط ، عاوزك تفتكري كمان إني بحبك .. وحبك هايغفرلي أي تقصير ، أنا متأكد.

داهمتني الصور القديمة ورغبت في البكاء.. تماسكت وتساءلت للحظة. ماذا يفعل الذين يُمنعون من البكاء بموقف كهذا؟ كيف يواجهون الحقائق المخزية؟ وكيف يمكن أن أتجاوز صلابته وافتقاري إلى الكلمات من دون دموع؟ليتنا لم نذهب .ليتنا لم نفعل، ليتني لم أعرف. عادت ذكريات سيدي بو سعيد تطاردني، فكرت بالأماكن التي لا تشيخ، وفكرت بالمكان هنا، بدت الشوارع كأضيق ما يكون، النوافذ متربة، الوجوه كالحة، أطفال الإشارة بثياب مغبرة يروجون لأي شيء، أكياس القمامة ينهشها الذباب وتدهسها الإطارات، بدا الكون كله متضخما على غير العادة، يلفظ ذاته من ذاته أو يلفظني لا فرق، بحثت بذاكرتي عن وجوه مألوفة فلم أجد غير وجهي بالمرآة، بردت أطرافي، والرؤية من نافذة السيارة توحي بالباقي من المسافة، ترى كم معطف يقيني صقيع غيابه!

تنفست بعمق، ضممت كفه واستكنت إلى كتفه، وجهي معلق بالنافذة، وعيناي تودعان العصفور الذي احتويته يوما بين ذراعي ..

. هاتوحشيني ...

. ليه بتقول كده؟ !

. لأنك دايما وحشاني، بس إزاي وأنتِ معايا كل يوم؟! هاتمِلي سؤالي عن حالك، عن يومك، عن روايتك، رتبي ألبوم سيدي بو سعيد، كل صورة بتاريخها ومكانها، وقبل أي حاجة احتفظي بسيلينا الجميلة جواكي" .

وقبل كل شيء احتفظي بسيلينا الجميلة بداخلك ... وقبل كل شيء... احتفظي .. احتفظي قبل كل شيء.. بسيلينا .. الجميلة بداخلك... سيلينا ...بدااخـ....ك"

*****

أمضيت ليلتي السابقة أتأمل صورتك ،وأبثها أسئلة عن تلك الحياة الفارغة التي أعيشها لأسابيع من دونك، ولم أجد أي إجابة باستثناء جملة من عشر كلمات، قررت أن أتجاهلها تماما؛ فذهابي إلى الشيخ زايد أصبح كمشاركة بعرض استربتيز بناد ليلي . مع إشراقة الصبح كنت ممدة الساقين معلقة العينين بشماعة جانبية، دقت الساعة العاشرة.. قفزت من الفراش، هرعت إلى المطبخ، فتحت الثلاجة،

obeikandl.com

شربت زجاجة المياة الباردة كلها، عدت إلى الغرفة مهزومة.. كنت حزينة فالمسافة بين ضجري وعيني المتورمتين كأنها محطة قطار مسكونة بالعفاريت.. لهذا حين طالعت صورتك بالعدد الأسبوعي، لم أقصها كالعادة ولم أقبلها أيضا، فقط فتحت صفحة مموهة كعلاقتنا الجدلية وجلست لأكتب.

في الظهيرة توقفت عربة تحمل بعض قطع الأثاث،رأيت في الشارع امرأة ثلاثينية تمد بصرها صوب شرفة بالطابق الرابع وتبتسم، بائع اللبن يسب مختلا على الناصية أوقع الدراجة بينما انسكب السائل الأبيض كله، لوح بعدها بقرف لسائق العربة وابتعد، حارس العقار المقابل تخلى عن جلسته المعتادة ،ووقف على المدخل بعين ملؤها الشغف مرحبا بالوافدين في ظروف استثنائية ..

خمس وعشرون سنة مضت على لحظة تشبهها، عجبت لكل هذه التفصيلات التي عادت فجأة، شخوصي الرمادية بشارعنا القديم، الشاخص الحديدي، رائحة الفول الطازج وزبائن الصاوي، أواني الزهر الفخارية، لافتة زرقاء صدئة تشير لشارع ريحان، في لحظة صدق نادرة ومواجهة مع نفسي المأزومة قررت أن أسترد روحي رغم أن الطريق إليها صعب مليء بالذكريات، كيف تخليت عن اضطرابي بهذه السرعة؟ لم أجد تفسيرا معقولا إلا بأحد نهارات نوفمبر الناعسة، حين قدت السيارة إلى الزيتون لتستقبلني بيوتها الملتصقة وشوارعها الحميمة وناسها الغرباء.

بالحذاء الجلدي الطويل والمعطف كنت أشبه موظفة من بعثة تقصي الحقائق ، وقفت على رأس الشارع الضيق الذي ينفتح على ساحة بيتنا، بدأ قلبي يغوص بل كاد يقفز من مكانه حتى ظننته سقط، حدقت في البيوت على الجانبين، أحنيت رأسي إلى صدري كلما مر أحدهم ورفع عينيه نحوي، تأملت الشارع، كان البيت الواطئ ذو الشبابيك الخشبية والباب ذو الضلفتين قد تحول لعمارة شاهقة، ودكان زينب برسومه غير المكتملة لمحل أدوات صحية، واستُغل الحائط الجانبي بكامله لعرض بعض الهواتف النقالة، مقهى النوبي كما هو على الرغم من الواجهة المزدانة ببلاطات السيراميك بشكل نجوم وأهلة، وفي الركن سيدة سمراء تداعب ولدًا يرسم على الطاولة بالطباشير ويثير الغبار، البيت الرمادي ذو الشرفة الخشبية حيث اللبلابات لا أثر له.. وقفت طويلا أدقق النظر بالأرض المستوية وأتخيل ثورة أشباحي، كان الغبار لصيقا.. لصيقا جدا، كانت الرائحة تقترب، تغمر روحي، انشقت الأرض الصلدة لتنبتهم، أبي، أمي، مجدي، علي، الجيران، صبية الشارع، فتيات الحي.. يا الله.. وكأنني أحملهم معي إلى ساحة مسرح مقفر، لماذا أتضاءل أمامهم إلى هذا الحد لأصبح طفلة تشتاق حضن أمها؟ لماذا أثير تلك الدوامات وبأي حجة؟ ما من أحد يعرفني هنا، حتى الحلاق الذي جاوز عامه الستين يحملق في بغرابة، كان جالسا على مقعد من الخوص على الرصيف يدخن الشيشة ..أشرت له بود ولم يجب. بل ظل يبحلق بعينيه .

"أخته اتوفت من يومين، ومن ساعتها وهو على الحال ده "قالها أحد الشباب حين مر بجواري.. أومأت إليه فابتسم وانصرف مسرعا ..

ماتت امرأة الجدار. شعرت بالرثاء له. حين مددت خطوة للأمام كان يتابعني بينما فم قصبة التدخين ما زال لم يغادر شفتيه. كلما أمعنت النظر فيه كلما ازدادت وطأة غربتي. مرت دقائق من دون أن أشعر.درت فيها حول نفسي، جبت الساحة حيث تجمع بعض الصبية الحفاة بينما يركلون بأرجلهم كرة من النوع الرخيص، صوبوا وجوههم باتجاهي, تعلقت الأعين بي ؛وكأن الشارع لا يقربه غير سكانه، أردت أن أصرخ: كنت هنا؛ هنا كان بيتي..هنا سريري وهنا مكتبي، هنا الطاولة التى نأكل عليها.. وهنا الكرسي الجانبي.. هنا التلفاز....وهنا علبة السكر..هنا صندوق الدواء..هنا طائرة عمر.. هنا عارضة اليمام.. هنا ولدت قصيدة.. هنا انفلت نهد لتكتب القصيدة، وهنا جدار ارتكن إليه النهد وقت ميلاد القصيدة، هنا كان علي، وهنا كنا نغادر لعالم هزلي .

حين هممت بالذهاب فاجأني وجهها ..في شرفة البيت الذي كان يجاوره بيتنا ..بطابقه الثاني.. بنت لها وجه "رضوى" لونها، جبينها الضيق وشفتيها المكورتين، تسمرت مأخوذة، كانت تنحني لتلتقط قطعا من الغسيل ثم تشبكها على الأحبال. سألتها ان كانت تقرب لرضوى فأجابت أنها ابنتها.. دعتني للدخول، قبلت لسبب أجهله، منحت عقلي ربع دقيقة قبل أن أدلف، أردت ألا أفتح فجوة أمام أي منهم لينفذ منها لعالمي، سأقول في حال سألتني : كنت بلندن وعدت مؤخرا،وليس

غريبا أن أمر حين أكون بالجوار، تحسست طريقي إلى السلم، تعثرت بدرجة متآكلة، تلمست بعدها موضع قدمي، فتحت باب شقتهم، فأضاء وجهها ..ابتسمت وقالت أهلا قبل أن تنادي: ماما .خرجت أمها تجرجر جسدا ثقيلا يرزح تحت كتل كثيفة من الشحم، كل ما فيها اختلف، خصرها النحيل اندثر، بروزاتها المغوية اختفت، وأصبح الوجه تام الاستدارة كشطيرة كبيرة، رحبت بي واصطحبتني إلى الداخل، قطع الترحاب ارتباك اللحظة وبعض الروائح المتداخلة لم أعرف لها مصدرا..

مسحت صالة الشقة بعيني، مصباح كبير يتدلى من السقف فوق طاولة طعام بسيطة يتوسطها طبق فاكهة خزفي، فتحت بابا يفضي لغرفة جلوس أكثر اتساعا؛ جدرانها تميل للاصفرار، والأرض مغطاة بكاملها بسجادة حمراء، جلسنا على كنبة مغطاة بقطع من القماش المزركش بالزهور تشبه زهور قميصها البيتي، بالغرفة منضدة من الرخام، كنبتان "بلدي" متقابلتان، وبالركن ماكينة خياطة تنكفئ عليها يوميا لتخيط أخمرة الصلاة، بالجدار نافذة وحيدة تطل على الشارع ،وتحجبها ستارة بيضاء، لكن وهجا باهتا لا زال يلمع بالمقلتين، كنت أنظر في عيونهن، وينظرن في عيني بكثير من الفضول، لرضوى أربع بنات، "نيرة" تزوجت وتسكن بشارع مواز و"منال" تدرس بالجامعة، واثنتان تصغرانها، صففت "أمنية" شعرها كغجرية، تركته منسابا مجعدًا، أما" أحلام" فتشبه أباها، تحركت البنتان بألفة، قدمت أمنية واجب الضيافة والتجأت لكرسي من الخيزران؛ صحن ممتلئ بشرائح

الجوافة وبعض ثمار البرتقال، ودورق من المياة الباردة، كنا نتبادل الكلام ليطل رأسُه الصغيرُ من فراغ الباب، عيناه شقيتان، ضحك ضحكة ملء فيه وجرى؛ ولد جميل في الثالثة، دعوته بإشارة فجاء ،واندس بيننا ..تحسست شعره المنسدل على عينيه وسألتها عنه، فأجابت بخبث :

. ده يوسف، ابنه من مراته التانية .

سألتها بانفعال انتابني بعد ضيق زادته نبرتها وهي تتحدث عنه :

. للدرجة دي بتحبيه؟ !

. كل حي بياخد نصيبه .

استأت من تحاملي الشديد عليها بينما تتحدث عن كونه عطوفا رائعا، علت شفتيها ابتسامة في غير مكانها فلها ضرة من خمس سنين؛ ولأنها أم البنات كان عليها أن تتفهم عطشه الدائم لصبي، سمحت لضرتها أن تشاركها الشقة الإرث، سكنت غرفة تجاور غرفتها ،وكانت تعرف عن لقائهما كل ليلة على فراش أمها المرحومة، في البداية باعت شبكتها لتسدد عنه قيمة المهر، اختارت ألبسة العروس، طهت طعام الصباحية، وفي الصباح زغردت، بعد الولادة مرَّضَت ضرتها، غسلت ثياب الرضيع، وزعت " المغات" وساهمت في تكلفة "العقيقة".

أمعنتُ النظر بالجدار، لاحظت خلوه من الصور بينما توسطته آية قرآنية تبشر الصابرين، وفي الركن ثُبِت قائما خشبيا تعلوه بعض قوارير العطور.

. هاعمل إيه؟ أهو بيجيلي آخر الليل ينام ف حضني حتى لو خلصان من التعب.

قالت تنهيدتها " أعطيته كل شيء واحتفظت بحزني لنفسي".. تفاخرت بعطوره التي جهلت تراكيبها، لم تلمسها أبدا ولم تعن لها أكثر من مجرد زيوت مركزة يشتريها من أحد التجار بطلوع الروح، ويقضي الليالي ساهرا يخففها لتباع بمحل صغير بالوكالة، كانت خلاصات فواحة، تداخلت روائحها لتصنع غيمات بأريج الورد وعطر الريحان والخزامى والبخور، أهدتني قارورة عطر بخلاصة البنفسج، مرسوم عليها نجمات يقطعها قوس قزح، فخورة رضوى بتراكيب رجلها برغم أنه أهدى امرأة غيرها تركيبة خاصة ؛فمنحته بالمقابل حلمه ووهبته الصبي .في تلك اللحظة دخل حسام بجلباب قصير وسروال بالكاد لامس عرقوبه، طمس بياض لحيته حقيقة عمره، بدا ستينيا، أو ربما أنه كان يستمتع كثيرًا بتبديد الوقت، تهلل الصغير حين رآه وفتح ذراعيه متشبثا به، مال عليه أبوه وقبل رأسه وتركه، منذ اللحظة الأولى لدخوله قطب جبينه، غطت وجهه عبسة حادة، جمدت عيناه وجحظتا عندما واجه ساقي المكشوفتين وشعري المنسدل، قال بلهجة أقرب للسخرية :

. إيه ده!. الصحفية الكبيرة عندنا؟ !

تطلعت بوجه رضوى، هالني فضولها .. ندت عنها شهقة حادة وسألت :

. صحفية ؟ ! بجد ده ولا هزار ؟!..

أومأت مجيبة بنعم،اغتم بعدها عندما قالت بتفاخر " بقى عندي أصحاب مهمين ! هاطلبك لو عوزت حاجه".

رمقها بنظرة ممتعضة ،ولوى شفتيه في حركة توحي بالضيق، جلس إلى مكتب صغير بالصالة ،وبدأ يفتش في الأدراج، تحسس لفافة صغيرة، أخذها، كانت ممتلئة بكتيبات الأذكار. أدار حديثا قصيرا كان هجوميا فيه، سألني عن اليوتوبيا التي أعيشها، عن مكانها تحديدا؟ سألني بشيء من الاستخفاف إن كنت قادرة على رسم معالمها هنا؟ في هذا الشارع الضيق، أو بين تلك الجدران، أو أن لها حدودا أخرى لا يعرفها غيري؟ سألني عن الحد الفاصل بين يوتوبيانا ويوتوبياهم، هؤلاء الذين يقضون اليوم كله بالشارع في لهاث طاحن خلف لقمة العيش ليسحقهم الضجيج والغبار ولتحرقهم الشمس ورقاعة النساء ،وليعلمهم الأدب أفراد الشرطة الوضيعين والمتسولين، سألني إن كان كل هذا طبيعي بنظري ولم أستطع الرد، كان على قناعة تامة بالمشروع الإسلامي، شدد على دورنا كصحفيين ،وعلى ضرورة دعم تلك الفكرة بالترويج لها بمقالات تخاطب البسطاء كما تهتم بالساسة، فالإسلام هو الحل، الإسلام في بلد لا تعترف بالفقراء ومع ذلك تتشدق بالدين،

كان حديثا قصيرًا حرص فيه ألا تتواجه عينانا، ربما أنه كان يتحدث لأحد أشباحه، بعدها استأذن قائلا :

. سأذهب للصلاة .

تابعته يمضي بكتفين مائلين للأمام ورأس خفيض بينما أسأل نفسي، أين شبابه وضحكته، وأين حبهما الذي كان؟! تساقطت بعض قطرات المطر على رقعة بلاستيكية خارج الشرفة، وُضعت لتحفظ الغسيل، لم تتركني رضوى أغادر قبل أن أشاركهن الغداء، وضعت أرزا ودجاجا وطاجن خضر.. حاولنا أن نتذكر مدرساتنا، كثيرا ما أطلنا النظر لـ"ميس صافي" مدرسة التاريخ، بدت كامرأة من كوكب آخر، سحرتنا تنانيرها القصيرة وأحذيتها العالية وأحمر شفاهها الفاقع، كانت تسير باتجاه النافذة ببطء واضح، تخرج أصبع الروج، تتأمل وجهها بالزجاج، تخطه فوق شفتيها باهتمام بالغ، تلعقهما قبل أن تستدير فجأة لتقول بلكنة سوقية:

.بنتسسس أنت وهي، بطلوا رغي، شايفاكوا .

تذكرنا رفيقاتنا، خجلنا من أننا أضعنا نصفهن من الذاكرة، تذكرنا شارب داليا، وأظافر رباب المتسخة، تذكرنا حذاء إيمان ذا الرقبة العالية، وقميص مايسة " المايصة" وعلكة منى "السهتانة" وضحكنا كثيرا على شريط "الكوكتيل "الذي كلفنا تسجيله جنيهين ونصف لتسرقه "انتصار" في النهاية ،تذكرنا "نجلاء "وقصص حبها الوهمية،

أحبت نصف مدرسي المدرسة ورسبت بموادهم، عاما بعد عام كانت تضيف واحدا للقائمة، أكثرهم رسوخا كان منغلقا جدا، كلما منحها تكشيرة كلما زادت تعلقا به، كلما بالغت في رد فعلها كلما استشاط غضبا، شكت اضطهاده فبرره بسوء سلوكها، وحين تقدم لخطبة زميلة بفصل مجاور كانت الطامة الكبرى، تقصت عنها، تتبعتها حتى البيت، عرفت أنها يتيمة؛ فقالت والغيرة تكاد تفتك بها :. ما أنا كمان يتيمة، فيها إيه أحسن مني ؟ انتظرت موعد الفسحة وتسللت لفصل البنت، دست بحقيبتها رسالة موجهة لها تنضح بعبارات الحب المشتعلة ممهورة بتوقيعه، في البداية دار الحديث بشكل هامس، بعدها قام خيال البنات بالباقي، اتسعت الحكاية، تشعبت التفاصيل، وصلت القصة ملتهبة للناظرة، طلبت تحقيقا فوريا لم يكن لصالح نجلاء، فصلتها وظلت الدكة شاهدة على المأساة إذ حفر سن القلم مشاعرها بعمق ،وعلى الحائط تركت بعض كلمات لأغنية حزينة.

تذكرنا ساندويتشات الرنجة وشرائح الخيار والجزر.. تناولنا الشاي ،واعتذرت عن جهامة زوجها، تعللت بضيق الحال، كانت هي الأخرى على يقين من أن المشروع الإسلامي سيغير حياتهم للأفضل، قلت لها :

. مفيش حاجة تقدر تغير حياتك لو مالكيش رغبة في ده فعلا، التغيير بيبتدي من هنا .. وكنت أشير لدماغي .

مددت النظر للنافذة، كان الظلام قد حل.. تسللت للخارج بهدوء، خرجت من فم الزقاق متلفعة بالليل، مفعمة بالحزن، قدت السيارة في الشوارع بلا هدف، توقفت بشارع جانبي، أشعلت سيجارة ، اكتشفت أنني أمضيت خمسة وعشرين عاما في وهم، فلم يعد للأشباح أي أثر.. كانت العقارب تشير إلى الثامنة مساء حين عدت لشقة روكسي، اندفعت نحو الشرفة، كانت غارقة تماما بالماء، تركتها ودخلت إلى غرفتي، خففت الإضاءة ، جلست بزاوية معتمة، لم أكن على يقين تام بأن مادار بساعات اليوم كان حقيقة .

*****

دقات متتالية على الباب، وبإلحاح، وكأن الطارق يعلم بوجودي، تقدمت نحو الباب بخطوات قصيرة ، دققت بالعين السحرية فرأيت خيالها، رأسها الصغير وشعرها الأحمر الناري، لكنها مبتسمة، مبتسمة وراضية..أدرت مقبض الباب، قبلتني ودخلت تملأ المكان بالضحكات، لم أجد ما أقوله فاكتفيت بتنهيدة وجلست على أقرب كرسي، تكلمت بنفس النبرة المرتاحة :

. فينك من زمان وليه قافلة موبايلك؟ !

كنت غير قادرة على الكلام، بصمت تأملت تقاطيعها، حدقت في وجهي وعادت لتسأل :

- كنتِ فين كل ده؟ !

رسمت على شفتي ابتسامة، بخطوات متبخترة استعرضت فستانها المحبوك وساعة يدها، وخاتما بشكل فراشة، سارت بخيلاء واضح وكأن الدنيا ملكها، وعطرها ملأ المكان، رسمت الذاكرة صورتها بردهة متسعة قبل شهرين، بعزاء أمها، كنت أقدم رجلا وأؤخر أخرى.. السلم ثقيل والضوء يشاغب ومحمد رفعت يرتل تلاوة مباركة، دخلت لأجدها مكومة بالكرسي، غارقة في الأسود، ترتعد من دون مساحيق، بكينا معا لكنه ما إن لاح بالباب حتى هوت مستسلمة.. أدركت لحظتها أن حياتها قد أوشكت على التغيير.

- جوري !.

- ...؟؟

- مالك؟

- لا أبداً مفيش، أنتِ وحشاني قوي.

- مش باين.

- ليه بتقولي كده؟.. مبسوطة؟!..

obeikandl.com

. أكيد.. لو كنت عاوزة أتطلق كنت طلبت الطلاق، كانت كرامتي اللي بتصرخ، عاوزة إيه من ست جوزها سابها وراح لواحدة غيرها .

. غيرك بيرفض، وفيه ناس تانية عاجبها الوضع وراضيه .

. صوابعك مش زي بعضها .

. قلتلك قبل كده .ما تخليش حد يحبك أكتر ما تحبي نفسك ، مفيش حد يستاهل .

. لسه بحبه ومحتاجاله، موتها خلاني أخاف، ما بقيتش أستوعب أي شيء غير ريحة الدوا ،وصورتها اللي مكانتش بتفارق خيالي، عروق جسمها الزرقا، علامات في كل مللي مكان المحاليل والحقن، راس فاضية ما فيهاش ولا شعره، دي كانت بتتوجع من مجرد لمسه، تخيلي! إحساس فظيع تكون بتترعش قدامك وجسمها مولع نار ،وأنتِ واقفة تتفرجي ومش عارفة تعملي حاجة، موت موت موت.. كل حاجة ليها ريحة الموت، الحيطان، السرير، حتى هدومها في الدولاب، أنا خايفه ألمس أي حاجة، حتى الراديو بتاعها سايباه مكانه تحت المخده .

. ليه بتحاولي تبرري؟

. دي الحقيقة مش مجرد كلام.. سابت فراغ كبير. حسيت وحده من غيرها. حاولت أتعايش ومعرفتش.. عارفة.. مكنتش باسمع في الليل غير

صوت نفسي وصوت صفارة القطر، أقفل الشبابيك والبيبان وأترعب لو قطة عدت تحت البيت أو حسيت صوت الشجر بره البلكونة . .. أنا بني آدمة من لحم ودم مش حجر.

. عشان كده رجعتي؟

. عشان كل حاجة.

. شكلك مرتاح.

. مين يقدر ينكر إن الحب جزء من حياة متوازنة ؟ !

. الحب بس؟ !

. أنتِ فاهمة قصدي، فبلاش ترياه.

توجعت بشكل غريب، انكمشت ملامحها، قبضت على بطنها وشكت ألم المثانة ، تذكرت جوليا روبرتس بالفيلم الشهير.. شكت نفس الحالة حين عادت لتضاجع صديقها راضية بهزائمها.. وددت لو أفاجئها بجملة مربكة..فقلت :

. ده اللي بيحصل حبيبتي لما تنقطعي عن الجنس فترة وترجعي تمارسيه كتير ...

obeikandl.com

ارتبكت وتلون وجهها، تلفتت يمينا باتجاه المكتبة، قالت بمكر:

. المعلومة دي في كتاب من بتوعك؟!

. لا دي حقيقة، ده الي بيحصل لما نحب، بنعمل حاجات مضحكة بتبكينا في النهاية.

حاولت أن تجد مبررا واحدا قويا لرجوعها إليه ،ولم تكن في حاجة لذلك ، فالأمر فعلا بسيط، التبست وجها عابسا ،وقالت: إنها كانت على وشك تقديم تنازلات مربكة لتمرر لياليها الساكنة ، كانت تخجل من نفسها كلما لجأت لغرف الشات بالمساء، وتحدثت إلى أحدهم باسم مستعار، لم تكن غير حيلة رخيصة تنقذها كلما حاصرها السأم، تنهدت وزفرت بحدة وقالت حقيقة أعرفها ، فكلهم مزعج، ومقرف، كلهم لحوح يتسلى بأحاديث جنسية مريضة.. كانت تنام فتزورها كوابيس مفزعة، كلها عنه. رأته مرة يبتعد ملوحا بيديه، تجري خلفه ولا تلحقه، مرة استحال ريشة بقبض الريح.. تأخذه بعيدًا بعيدًا، ومرة غرق في بحر أسود، أحلامها بالفعل مخيفة، تحتاج أن تفعل مثلي فتغمض عينها أكثر فلا تبصره.

. برضو هاسألك نفس السؤال، عشان كده رجعتي؟

. كنتِ عاوزاني أعمل إيه؟ أيوه اتصلت ، وقلت له أنا مراتك وليا حقوق عليك، وكان فاهم وحاسس وعارف باقصد إيه. اتفقنا على كل

obeikandi.com

حاجة.. عارفة .. اكتشفت إن لسه دبلتي في صباعه.. طبعا مع دبلة المدام.. بيني وبينك.. أنا ما اتخلقتش للوحدة.. أفكاري مجنونة وفي الآخر باشوف أحلام مرعبة.. طبعا فاهماني !...

. أكيد فاهماكي .

. نفسي أسألك بجد ، أنتِ إزاي متحملة حياتك بالشكل ده؟

. منتظره ... قصدي كنت زيك منتظره .

. مش فاهمة !. أنت مخبيه حاجة ؟!..

. مش مهم... صدقيني ...مش مهم أبدا .

. ضايقتك .؟ !.

- لا ، بالعكس، وحشني كلامنا .

. طيب مالك؟ شكلك مش مبسوط .

. لسه زي ما أنتِ، ما اتغيرتيش، نفس الإلحاح، مفيش حاجة صدقيني أنا كويسة .

. طيب كنتِ فين كل ده.. عديت كتير

obeikandl.com

. شغل يا غيدا .

. عارفة.. ما خلفش لغاية دلوقت .

حدقت فيها بصبر نافذ، التقطت نفسا عميقا، قلت بزهق :

. عادي يا غيدا.

*****

في المرة القادمة حين يضمني ملاذنا من دونك سأتذكر أن أترك قصاصةً دونت بها مشاعري، سأخبئها في أحد جيوبك وأدعي نسيانها، ربما أحشو فراغات جيوبك بكثير قصاصات وأزعم نسيانها أيضا، وحين تواجهني معاتبًا سأفتعل الدهشة وأهرب للغياب .في المرة القادمة سأخبرك أنني لم أعد أحتمل تلك الرائحة بياقاتك، سأخبرك أن عطرها مستفزٌ، وأن ضحكاتك التي تزين وجهك كل يوم ماهي إلا محض وهم، سأخبرك عن وقت طويل مضى من دون أن أضع كفي على صدرك؛ لأدرك أن لي شيئا ينبض بتلك الزاوية المهجورة من ضلوعك، سأخبرك لا شيء يضمني غير صمت العتبات، وغير صقيع المقاعد وغير فراغ الفراش، لا شيء يحتضني غير ذاتي وازدحام افكاري، وجل ما يحتضنني فرحٌ يتوسد صوتك حين تهمس" وحشتيني " .

. جميل جوري، كملي .

obeikandi.com

كنت لا أزال أرى عينيه من خلف زجاج النظارة ومن خلف صفحات الجريدة التي كان يطالعها، تأرجحت صورته في أعماقي، عشت لحظاتنا المنصرمة كشريط سينمائي متعاقب، تحسست أصابعي التي لامسته بشغف، أنفاسنا اللاهثة، كررت بداخلي عبارته الرقيقة" امنحني كلك فما عاد بعضك يكفيني، فما عاد بعضك يكفيني" كدت أقولها بتلك الروح التي تزعجه وبصوتٍ عالٍ، صدمتني صفحات الجريدة بينما تطوى، مررت بعيني على السطور المزدحمة بالكلمات" هروب زين العابدين بن علي إلى السعودية ،وتولي محمد الغنوشي رئاسة الجمهورية بشكل مؤقت". تقمصت وجهًا غير الذي لي وابتسمت، فالعالم يرتج وأنا أيضا..لو أن له قلبا لأدرك، لكنه قطعة من جليد. عاود الانهماك في الأوراق، تجاهل وجودي، كأنني لست أمامه، لم أجد بدا من مبادلته نفس أسلوبه، اندسست أكثر بالمقعد ووجهي مثبت به ..فاستمر يفتش بأدراجه، تفقد حاسوبه ورسائل الجوال، راجع مقال الأسبوع مرتين، ضبط ربطة العنق وإيقاع صوته، حدق بالسقف، سألني إن كان الجو باردًا وقبل أن أجيب أدار مؤشر جهاز التكييف على وضع تدفئة، أعاد تلميع حذائه، داعب كرتي الاسترخاء ومكعب الألوان.. نقر المكتب بأصابعه.. بالنهاية شكى ألم القولون وتشقق شفتيه .

. ممكن ولاعة ؟

نظر لي بتشكك، وشبحٌ هزيلٌ لابتسامة يغزو شفتيه .

. هاتدخني؟!!

.ليه مندهش؟ انت عارف اني بادخن.

. محتاجة تثبتي إيه ؟ !

. مفيش، ناولني ولاعةَ من فضلك .

ناولني القداحة وجلس بتحفز يمعن النظر فيّ .

. جربي تدخني سيجار، فاجئيني بعادة جديدة ...

أشار لعلبة سيجاره بفتور .

. لا .. مفيش داعي، هادخن سجاير، لو هاضايقك ممكن أروح مكتبي .

اتسعت ابتسامته أكثر :

. لا أبدًا ..خليكي على راحتك .

جلست قبالته، بالمقعد ارتكزت بؤرة نصف مضيئة كشفت نصف وجهي.. قلبت القداحة بين أصابعي.. قلت :

. ما توقعتش الموضوع يعجبك برغم إني ما بذلتش فيه مجهود، مش تغيير غريب ده؟ أول مرة أعرف إني من السهل أرضيك .

obeikandl.com

أسند ظهره للخلف بعد أن خلع نظارته .. ظل محتفظا بها في يده اليمنى.

. أنتِ دايما بترضيني ،والموضوع فعلا ممتاز.

. مش عاوز تعرف كنت باعمل إيه الفترة اللي فاتت ؟ !

. سامعك.

. أخيرا قدرت أروح.

. رد بتعبير مقتضب ..

. جميل.

. المشكلة إني مش عارفة أكتب حرف من ساعتها.. مش عارفة حتى أفكر في الموضوع الجديد.

عقد حاجبيه ،وقال:

. عادي، بتحصل، ممكن تاخدي إجازة.

. تاني يا خالد.. أنت ما بقيتش عاوز تشوفني؟! أنا لسه راجعة من إجازة.

obeikandi.com

قام من مقعده بحركة مفاجئة واتجه لمبرد المياه .. ارتشف كوبا من الماء على مهل وتسلل بهدوء إلي مكتبه..بادرته قائلة :

. عموما ما تقلقش، هابعت المقال على بكرة بالكتير .

. مش قلقان، بالعكس أنا واثق فيكي .

قلت بعد أن فشلت محاولتي للعب على وتر اهتمامه :

. ثواني هادخن..

أشعلت سيجارة لأنفث دخانها الذي تحرك في دوامات ثقيلة وكأن الهواء يأبى أن يحمله ..غشيني الدخان وأخفى نصف وجهه .تساءلت في نفسي ما الذي أحاول أن أثبته؟ بالفعل أنا أحترق مع كل حلقة دخان، حتى سُحبها التي أخفت نصف وجهه لم تكن قادرة على ابتلاعه، أخفى جموده شبحا لتساؤل لم أجرؤ على النطق به ،ولن يجرؤ على تكذيب إجابته، هو فعلا مهتم، يود لو يحتويني، أو أن يلقي السيجارة بعيدا، أو أن يزهق وهجها ببرودة المطفأة ويدفن وجهه بي، ربما يود لو يصفعني لأفيق، أعده بآخر حلقات الدخان سأتحرر من وجعي وكثيرا منه.

*****

obeikandl.com

كان مساء اليوم التالي أكثر اختناقا، ارتشفت قهوتي على مهل، طاردت عيناي الضجيج خارج النافذة.. التقطت من أصواتهم ما يدفع برودة الإحساس، من أضواء اللافتات ما يقلص انحناءات المتاهة فيتقزم الوقت والمسافة، تكثف البخار على زجاج النافذة، رسمت قلبا منحته حرفه وعدت للداخل أتفقد بريدي.. فاجأتني رسالة من مجدي .

عزيزتي الأقحوانة" :هل إذا عدت بأكبر قطعة شوكولاته في العالم منقوش عليها اسمك تغفرين غيابي !هل إذا جئتك باسطوانة "جوليا بطرس" الأخيرة تفعلين .! وربما تسألين نفسك لماذا "جوليا بطرس" بالذات، لو انتظرتِ لأجبتكِ من دون سؤال، ولكن كالعادة يطاردني فضولك كلما تفوهت بشيء على غير قناعاتك، اسمحي لي أن أقول إن تلك الـ "جوليا" تشبهك تماما، لها مثل تحليقك يا فراشة، هل تغفرين إذا عدت بشيء يشبهك فيكون رسولي إليكِ؟ هل تغفرين إذا مر بيننا ألف عام ،وعدت كحلم تسرب الريح حزنه ؟ فليس للسجين غير أن يُسِّرِب حزنه للريح" .

لا أعرف أبدا من فينا عليه أن يعتذر للآخر، خلت الأيام أخيرا منحتني بعض السعادة، لكنها تأبى، وكأنني أبحث عن حصاني الأشهب بقلب عاصفة شديدة الوطأة، وربما أبحث عن الهدوء بثكنة عسكرية، ماذا يمكن أن أقول ؟ في لحظات استعدت ما مضى، مرت الوجوه أمام عيني وتلاشت وبقى وجهه هو، أعوام مرت منذ لقائنا الأخير ،والآن أستعيد حزن فراقنا الأول، ماذا يمكن أن أقول له؟أخذت أجمع

الكلمات التي سأقولها فور أن ألقاه، أعدت صياغة الجمل، رتبتها.. سأقول .. ماذا سأقول؟ ..أأقول أحببت رجلا اخترق الظهيرة بسهم نافذ.. فقتلني.. كل الحروف تخذلني، تتسرب من جب أفكاري لتحت هدومي في ليلي البارد فتمنحني المزيد من الصقيع .الصمت لغة محكمة الصياغة تفسدها آهة.. آااه مجدي.. ماذا عساي أكتب لك..

" ليس للحنين من يقين سوى الدموع ، كيف تفعل ذلك بي؟ سامحك الله.. أبكيتني ..ما الذي فعلته لك فتبكيني ثم تضحكني ،وربما بسرك تضحك مني.! أتدري...أتأمل صورة ابنك الآن، وأستعيد الأيام الخوالي، إن جاز لي التعبير؛ فلم يكن كذلك بكل أسف، أسترجع شيئا مما كان، ألم نتفق أن بعض المبكيات مضحكات.. ربما لسن بلذة قذفك بالوسائد بليلنا الطويل، أتذكر مجدي ؟ يا للغرابة وكأن لقلوبنا حاجة أن تبلى؛ فترتاد الممر الموحش للذكريات !.مجدي..طفلك يشبهك والرضيعة كلها أمها، هنيئًا لك، كل ما أردته بين يديك الآن، قبل أملَ نيابة عني.. لا شيء جديد هنا، أما عن جوليا فأعتقد أنني اكتشفت مؤخرًا تشابها بيننا، جميل أن لاحظته .ملحوظة/ لم أفهم ما الذي يعنيه التاريخ الذي ذكرته برسالتك السابقة، ما الذي تقصده؟ هل تعني ما فهمته .؟ أرجوك قل نعم."

في تلك الليلة حلمت أنني اجتزت النهر بقارب تغطي قاعه أوراق الشجر، خيل إلي أن مجدي بالضفة الأخرى ويلبس حلة بيضاء، كان واضحا برغم الضباب، مبهرا بكتفين مرتفعتين وصدر عال، فيه من

المهابة ما يأخذ اللب، ظل مبتسما بوداعة، كدت أصل إليه بينما القارب يخترق الماء وحده من دون مجداف، كلما تقدمت ابتعدَت الجزيرة، كل ما أردته ألا يختفي وجهه الأسمر أبدًا.. دار القارب دورة كاملة وحين التفت للجزيرة كان مجدي قد اختفى ليحل محله خالد ، صرخت بصوت عال، كان الصراخ من القوة بحيث وصل لأذني .. قمت فاقدة السيطرة على جسدي ؛وكأن كل جزء مني يمارس حركته الذاتية، بعثت الإضاءة بمفتاح الغرفة، تأملت كل شيء، إنه الفراش، إنه المصباح الجانبي، إنها المرآة، جهاز اللاب توب، الجوال، الساعة، دبابيس الشعر، أوراقي.. حوريتي الخزفية ..وقلب باهت كنت رسمته على الزجاج.

*****

الأربعاء،١٧ يناير ٢٠١١ ، الثالثة صباحا، مطار القاهرة، صالة وصول ٣

همهماتهم تتداخل، بقدر بسيط من التركيز يمكن إحالتها لكلمات وجمل، صوره التي يرسلها بالبريد الإلكتروني تظهر اختلافًا كبيرًا ، نبت له شارب جميل ولحية حرص على تشذيبها، زحف قليل من الشيب إلى رأسه، ما زالت لم تفارقه ابتسامته الخجولة ،ونظرة عين بها مسحة شجن، هربت من إلحاحه بالزيارة، كنت أدرك أنني لو ذهبت لم أكن لأعود، ربما كان قرارًا صائبا لو اتخذته في وقته لنجوت من وجع يفتك بي، ربما تبدأ العودة من صالة مغادرة بمطار أو حتى بقطار، فتشت

عنه بينهم، يفصلنا زمن وما زالت صورته القديمة بخيالي، تفرست فيهم، انتظرت تلويحه خاصة، دققت النظر، ربما يكون رجل النظارة الشمسية، لا ربما يكون رجل القميص الأرجواني، ربما رفيق الجريدة، لالا ..اللحية .. اللحية . مجدي بلحية مشذبة وشارب، نتواصل بالكاميرا أحيانا.. عليّ أن أذكِّر نفسي، مجدي بلحية وشارب.. بلحية وشارب.. شردت بعيدا حتى جاءني صوته ..

ـ جورية.. مالك .. مش عارفاني ؟ !

التفتُ إليه، لم يكن أمامي بعد أن رأيته إلا أن أذوب في صدره، أو أن أختبئ بأحد جيوب معطفه، اندسست كخبيئة بحضن زمني، يااااه ، نفس الرائحة.!. لم أتمالك نفسي حينذاك، طفرت من عيني دموع ساخنة غسلت وجهي، بكيت بصوت عال ،وأنا أردد بهيستيرية : "ياحبيبي يا مجدي "انعقد لساني على تلك الجملة، وكأن قاموسي كله توقف عندها، كاد قلبي ينفطر من بين ضلوعي بينما أرددها .

أزيز الطائرات يمتطي السماء خلفنا، كل اللحظات تتشابه ما بين مجيء ورحيل، العمر يفر على اتساعه، والبشر مجرد أوراق شجر. كانت الأجسام الشفيفة العالقة بالفراغ تكشفها هالة الضوء المنبعثة من مصباح السيارة، بدت وكأنها ترقص وربما تحتفل، ضبطت المرآة الأمامية لأنعم ببريق عينيه، فأعادها لمكانها كما كانت :

obeikandi.com

. خدي بالك من الطريق.. وخليني أتنفس براحتي، محتاج هوا.. في البيت هانتكلم كتير.. كتير جدًّا ...

لم نتبادل الكلام بعدها.. بدا أنه غفا بالكرسي، وحين وصلنا لمست كتفه، انتفض فزعا، عقدت الدهشة حاجبيه ومد بصره خارج النافذة.. صعد السلم بتثاقل ..كان مجهدا بينما يخطو خطواته الأولى داخل الشقة، قطعت عيناه الصالة بكسل حينها شغلت زاوية الرؤية أريكتي الحمراء.. دفن نفسه بها مسترخيا ..

. محتاج أنام كام ساعة بعدها هاتعرف على العالم بتاعك بتفاصيله.. هنام هنا.. هاتيلي غطا ...

صباحا، أعددت الإفطار، فاجأته بقذيفة هي وسادة، تحسس صدره بفزع.

. إيه ده. أنا فين ؟ !

. أنت في روكسي.

. حاسس كإني لسه هناك، وكأن "لين" نايمة في صدري.. تصدقي، ما بتعرفش تنام غير كده.

فرك عينيه واعتدل، تأملت لحيته .. مددت كفي لألمسها فابتسم.

obeikandi.com

. وحشتني يا مجدي .

. وأنتِ كمان وحشاني قوي، وكل حاجة هنا وحشتني بشكل غريب .

. أشك .

. ليه بتقولي كده .. في الأول افتكرت إنه مجرد حنين هيستيري كل ما تيجي سيرتها ، بعدها الإحساس بيقل شوية شوية لما تفتكري كم القبح غير العادي، الناس تعبانه هنا ، أحلامها محدودة، مخنوقين بالزحمة والزبالة اللي في كل مكان، ليه ما بتكتبيش عنهم؟ وليه دايما صور مواضيعك ملونة كده؟ !

. كل الدنيا فيها وفيها، أنت بس اللي مش عاوز تشوف غير اللي يخليك تهرب بضمير مرتاح .

. الوضع ف لندن فعلا مختلف.. هناك قادرين يقاوموا بطرق كتيرة، بيشربوا شمبانيا في الكريسماس، بيصاحبوا، بيحبوا بشكل مثالي، بياكلوا بشكل مثالي، وبرضو بيشتغلوا بشكل مثالي، بيحتفلوا بمناسباتهم طول الوقت ..بيستنوا سانتا كلوز من السنة للسنة، بيتلموا قدام دفاية ويتكلموا ويمكن يتعاتبوا، بيرقصوا، بيغنوا، بيتمتعوا بكل لحظة، بيتمردوا يا جوري بشوية جنون .. إنما إحنا هنا مندفعين للجنون بجنون.. ده الفرق اللي بينا وبينهم .

. لسه بتحبها ؟!

. لسه مبهورة بالحياة هناك، الانبهار عادة بيختفي بعد سنة.. اتنين يمكن، إنما خمستاااااشر سنة.. ده كده.. باعتبره مرض مزمن، زي غيرتها المجنونة.. إحنا تقريبا ملناش أصحاب ، بيتنا عبارة عن لوحة سريالية كبيرة ،كل حاجة فيه بتشتغل بريموت كنترول .. بس هي الوحيدة اللي عارفة مكان مفاتيحه ..

فرك كفيه بقوة ونفث فيهما ...

. الجو برد؟ أقفل الشباك؟

. مش للدرجة دي.. تعالي لندن وهاتعرفي البرد على حقيقته .

. بتابع النشرة وعارفة ..

. برد لندن رخم.. لكن كل ما ضميتهم حسيت ذنب تجاهك، كنت بأسأل نفسي طول الوقت يا ترى عامله إيه؟ عايشه إزاي؟بتضحك ولا بتبكي؟.مسامحاني ولا بتدعي عليا في سرها؟ مش متصالح مع فكرة إني سبتك..

غمرني حنينه الجارف بفرح طفولي ،وانتزعت ابتسامة أحبطتها جملته ..

obeikandl.com

. عارفة إنها بتغير منك ! باحكي كتير عن أقحوانتي الجميلة، فترد بكل عصبية وتقول وكأن مفيش أقحوانات غيرها.. هي ما تعرفش إني بردان من غيرك.. حتى وهما معايا .

. لسه ما تعودتش؟.. مش غريبة؟!

. فعلا مش قادر.. ليلنا طويل يشبه فنجان شاي في ليلة باردة ، تلفيه بين صوابعك عشان شوية دفا، وتسيبيه شوية فتبردي وتيجي تحضنيه من تاني تلاقيه برد . قطب حاجبيه، وقال بحسرة :

. دي بطلت تكتب شعر .

تأملت انعكاس صورتي بعينيه العسليتين، إحساس بألفة جديد يتسرب للمكان، لم تكن الإضاءة مزعجة، ولم تكن حتى مبهجة، كانت بقدر محسوب تمرر هالةً مرتعشةً لحزمةِ شاحبةٍ ترمز للشتاء، كان من حين لآخر يرسل نظره للصورة بالإطار الخشبي، وخاتم الزواج على حافة قاعدة المرآة، وكنا نطرق معا أبواب الكلام .

. تعالي نخرج .

. نخرج !

. أيوه نخرج .

obeikandl.com

. زي ما تحب .

قلتها بقلق تحفزه رغبة في الكلام .. ولم لا.. فمن الممكن جدا ترك السيارة بالدراسة، يمكن أن أتعلق بذراعه فتذهب عني رجفة البرد، أن نهبط سريعا باتجاه الجامع الأزهر، وندلف للغورية، يمكننا تفقد البازارات والجلوس بأحد المقاهي. يمكننا أن نرسل أعيننا برحلة قصيرة للزوايا فنلتقط المصابيح الملونة، والنقوش النحاسية الدقيقة، يمكننا أن نرتشف كوبين من الشاي معطرين بالنعناع، وحين يغمرنا الدفء ويتسرب من شفتينا البخار، يمكنني بكل وضوح أن أصرخ، أن أقولها: نعم تزوجت وتركت قلبي معلقا بالخريف كما الخاتم على الحافة، سأقول: تزوجت في حين أغادر المقعد لأقف أمام الباب العالي فأستشعر عظمته وتقزمي، يمكنني أن أفعل ذلك كله بينما أدور بحلقات حول عمود الرخام الكبير، أدور كراقص المولوية حتى يفاجئني السقوط بينما عينه المعلقة بساعة بيج بن غير مهتمة بي .

. معقول ؟!..

ابتسمت قائلة :

. أيوه معقول .اتجوزت.. لما نخرج هاحكيلك كل حاجة .

. ليه ما قلتيش؟

. ما تستعجلش .

قلب شفتيه بامتعاض وقال : . على راحتك . بس محتاج للنت.. عاوز أطَّمِن عليهم .

. اللاب عندك، سلم عليهم وبوس "لين" و "يوسف ". سكت للحظة وتابعت .. وأمل طبعا ..

أمضى على اللاب توب قرابة ثلاث ساعات..أخرج من جيبه ورقة وقلما وأخذ يدون بشكل سريع، تركته وذهبت لإعداد الغداء،

في الطريق كان الشباب يرفعون لافتات تندد بمقتل الشاب السكندري، لافتات تحمل صورة لوجه مشوه وتدين جهاز الشرطة واستغلاله لقانون الطوارئ، كانت الأصوات عالية وطغت على كل شيء، استدرت بالسيارة لشارع جانبي تجنبا للزحام..التفتُّ إليه لأجده مشحونا، قال بلهجة ملؤها الحماس" كنت عارف إن ده هايحصل.. كل حاجة توحي بكده".. بالخارج تأبطت ذراعه لسعتني نظرات الدهشة حين تأمل كل الأشياء ،وكأنه يعيد اكتشافها، جلسنا على المقهى المقابل لجامع الحسين، طلب فنجان قهوة مضبوطة وطلبت واحد زيادة.. كانت الشمس تقترب من الغروب، مخلفة وراءها بعض الأشعة الفضية، تسللت من التعريشة محملة بالنسمات، على يميننا حائط من الحجارة القديمة انتشرت عليه رسوم وبقايا أسماء وخطوط ودوائر متداخلة، كلها بالطباشير الأبيض جعلت الجدار لوحة تعبيرية

عنوانها الذكريات، كان واجما، تطلعت إليه متسائلة لكنه لم يرد.. ارتعشت شفتاه محاولا استدراج الكلام واختلق ابتسامة..مد يده إلى فنجان القهوة، احتسى رشفتين وأعاده إلى مكانه .

. بتفكر في إيه؟ زعلان مني ؟ طب ليه ؟! ..أنا معملتش حاجة أكتر من اللي أنت عملته ..إحنا جرينا لأبعد نقطة في الكون، كل واحد بطريقته.. ومع ذلك إحنا الاتنين قلقانين من بكره اللي مش عارفينه ولا عارفين عاوز مننا إيه، إنت لحد دلوقت مستني قصيدة جديدة تكتبهالك، وأنا زيك يمكن مش منتظره قصائد بس أهو منتظره وخلاص .

رفع حاجبيه مندهشا لكلامي ؛فتحمست للكلام ، وقلت :

. طيب هاقلك على حاجة ويمكن تقول عليَّا مجنونة.. أنا بأقنع نفسي كتير إني سعيدة عشان ما أزهقش وأقدر أكمل.. صدقني .. ساعات باكلم نفسي بصوت عالي زي أمك زمان.. فاكر يا مجدي؟! ساعات أقول لجورية اطمني .. بكره هايكون أحلى، طالما قادرة تنطقي اسمه جواكي وتبتسمي .. متأكده، هاييجي اليوم وتتعرفوا على بعض، وقتها بس هاتقول كان عندي حق .

. يمكن آه ويمكن لا ...

توقفنا لبرهة... التقط نفسًا عميقًا، ما الذي كان يفكر به حين خلع المعطف بهذا الطقس البارد ...

. تعرفي أوقات لما كنت بمشي ف الشارع وأشوف العيال الصغيرة ،وهي بتلعب وطول الوقت بيخترعوا ألعابًا بسيطة لكن بتفرحهم وبتخلي ابتساماتهم بوسع البراح.. اللي يرسم مربعات على الأرض وينط ما بينها، واللي يعمل قراطيس ورق مليانه هوا يبيعها للعيال، واللي يقعد شوية عيال قدامه ويعمل مدرس وهم التلامذة أو عسكري وهم الحرامية، واللي يشخبط على حيطة الجيران ... وقتها باحس عمرنا ما كنا عيال. عمري ما شفتك بتلعبي أبدًا .

. أنت لسه فاكر.. ههه .. طيب تعرف ساعات باتمنى أرجع صغيره عشان أجري أجيبلها ورد من جنينة الميدان، وأنا راجعه باتوقع شكلها أول ما تشوفني داخله..وقد إيه بتكون مبسوطة ..

. وكل ما نيجي هنا هانشوف ونسمع ونحس نفس الحاجات، كأن السنين مش بتمر، نفس الصور زي ماهي، الزحمة، الناس، الأرصفة، الروايح، البضايع، الألوان واليفط، يااااه، وكأنهم مش خمستاشر سنة ..لا إستني – حدَّق عميقا بساعته -وقال : خمستاشر سنة وشهرين ويومين وتلات ساعات وكذا قارة .. لما سبتك كنت بادور على جودو، وزي ما أكون لسه مستني، بس الغريبة، ما شفتوش هناك،

ساعات بأسأل نفسي مش يمكن يكون كذبة ،وإحنا الاتنين صدقناها عشان يحصل اللي حصل ؟ !

. كلنا في انتظاره يا مجدي.

سادت لحظات من الصمت قطعتها حركة بائعة الترمس على الرصيف المقابل، كانت تجهز مكانها، ما إن استقرت حتى نهض إليها،التقط قلة من أمامها وشرب في نهم لدرجة أن ابتل صدره، ابتسمت السيدة بوجهه وأشارت لحبوبها الصفراء، ناولها نقودا فجهزت طبقين وتبلتهما، حملهما وعاد إليَّ .. لم نستسلم للجلوس فقمنا، تمشينا باتجاه البازارات، الشارع أكثر دفئا بحلول الليل، كان يشتري من كل شيء، يشير للبائع بأصابعه فينزل الملابس، يقارن بينها وبين قياسي، يقربها ويبعدها، يرفعها ويدنيها، عباءات مطرزة برسوم فرعونية وأخرى بتطريزات هندسية متداخلة، ينتقي واحدة فواحدة، يسألني :

. رأيِك؟ .. ويتابع،

عادت بعض الأحاسيس المبهجة، شدني من يدي لبازار آخر يبيع المصنوعات الجلدية، شنط بأحجام وأشكال مختلفة، أحذية من الجلد الطبيعي بنعول مريحة من الكاوتشوك، وأحزمة بكل القياسات، هرع عامل المحل وعرض بضاعته بسخاء..بعدها حمل عنَّا الأكياس للخارج ، سرنا باتجاه السيارة ،وقبل أن ندلف.. التفت رافعا أنفه :

- حلوة الريحة دي .. بليلة .. مش كده؟ !

ضحكت من رغبتة القوية بتجربة كل شيء.. قلت أيوه بليلة .. قال مازحا :. ترمس وبليلة وقولون ...

اتجهنا للبائع ذي الجسد الضخم والكرش المتهدل..اخترنا مقعدين على الرصيف مسحهما الرجل بخرقة نظيفة، ألقى نظرةً فاحصةً لنا .. أشار له مجدي :

- ياريس .. طبقين بليلة لو سمحت .. زود القرفة والفانيليا .. هاخد طبق كبير، وأنتِ ؟

- لا، متوسط، وخليه يزود القرفة والفانيليا .

- لسه زنانة ..مفيش فايدة .. زفر عميقا وقال:

- نفسي أعرف ليه خبيتي عني ؟ !

- بيننا عقد جواز رسمي وشهود، عاوزاك تطمن .

قاطعني ملتبسا بنظرة جدية .

- شفت صورته في البيت ودبلة جواز على رف.. بس فيه صورة تانية ما اتكلمتيش عنها .

. صورة مين؟

. صورة لست غيرك .

. أي ست . إيه الألغاز دي؟ !

. اسمعي يا جورية.. شفنا المشهد ده ف أفلام عربي قديمة، على فكره شفناه سوا بس يظهر إنك نسيتي أو عاوزة تنسي. مشهد ممل لناس بتعيش حياة مزدوجة، ست شيك بتوفر واجهة اجتماعية محترمة وولاد صغيرين فوق بيلعبوا وبيحفظوا دروسهم، ويمكن ساعات يختلفوا ويضربوا بعض، حفلة كبيرة تحت على شرف أي حاجة لناس ماتعرفش حاجة عن الشرف، وناس من كتر الدخان وشوشها مش باينه، ناس تافهة الحياة عندها مش أكتر من رحلة لأوربا كل صيف وزيها للساحل كل شتا. تفاصيل باردة تمام زي صورة كبيرة متعلقة عالحيط، فيها اتنين بيمثلوا السعادة بابتسامة كدابة، قدام الكاميرا بس.. ست عارفة كل حاجة عن جوزها ،ومتأكده إن فيه عشيقة في الضل..بس كل اللي شاغلها خصلة شعر بيضا ماطالتهاش الصبغة، بذمتك فيه اسوأ من كده؟

فهمت ما يرمي إليه وادعيت السذاجه، قلت بابتسامة ماكرة :

. عاوز تقول إيه ؟

. ببساطة شديدة عاوز أقلك إن كل واحد م الناس دي مخبي داعر جواه، وكل واحد فيهم مستمتع بالكدبة لمجرد أنها ألوان بتخبي كآبته، الفرق بيننا وبينهم إن صورنا متحركة وحية وصورهم مخيفة وثابتة، ده اللي يخلينا بنتوجع أكتر منهم ،إيه يجبرك تتحملي كل ده؟

. انااا .. قاطعني بحدة قائلا:

. بصراحة أنا مش شايف مبرر وأنتِ كمان مش مضطرة تقبلي.. إحساسي .. طبعا مش مبسوط .

. يعني !.

. تعالي معايا، لو عالشغل فيه كتير. عندي معارف في كل مكان، الموضوع فعلا بسيط صدقيني .

. مجدي، أرجوك، أنا مش خاطية .. ده جواز رسمي ولو موجوعة مش هاشتكي لك، ومش لازم تهتم.. سايبة مساحة للاحتمالات يمكن الوضع يتغير، ولو ما حصلش مش هاموت، ما تخافش عليا .

. وعدتيني يا جورية ، وللأسف ما نفذتيش وعدك.. ليه يا جورية ؟ ليه؟ !

obeikandl.com

. قدر.. دي الإجابة الوحيدة على سؤالك .. وضعه كزوج فرض حاجات كتير كان لازم أقبلها في وقتها .. أرجوك يا مجدي ..حاول ما تلومنيش ...

جلس مطأطئ الرأس، كان يرفعها كل حين بمرارة لينفث دخان سيجارة أو ليلوك حبات البليلة مضطرًا، حاولت إذابة جمود اللحظة، ربتُّ على ظهرِه، احتضنته أناملي بلين فرمقني مستسلما وقال:

. يا ريتك ما قبلتِ .قام متباطئًا من مكانه، ناول البائع ثمن البليلة، تبعته صامتةً، تعلقت بذراعه فتركها لي بوجوم، دلفنا إلى حيث وضع الباعةُ طاولات تزخر بتماثيلٍ وأحجارٍ وعلبٍ من الصدف، تشاركنا اختيار منحوتات خشبية منوعة كتذكارات، سيهديها لرفاقه حين يعود إلى لندن . غريب أن يختفي كل توتره، ويهدأ كل الفوران بداخله بعودتنا؛ ليجد بصندوق بريده الإلكتروني رسالة منها، ما الذي تضمنته حتى يرسم تلك الضحكة المرتاحة، وتستقر ابتسامةٌ وادعةٌ بوجهِهِ حتى الصباح ،لا أدري.

*****

لأيام أنتظر رده على رسالة كتبتها من تسعة أحرف ،وكانت " م. م. ك. ن . ن . ت .ك .ل. م" . أدهشني صموده، فكل ما بيننا الآن لا يمكن التنبؤ بمساره، ولا لأي مدى يمكن أن يصل الزمن القصير الذي تشاركناه، لم تعد قبلاتنا المختلسة مهما كان زمانها ومكانها قادرة أن تمحو الضجر بيننا، ولا أن تخفف الأثر السخيف بعدها، ولا صعوبة منطقه حين

يبرر رفضي لها، هذا التناقض المضحك المبكي بات يغلف كل شيء، ضجرة كنت أترقب فجرًا جديدًا قبل أن يذبحني عمدًا ب Sign out أبدية .

صحوت اليوم على واقع مفزع، صور لهما على حائطه الافتراضي.. ما الذي يحدث ؟ مارشات صخب حادة تتوالى بجنون، موجة من التوتر تلتهم أعضائي، أسمع إيقاع أنفاسي اللاهث، أشعر باستنفار حواسي وألم يسحق جمجمتي، أود لو أصرخ، أو أن أنتزع قدمي المغروستين في الأرض لأفاجئهما بشرم الشيخ ، كل ما حولي مقيد بسلك شائك حتى أنا، هل يدرك ما أعانيه الآن بينما يستمتع؟..هل خطرت على باله حين عانقها بكل هذا الهيام ؟ هل تذكرني لحظة جمع الأصداف؟ هل زرت خياله وطفلتاه تهيلان قصر الرمال؟ تابعت الصور بعينين غائمتين.. الضباب يغشى الفضاء لا يتيح لي غير مشهد واحد لهما بالفراش، يطارحها الغرام بجناح مقمر، ذبحتني خربشاته على جلدها، سمعتها تتآوه فيلملمها كقطة، ترمي شعرها الأشقر على كتفيه، تغمض عينيها بدلال، وتتقوقع داخل صدره، أرهقها صدامه فاستسلمت، لن يتوقف قبل أن يفرز رائحته في جسدها، حتما هي مبتلة، ربما تبتسم الآن بين ذراعيه، ليته يعيدها للنوم؛ فننعم بالسكون .

ماذا لو كتبت له أنني مجروحة وأن ألمي يفوق التصور، تراه يهتم؟ كيف انتزعته مني بتلك البساطة؟ لماذا صدقت كلامه عن علاقات الزواج العادية المملة؟ كيف أواجه بثورة لأرفض علاقة تجمعهما

لتشطرني نصفين؟ ولماذا عليّ أن أكون الأكثر حرصا على استمرارنا ؛فأحفظ رائحته ومذاقه وصوته وسكونه؟ كيف أقاوم جنون مشاعري؟ ولماذا أدفع وحدي ثمن الكتمان ؟ قلبت الصور، تفقدت ملامحهما، قربتها.. أبعدتها، قارنت بين خطوط وجهيهما وزاويا الابتسامات، تراه حين أمسك بذراعها بتلك الصورة قصد شيئا ما؟ أعرف تلك الحركة، وكيف تدفع لركن ما بزاوية ما لتنتهي بجحيم ما، في الجهل رحمة، لكنني الآن أعرف أكثر، ليست تلك بحالة رجل يعاني الضجر ،ولا هذا الوجه لامرأة تعيسة، ثمة دفء يشع منهما، كيف يكون ضجرا ،ويكتب بمثل هذا الصفاء؟! اختفت لسعة الوجع وحلت انتفاضة الزلزال، عدت لصفحته الشخصية ،وفعَّلت الرسائل وكتبت" ما أشد طغيانك أيها الخالد، ببساطة أخرجتني من جب حياتي، وتركتني حائرة بين علامات الطريق، هل كنت تعنيها حقا حين قلتها؟ هل كنت ؟ هل قلت لها نفس الكلمات؟ هل قلت؟ هل جئت بي الليلة إلى سريرك ؟ هل فعلت؟ هل غفوت بين ضلوعها؟ هل استمتعت بمداعبة نجومها حتى إذا ما أغمضت عينيك شهدت ميلاد سيلينا جديدة ؟

جاء رده متأخرا .

. تاني يا جوري؟ !

. تاني إيه؟ !

. ليه بتبعتي الرسائل دي؟

. إنت مش شايفني ،ولا أنا سمعاك .

. وضع مؤقت .

. وضع سخيف .

. فوقي يا جوري.. ما تضيعيش اللي بيننا .

. مش مصدقة، أنت واعي للي بتقوله ؟ !

. مجنونة أنتِ أكيد، أنا ما قلتش أي حاجة .

. مجنونة لأني بحبك !

. لو ده حقيقي اتحملي .

. مش قادرة ، باتخيلكم مع بعض طول الوقت وده معذبني .

. دي مراتي يا جوري .

. ليه ما بقيتش تقولها .؟ !

. طبعا بحبك .

obeikandi.com

. لحد إمتى؟

. إديني فرصة.

. مش هاتشوفني تاني ياخالد.

. براحتك.

. أنتَ ما صدقت!

. أنتِ محتاجة وقت عشان تهدي.

. يعني!.

. مش لاقي كلام.

يتكرر الكابوس يوميا، أقبض على المقودِ بعنفٍ، تحتشد بي طاقةُ غضب لا يمكن إخمادها، تتمثل بسيارة دفعٍ رباعيٍ أقودها بجنون، الحافة على امتداد الرؤية، تقترب وأقترب، أحاول بكامل طاقتي جذب المكابح، ضغطها، لا شيء يفيد، تواصل ال Jeep زحفها نحو الحافة ويغمرها الغبار، إنها النهاية حتمًا، تجذبني الهاويةُ، أسقط..أصرخ.

أفزعني طرقه المتواصل على الباب، نهضت أتطوح لأفتح وعدت إلى الفراش فارتميت كجثة واحتضنت حافته. دخل مجدي فاعتدلت.

obeikandl.com

. مالك، أنتِ كويسة ؟

. كابوس .

اقترب من السرير وجلس قبالتي .

. تحبي تتكلمي ؟

أومأت مجيبة بنعم .

. لسه بتحبها.. سألتك وما ردتش؟ !

. مش هو ده السؤال.. الموضوع مش كده خالص .. الفكرة كلها إننا بنكمل بعض ..يعني حتى لو حاولنا نبعد لازم نرجع. كل واحد فينا بعيد عن التاني بيشبه بازل ناقص؛ يعني لازم تكملي القطعة الناقصة عشان تكمل الصورة، ولو حسينا ملل فيه اختراع لطيف اسمه إجازة زوجية، وقتها اللي عاوز يخرج بيخرج ومفيش أي احتمال للضياع، في النهاية بنرجع صدقيني.. وأفضل م الأول بكتير .

. مش فاهمة ..

. لما فقدِت جنيننا الأول مكنتش فاهم ولا مستوعب تأثير ده عليها، وقتها كنت بأمر بأزمة في شغلي خلتني أسيبه، كنت تعبان فعلا ويمكن كنت أكتر منها احتياجا لها، كانت لوود مستمر، ومكانش يعدي يوم من غير

obeikandl.com

مشكلة، كانت بتبعد يوم ورا التاني. نفسيا أقصد وما رجعتش غير لما زميلتي"كلارا" اتصلت تكلمني عن وظيفة جديدة بعائد مادي كبير.. سَكَت للحظة ،وقال.. فكريني أوريكي صورة كلارا .

. برضه مجاوبتش !

. الأزمة يا جوري إنك تكوني بس قادرة تحتفظي بحد في حياتك لمجرد إنه بعد عنك شوية، أو لو حسيتي خطر، حتى لو مش حقيقي .

. دلوقت أموركم أفضل ؟ !

. مش دي المشكلة إنما الإشكال الحقيقي في الأسئلة الكتير اللي عادة إجاباتها واحدة وما بترضيش.. يعني بس لمجرد إنها عاوزة تطمن طول الوقت بتسأل: بتحبني؟ أيوه بحبك، ليه؟ لأنك حبيبتي، وليه أنا بالذات؟ وليه مش غيري؟ لأن مفيش ست زيك، مش بتقولها زي زمان! سامحيني، مش بتبوسني! مرهق .. تعباااان. ياااااه يا جورية .

. للدرجة دي؟ !

. وأكتر.. طول الوقت شكوى ومن غير داعي، نسيت عيد جوازنا، مش عاجباك تسريحتي، مش واخد بالك من فستاني، شايف عيوبي. مش عاجبك أكلي، فيه إيه دونات كلارا عشان تحبه أوي كده؟ !

obeikandl.com

. ماكنتش فاكرة الحياة بينكم بالشكل ده !

. اسأليني عن معنى الحب ياجوري مش عن حجم مشاعري .

. قول .. سامعاك .

. الحب هو إني أكون قادر أستمر برغم كل الصداع ده.

*****

أمسى الكابوس لعنة تطاردني كل ليلة، وكنت أضيف إليه كل مرةٍ رصيدًا جديدًا من التفاصيل، في الليلة الثانية رأيت أمي بزاوية بغرفة زرقاء ، تابعَت مشهد السقوط من فوق كرسيها المتحرك عبر جهاز تلفاز قديم، صرخت صرخة نصف موءودة تبعتها كثير همهمات، قبل السقوط بثوان تركت كرسيها المتحرك لتتبعني، ولكنها سرعان ما انهارت بنصف المسافة، استطعت أن ألمحها تعيد نفسها للكرسي بعد أن التهمني الفراغ ، وفي ليلة أخرى شاهدت الغانية تلوك العلكة وتعيد تلوين شعرها، استندت بمرفقيها على كرسي أمي، ونادت علي ليشهد انزلاق ال Jeep من أعلى الحافة الصخرية، ندت عنهما ضحكة مجلجلة، بعدها طالبها بتغيير القناة فألقمته كرة زلابية بفمه، وعاد ثلاثتهم للداخل، في الليلة الرابعة وجدت أبي يتوسطهم بمائدة مستديرة بنفس الغرفة الزرقاء، قلت لأربعتهم قبل أن أركب الجيب أن عليهم تغيير القناة مقدما إن لم تكن لديهم رغبة بمشاهدة غير ممتعة

obeikandi.com

لسقوط مريع، لكنهم أصروا على المتابعة، كان أبي بنصف شارب ونصف عين مغمضة، ونصف وجه عابس، وكان كفه يتحسس فخذ الغانية تحت المنضدة، بينما الكف الأخرى يضبط صورة التلفاز، كانت السيدة القعيدة تتابع باهتمام وكانت ساقاها ترتعشان، استمر علي يلتهم الزلابية، واستمرت أمه تتشدق بالعلكة شبه مغيبة واستمر أبي يداعب فخذيها، بينما ال Jeep تواصل زحفها نحو النهاية، وعجبا لي مازلت أتابع وأواصل السقوط.

لا أدري كيف استطعت النوم دائما بين كل سقطة وأخرى تشكلها كوابيسي؛ لكنني أفقت على وجه مجدي، كان يحدق في بعينين جزعتين، وكانت الغرفة تشبه غيمة رمادية بعد أن تسلل لها ضوء الفجر الخفيض.

. أنتِ بخير.؟ !

. كانوا معايا في الحلم.

. كنتِ بتصرخي، مش ممكن يكون حلم، ده كابوس.

. كلهم كانوا هنا... وأمك.؟. وأمك و...ااب

. لسه حاجتها عندك ؟ !

. دبلتها لسه في صباعي وصورها القديمة وشوية هدوم .

. تعالي نزورها .

. وعدتني هانروح كل سنة ،ومن يومها أنت في لندن وأنا هنا ، كل ما افتكر آخر مرة كل خلية ف جسمي توجعني .

. خلينا نروح قبل ما أسافر .

كان الجو باردا رغم الشمس الساطعة، وكان علينا أن نقطع القاهرة إلى قلبِ المدينةِ القديمة، تلتهمنا العشوائيات بشوارعها الضيقة، القلعة على امتداد البصر، تقترب مقابر البساتين حيث يرقدان، كانت المسافة طويلةً مغبرةً، عجزت عن التقاط أنفاسي، حاولت مرارًا أن أفتح ممرًا آمنًا للعبور لكنها تمردت عليّ، فشلت كل أحاديثه في إذابة الجمود، قبضت على المقود وعيناي مثبتتان بالطريق، كل شيء يتحرك سريعًا للأمام، ولكننا بالسرعة ذاتها نتحرك للخلف، وكأننا نقطع المسافة ركضًا بالمكان، صمت يصرخ في الأنحاء برغم الضجيج واختلاط الروائح ،وتسرب العادم من فتحته الضيقة. ضج محرك السيارة ، خلتنا نعطل؛ لكنها توقفت عندما اكتملت المسافة .

ثلاثة مصابيح مازالت لم تطفأ، ومع ذلك مررت وميضًا مرتعشًا غير مضيء، صبارات ضخمة على صدر كل ممر، لم تشغل الشخوص حيزًا في لوحة الرؤية، كانت لوحةً باردةً من جمادات وكائنات رمادية شبه

محنطة. مازالت الكتلُ الحجريةُ بشواخصها تحمل رموزا للموت الصامت. المشهد ثقيل كلوحة سيريالية بالغة التعقيد، وبالوقت ذاته كان بسيطًا كسحق طابور من النمل .

. مالك ؟

. مفيش .

. افتكرت إنك كبرتي.. ليه متلجة كده ؟ !

. أنت مش فاهم، أرجوك خلينا نخلص ونمشي .

. فيه ريحة كبده ، تعالي نجيب رغيفين من الراجل على الناصية. ما شفتيش شكله وهو بيعمل السندويتشات.. يا ريتك أخدتي بالك !

. إيه اللي بتقوله ده .. ده وقته ؟ !

. كبدة ميتين .. حد طايل .

ابتسمت؛ فقال :

. ياريت كنتِ جبتي الكاميرا وصورتي وش القاهرة التاني .

obeikandi.com

ترجلنا من السيارة، وصلنا صدى لهرولات كثيرة، برز بعض الصبية من ممر جانبي، نظراتهم الحادة اخترقت أنسجتنا. احتضنت حقيبتي وأرسلت عيني للسيارة خلفنا، بعضهم تحلق حولها بينما أعينهم تنتهك الزجاج، لم تلههم كآبة الشواخص الحجرية عنا.. لم تستدرجهم الحروف المنقوشة بالثلث على قطع الرخام لأسماء العائلات، آل سيوفي، آل جيار، آل سلاموني، ولم يكن اليوم مهيأ لوافد جديد، حمدت الله حتى لا نوزع قسائم الأحزان، يكفينا جسدين مؤرقين بالعتاب. اتجهنا إلى حيث كانت مقبرة آل أبو العينين، الجد الأكبر لأبينا، تآكل الشاخص الحجري وجفت أوراق الصبار وتهدلت، ظهر شيخ ضريرٌ يقوده صبيٌ أعرجٌ، جلس على الأرض عاقدا ساقيه وبدأ التلاوة، التف الصبيةُ حوله في نصف دائرة فاغري الأفواه مسبلي الأعين عدا الولد الأعرج، كان يحملق فيّ. شغله انعكاس صورته بزجاج النظارة المعتم عن الصوت الآخذ في الارتفاع، لم تكن تلاوةً مؤثرةً ولم تبعث فيّ الشجنَ لكنها كانت عالية بما يكفي لأن تسرقهم من بؤسهم، يا لجلال الله، يوزعون ابتسامات شحيحة الروح كهزالهم، وبيضاء باهتة كبقع الوجوه.

أنهى الشيخُ التلاوةَ، هرع إليه الصبي، دس مجدي بكف الرجل ورقة نقدية قبل أن تدق عصاه ترابَ الأرض ويختفي، مدوا أكفهم الصغيرة لنا فمررنا بها قطعا نقدية، هرولوا بعدها وسترهم الممر .سور واطي يفصلنا عن الخروج، لكنه يسجن قدورا ضخمة تغلي فوق مواقد قديمة يتسرب منها البخار؛ روائح مختلطة يتقافز حولها الأطفال،

نسوة يتربعن فوق المصاطب ويجدن الكلام، رجال يتبادلون السجائر والنكات، عجائز يستنفذن الوقت بضيق، سيدة سبعينية وضعت وابور السبرتو على قدر مقلوب ووضعت فوقه كنكة القهوة بينما تترقب نضجها .حوت عيناي المشهد ذاته بذكراه الأربعين، يومها ذكرتني النسوة المتشحات بالسواد بقراءة الفاتحة، وإهدائه بعض آيات من القرآن لتهدأ روحه بدلا من الحملقة والنشيج، رمقنني بذهول واتسعت حدقاتهن، لم يكن يدركن سبب البكاءِ، كنت أبكيني وأدفع بتلك النافذة الموصدة بروحي لتنفرج، كان من المستحيل ادعاء أن الغبار الذي غلف كل شيء لم يكن ثقيلا بحيث سكن الفراغات، والتصق ليغلق كافة الثغور.

من خلف دموع عيني لم ألمح أي شيء، كان يومًا غائما، تمتمت بسري، بادلتهن التحية وانزويت، التجأت لجدار حجري ولفني خدر عجيب، كأن الروح قد وجدت أخيرا ملاذًا بالجسد المعذب بالصور، انساب قدرٌ من السكينة يسمح باتساع المشهد لتنفذ أشعة الشمس، لمحت بعض اهتزازات متباعدة لنبتات الصبار ولم تكن بعد مهداة للعدم . مضت النسوة لحالهن، عاد اللحاد لينثر بعض الماءِ حول المقبرة، انبعثت رائحة رطبة يألفها أنفي، لكنها مخضبة بالموت، ذهبت إلى قبر أمي، وهبتها كل الدعاء، أرسلت نظرة لقبره لأكتشف كم أصبحا قريبين ولم يكونا أبدًا كذلك، وكم تباعدا وراحا فى سبات لن توقظهما منه الأشباح .

كان اليوم ثقيلا، لاحقتني كل المشاهد، خرجت من روحي كبخار يتكثف، كان الصمت أقوى مني فانسحبت إليه، تأبطت ذراعه فاحتواني برفق.. قرأنا الفاتحة ودعونا لهما.. حدقنا بالأفق الشفقي.. لمحنا في السماء طائرًا بارِع التحليق، ألقينا نظرة أخيرة على المكان الذي ضمهما، وجدناه فارغا من كل شيء، فقط بعض روائح فقيرة تعود للماضي البعيد.

مساءً، انشغل بترتيب حاجياته، بين شفتيه سيجارة احترق نصفها، عيناه معلقتان بشاشة الحاسوب، وعلى وجهه نصف ابتسامة، نصف نظرة غائمة ونصف رغبة في الكلام، نفث دخان السيجارة بحالة من الصفاء ليثير كما هائلا من غمام، ذكرني بليلة كنا نرتق فيها حكاية تنشد الاكتمال، أخرج من حافظته قصاصة قديمة متهرئة الحواف، نظر إليّ بتمعن ونفث الدخان من جديد، اختفت عيناه خلف السحب الرمادية، منحني الورقة بطرفي أصبعين، بدد إحساسها حالة السكينة التي خلتها، تساءلت بنفسي ماذا تكون يا ترى؟ رماني بنظرة فيها شيء من الإشفاق، تنهد تنهيدة عميقة أوحت لي بالجواب وقال بصوت ثابت:

. اقرئي.

. فيها إيه الورقة دي ؟!

. لقيتها وسط حاجاته.

. فيها إيه؟ !

.دي ورقة بخط إيده، اقريها يمكن تفهمي .

أمسكت القصاصة لأفكك رموزها فهالني جموح المحتوى وانبعثت رائحة أعرفها ..

"هل تتوقع أن يسامحك الله؟ أي حقير أنت! لم تكن غير قذر عجنته الخطيئة، وبدلا من أن تكفر عنها اشتريت لنفسك ربطة عنق جديدة تلائم قميصه الذى أصبح لك، كان عليك ببساطة أن تعترف له، ولكنك أهديته جوربين وعلبة دخان وطاقم أسنان جديد.. وكان أبيك .

كان عليك ألا تبتلع طعامها العفن لأنك ببساطة لا تطيقه ،وتمقتها على اتساع جرمكما، ولكنك ازدردته بنهم وقبلت يديها شاكرًا وابتسمت، لماذا لم تخبره أنك كنت تتقمص جسدها نيابة عنه لأنه لم يقربها لعامين؟ وكنت تفعل ذلك يوميًا في غفلة منه وتتصنع العفافَ، وكانت زوجته.. زوجة أبيك !

لم يكن عليك حين تكونا معًا أن تضع وجهًا غير وجهك لتقابل اتهامها لك بالخيانة ضاحكًا، فقط لأنك تخجل أن تخبرها أنك حين تطاردهن فإنك تبحث عن الأخرى فيهن، لكنها لا تعرف، وتلك كانت زوجتك .

كان عليك ألا تنبش الركام فلا تفجعك منحوتة من صنعك لابن بار فشلت أن تكنه، ولا تعذبك ابنتك الجميلة بصورة لامرأة سيشهد العالم ذبح براءتها كل ساعة؛ فافعل ماشئت فكما تدين تدان".

. إيه الكلام ده؟!

. دي الحقيقة.

. حقيقة مين؟معقول ده أبونا!.

. أيوه، أبونا .. ده السبب اللي استحالة يخطر على بال.

. ده المستحيل بعينه يا مجدي، مش قادره أصدق.

. لازم تصدقي عشان تغفري.

. أغفر! أغفر لمين؟!

لم يكن من المفترض أن أنتظر تَرِكَةً فريدة تحمل صورا شعرية، وظلالا ملونة، ودلالات رائعة تستحق الكثير من باقات البنفسج لأضعها على مقربة من قبرهما، وربما بمسافة ضيقة تفصل بينهما ليتقاسما الألوان والرائحة والدعوات، لم يكن السبب المباشر يرجع لعدم حيازتهما لتلك المسببات لتنعدم النتائج؛ وإنما لثقة بأنني ما عدت أستطيع الجزم بأن العالم نفسه سيتضرر لو لم أفعل أو سيهتم لو

obeikandi.com

أنني فعلت، فبرغم كرمه الزائد متمثلا في إهدائي أحدث نسخ غرائبه، أشعر أنني اكتفيت، لا حاجة لنبش جديد خلف سطور الأحجيات، كل تلك الأشياء حدثت حين كان السابقون يعدون لحيوات بغيضة سيتركونها لي كإرث أسود آخذ في التعملق، كان من المهم لثبات صحة عقلي أن أواصل كتابة رسائل يومية، وبرقيات امتنان وخطابات مسجلة بعلم الوصول، وخاصة لمن يتجاهلون الرسائل؛ فهؤلاء هم من توجهت لهم بكل الشكر، كان عليّ في النهاية أن أنحني لهم احتراما وأكرر الثناء اليومي لعظيم منجزهم، ولكوني شاركتهم الأنفاس، وبعض الضحكات وكثير كثير احتقار .

. مالك؟

. مش عارفة.. حساه كابوس زي كوابيس كل يوم .

نظر إليّ بعمق، النظرة ذاتها التي تغلف وجهه حين يغرقه الرضا؛ كانت تحمل صفاءًا لم أعهده، تشاركنا سيجارة بعد أن أحرقنا القصاصة.. بصمت ودعنا بقايا جرحنا، تساءلنا..هل يأكل الحزن نفسه ؟! أم أنه يتغذي على أوجاعنا، أدركت من نظرتنا أنه ينهشنا كليا، لأعوام أفكر في احتمالات الإجابة،أرتب أوراقي لأكتب فكرة بعد فكرة، احتمالا بعد احتمال، أحرق سيجارة تلو سيجارة وأحرق روحي قبل كل شيء.. ودوما أتعثر، لماذا إذن لا يكون الأمر تلقائيا هكذا؟ لماذا لا يكون صادما كالموت؟ أو سلسا كحرق قصاصة، أو حتى مفاجئا كضيف ثقيل، كل

ما في الأمر حينها أنك تفتح الباب لتستقبل روحك التي تركتك،كل ما في الأمر أنك ستودع شبحك الذي جالسته حين افتقدتها، وحكيت له أسرارك كلها وشاركته لحظات الفرح وأعوام الحزن .. كل ما فى الأمر أنك ستعود وحدك من دونه، ربما تفكر أن تراسله على الأوراق ليعرف عنك.. كل مافي الأمر أنك ستتحرر منه لتستقبل ذاتك . أو ربما لتنام ..

انصرفت لإعداد عشاء شُغل عنه بلملمة أغراضه، كان يدندن لحنًا لفيروز، ويرسل المزيد من حلقات الدخان .صباحا و قبل أن يذهب واجهتني عيناه، لم يكن لوما، كان وجعا مغلفا بحنين .

. لآخر مرة هاقلك ارمي كل حاجة ورا ضهرك وتعالي .

. في يوم هاتتعرفوا وهاتكون راضي .

. ويمكن لا، وقتها هاتندمي .

. مش هايحصل.. في كل الأحوال مش هايحصل .

. باتمنى .

عانقني واجما ملتبسا بابتسامة ..

. هاستناكي .

. هاوصلك .

وقف في منتصف الصالة يتحسس جيوبه، بعدها التقط نفسا عميقا واكتسى وجها آخر وخرج، في الطريق إلى المطار ظل يتحدث عن أشياء كثيرة لا تناسب لوعة الوداع، العولمة والفضاء المعلوماتي، أقباط المهجر، الرأسمالية التقدمية، اتفاقية أوسلو وخطر الاستيطان، حروب التطهير العرقي وطمس الهوية.. أشياء غريبة معقدة ومبهمة..عبرنا بوابة الدخول، وحين وصلنا صالة السفر حدَّق كل منا في الآخر وتلألأت بعينينا الدموع، عانقني طويلا، دارت برأسي أفكار كثيرة مربكة، آخرها السؤال الذي لم أقرر بعد إجابته :

. هاشوفِك تاني؟ !

. أكيد .

. هاستناكي .

خرجت من المطار أمضغ صمتي، أغالب رغبة قوية في البكاء، لسعتنى البرودة، ورجاءه الذي أوجعني . " ما تسمحيش لحد يحبك أكتر من نفسك . اتعرفي على جورية وياريت تحبيها بجد؛ لأنها تستحق" .

*****

ليلة مؤرقة بتلفاز على بعد مترين، جهاز الريموت كنترول مجرد أداة تفجرني عن بعد، كل المشاهد مكررة ومملة، حتى الحائط الافتراضي بشكله الثابت وتفاصيله النمطية، ربما لم أخبرك أنني فعلت حسابا وهميا على الفيس بوك باسم" الرومانسية"، لم تكن الصورة لي، إنما لامرأة أخرى لها شفتان مكتنزتان وتضع حمرة فاقعة وكثيرا من الظلال الرمادية ، لا أخفي عليك أن طلبات الصداقة تنهال على كعروض عمل بالخليج بأجر مغرٍ.. كلها عروض رجالية محترمة، أنواع ترسل على الخاص عبارات خادشة ،وتفترض أنها مقدمة لازمة لصداقة شعارها "أصدقاء بلا حدود ."فعلت حسابا فيسبوكيا آخر لكن تلك المرة لرجل وسيم، باسم" مسافر وحيد"، كانت مأساة أن أكتشف أن رسائل الأنبوكس تصلني بعروض العمل ذاتها والمدفوعة الأجر، الفرق أن المائعات يرسلنها، دعتني آن لزيارة بالساحل الشمالي، ثم رشا ولطيفة من المغرب، ربما بقليل من الضغط كانت لتفتح الكاميرا، راقهن الجسد الفتيّ ، كان الأسمر بالصورة نصف عارٍ يتوسد رمل الساحل ويرسل حلقات الدخان، لا أنكر أن الباي والتراي كانتا مذهلتين.. لكن، هل تصلك مثل تلك الرسائل ؟ !

الحسابات الوهمية تنقذني من وسواس قهري، ترفع عني الحرج وتفتح أبواب الخيال ،الشيء الوحيد والمؤكد أن حسابي الحقيقي الذي تعرفه هجرته بشكل شبه نهائي؛ لأن كل ما أكتبه على الحائط من عبارات تخبر عنا يوتر أعصابك، الآن أعاني الوحدة، فتحت الصفحة التي اعتزلت وأصبحت أرقبهم عن بعد، من دون ترك أثر.. لم أضف

تعليقًا واحدًا منذ أسبوع، وظل الحائط شاغرًا بحاجة لمن يطرقه، لم يأتني أي إشعار لرسالة أو حتى مشاركة.. تذكرت حين حدثتك عن كاتب مشهور مسن له ميوعة النساء ،ويكتب يوميا كتابات لها تأثير فيلم إباحي تجيزه الرقابة بحجة " قليل من التوظيف مقبول، المهم التناول". ضبطت هذا الكاتب بصفحة أديبة مغمورة تضع له إشارات الإعجاب على كل ما يكتب، راقها أن قال : أعشق امرأة هي شهوة تمشي على قدمين؛ فردت بتبجح: لا عجب سيدي أن تعشقك كل النساء، حذفت صديقي المخنث هذا بعد أن راسلته من حسابي الوهمي، لن أخبرك بمحتوى الرسالة مهما حاولت، أضفت فتاته لحساب "مسافر وحيد" وقبلت وتجاهلت حسابي كفتاة تماما .. راسلتني مرتين.. وأجبتها .توقَفَت بعدهما عن مطاردة العجوز المخنث، سبها على صفحته، فضحت ألاعيبه الشاذة .. بعدها اختفى الاثنان .

حذفت كذلك فتاة الثلاثين ذات الشعر المستعار برغم أنها لم تفعل شيئا غير أن مطت شفتيها برقاعة ،ووضعت لوفة مستعارة على رأسها بلون أراجواني والتقطت بعض الصور.. لكني ترددت كثيرا قبل أن أحذف القاص صاحب أخطاء التهجي والنحو الأكثر بشاعة في تاريخ اللغة، سأرسل له كالعادة قصته الأخيرة بعد التعديل .

قلتُ إن العالم بقدر من الأنانية يضبط إيقاعنا ليلائم نوتته، كذبتني .. أعتقد لأنك اعتدت ضبط نوتته ليلائم إيقاعك أنت. أنا لا أحب الشطرنج ولا أي من العاب الذكاء برغم أني أكدت العكس؛ لأنها لا

تثبت سوى نقص بي، انعدام ثقة ربما.. ليس لغباء أعانيه ولكن لغرورك المفرط، ألا يمكن أن تخسر دورًا ولو من قبيل التغيير؟! هل تدرك أنني في المرة السابقة لاحظت تذمرك قبل ثوان من انتهاء اللعبة ليقينك أني أقرأ أفكارك.. أخبرتني أن البنت في لعبة الورق تشبهني، لكنك ساعة كئيبة على حائط تشهد احتضار العالم يوميا ببرود..لكن، لماذا لست هنا؟ !

يذيعون" تيتانيك" على القناة التي يملكها رجل الأعمال طليق المذيعة التي قتلت بحينا الهادئ، أفضل الظهيرة للأفلام الرومانسية لأنها تفوتني غالبا ..مشهد بهذا الجرم يعيد اليقظة لحواسٍ اعتادت الغياب، يقظة كالتي انتابتني عندما انهيت رواية بدأت بمشهد كلاسيكي بقاعة اجتماعات، وفاجأتني النقلة المثيرة لسيدة الأعمال الأربعينية في حوض استحمام ممتلئ عن آخرة بفقاعات الصابون .. خرجت منه عارية تماما إلا من طلاء أظافر لتمارس اليوجا بغرفة وردية . شادن امرأة قررت الانتحار ،ومنحت نفسها مهلة أسبوع قبل أن تنفذ قرارها، سافرت ماليزيا برفقة سائقها الوسيم، تقاسما الغرفة، والفراش وزجاجة بيرة ولوح شيكولاتة كبير وبعض ثرثرات.. كان اسمه آدم ..

شادن وآدم تناقشا بلا ملل، تحاورا لساعات، حدثته كأنها تحدث نفسها، أخبرته عن أشياء حدثت وأشياء تحدث وأشياء ودت لو لم تحدث، ضحك آدم، انتابته رغبة في إدهاشها، حكي عن كومة جرائد

يبتاعها يوميا ليلعب السودوكو وعن رفيقة حلم تشبه شادن يضاجعها كل ليلة بلا ملل. وعن عجوز تقرأ الفنجان أخبرته ذات سأم عن أنثى ستسلبه حياته، قالت امرأة الفنجان: إن آدم سيقضي سبعة أيام في الجنة يأكل ما يأكل المصطفون ويشرب ما يشربون وبعدها سيموت.. بنهاية الأسبوع كانت شادن قد تحررت من هواجسها تماما ،وتخلت عن رغبة الانتحار؛ لكنها قبل أن تغادر وضعت له السم بمشروبه فلا يُكشف سرها .

دخلت غرفة الشات ربما أتعثر بك، انتابتني غصة كل يوم مع غلق جهازي ..واضطراري للانتباه لكل تفصيلة بالفيلم، توترت قليلا عندما احتضن الجميلة بمقدمة الباخرة، اصطخبت مشاعرها عندما راقصها وكنت مثلها، تأججت رغبتي حين رسمها عارية، تآكلت روحي عندما خربشت الزجاج فالتهم جنونها بجنون، وشبقها بشبق. وارتج كل شيء، مارسنا طقوسهما كثيرا، في كل مرة كنا نخلف أثرا ما، في كل مرة نترك ياسمينة، نسقط ورقة توت، نقضم تفاحة، في كل مرة ترمينا السماء لأرض هي البراح فنمارس عشق آدم ووله حواء .

أعرف يقينا أنك هنا، ربما لا يمكن العبور إليك وتنشق أنفاسك، أو اختلاس لحظة بعيدًا عنها، ربما لن يسرقني حضنك ولن تلفني ذراعاك، ربما لن تأسرني جزيرتك، لكن يمكن نقر الحاسوب وترك رسالة؛ قررت اقتناصك الليلة، يوم أدركت أن المسافة بين عالمي وعالمك شاشة حاسوب وغرفة محادثة مغلقة ..

. حاسه إنك هنا ..

. هنا .

. وحشتني .

. أنتِ كمان وحشاني .

. ممكن أسمع صوتك .؟

. ليه غيرتي الرقم ؟ !

. استنيتك تتصل .

. مش بتحبيني يا جوري .

. وحشتني .

. بتمنعي نفسك عني .

. وحشتني .

. حقيقي مش فاهمك .

. ممكن نتكلم .؟

obeikandi.com

.تعالي الصبح يا جوري.. مستنيكي في زايد؟

. هاجيلك المكتب.

*****

٢٤يناير ٢٠١١

ها أنا ذا في الطريق إليه، سأواجهه اليوم بكل ما في رأسي ويكاد يفجره ، كانت الشمس قد ارتفعت قليلا، والنسمات باردة بعض الشيء، وصلت الجريدة قبل الظهيرة برغم أن اليوم زحام، زحام بشر، وزحام مشاعر وزحام روائح، لافتات وباعة أعلام، هتافات وصور ..تفاصيل لا تمت بصلة لنا، ولا تليق بعازف الفيولين حين يغازل أنثى الهارب على مسرح ضوئي. عشر احتمالات صحو مستحيل تهدر، أجدل بعضها مشنقة، لأقتل فكرة ناقصة تربط بين أصابعه وكل خلية بي، ما الذي حدث؟ يمر اسمك الآن مثقلا بالوجع، لا تندهش فكل ما في الأمر أني امرأة وحيدة لم يعد لديها الوقت الكافي لممارسة الفقد، لم يعد لدي بحر لألون زرقته ولا سماء لتزركشها العصافير، أنا قارب مترهئ بلجة بحرك، ويدرك أن مصيره في ليلة شتوية إلى النار.

. وحشتيني .....

......

obeikandi.com

. لسه بتحبيني؟

. مش عارفة .

. اعترفي بحبك زي زمان وانقذي نفسك حالا؟

. اعترف ليه؟ وإيه فايدة علاقة بتجمعنا وكل واحد فينا ف ناحية ؟ ها ..قل لي ؟

. أنتِ روحي يا جوري.. أنتِ عارفة ده كويس

أمعنت النظر بعينيه، كانتا مرتعشتين، وبين أصابعه قصاصة يدورها بعصبية..من دون وعي جذبتها، كتبت بالمنتصف وبخط واضح "امنحني كلك، فما عاد بعضك يكفيني ".

.كلامي ليكي، جميل إنك مش ناسيه .

. مشاعرنا مش مجرد كلام .

ابتلعت ريقي بصعوبة، كان حلقي جافًا كما لو كنت أركض بمسافةٍ ماراثونيةٍ غير معلومة النهاية .غادر مقعده، اتجه إليّ، جلس قبالتي ليهبني شراك عينيه .

. مالك ؟.. بتهربي مني ليه ؟ .

o b e i k a n d i . c o m

. خايفة .

. إيه مخوفك للدرجة دي؟ أنت بتتراجعي يا جوري، بتخلطي كل ورقك بتخبط مش جديد عليكي.

سرحت ببصري للوميض الآتي من خارج النافذة، القاهرة المبهرة ولافتة كبيرة تعنون لـ سيلانترو يثبتها شاب على ارتفاع كبير .

. تعالي ف حضني.

منتهى العبث أن يراودني عن حضنه ،وكل ما أفكر فيه دخان ال COHIBA، أفتقد الرائحة، أظنه غير النوع لـ .CIGARلا أثر للجاكومو بقميصه، ولا يروقني عطره الجديد، تستفزني صورتهما الجديدة على المكتب، ضمه لها بتلك الطريقة أمر مبالغ فيه، ليس من ضرورة أن يستعرضا قوائم حبهما على البشر، له ضحكة مرتاحة بالصورة ولا أظنها مصطنعة، أين قطع الشطرنج التي ابتعناها معًا؟ أنا في حاجة إلى تصديق أن أمورنا بخير، وأن حاسة الشم لدي بها مشكلة، وأن تلك الصورة لهما مجرد صورة قديمة لا روح لها، ربما غير نوع السيجار لضرورة صحية لنسبة نيكوتين أقل أو لنوع تبغ أكثر جودة، أو لأنها مجرد هدية من صديق، لا أعتقد أنها من طالبته بذلك.. فيمَ يعنيها سيجاره على أي حال؟ !.

. مالك حبيبتي؟ !

ope ikanah.com

اقترب ليلمسني.. ليته لم يفعل، فلم يحدث شيء..أي شيء غير أن فتحت عينيّ على مصراعيهما، تواجهنا، تمنيت لو أن لي جسدًا غير الذي لي فأتركه وأذهب، أو أن لي عقلاً غير الذي لي فيتوقف الصخب، احتضنني بقوة من دون كلمة، سافرت كفاه، استكنت كدمية لا دور لها، قبلاته فجرت شلالا من الرفض، كنت منتبهة ، أعي كل شيء وكل خلية بي.

. مالك؟ !

. مفيش.

. أنت متغيرة.. فجأة بقيتي كارهة مشاعرك.. فجأه بقيت خالد الأناني اللي بيشبع رغباته وبس .. قوليلي .. هاتكتبي عني إيه فـ روايتك.؟ نفس اللي كتبتيه عنهم! هادخلك زيهم عام حزن جديد بمزاجي الأناني وقلبي الجبان اللي ما بيرحمش.

. مش محتاجة أحبك عشان أثبت إني بحب جورية ..

. ده كلام جديد.

رمقته في شرود..لم يكن لقاؤنا هذا مبهجا كصدفتنا الأولى.. كان ثقيلا كليالي الفارغة..كنت يوميا أغير ترتيب الصور بألبوم سيدي بو سعيد، وأتفقد ما بين عينيه وشفتيه، وما بين ضلوعه، أتفقد كل شيء..

obeikandl.com

همسنا، لمساتنا، وكهوفنا. تحسست ركاما من الثلج بيننا ولم أجدا أثرًا له .

. ضميني .

كل الأشياء تخفت، وفي النهاية يبدو الأمر كله كابوس، كل الصباحات عادية، وكل المساءات مملة، أتفقد أثره بفراغ ما، حشوة فراش، حافة فنجان، رماد سيجارة، بقايا شوق، مفردة غير الموت تصف احتراقنا بالبعد، نهير تفجر عند قدمينا بالكهف الذي ضمنا، سيلينا التي انتظرت بكل سنين العطش الأولى لتهب للسنبلات اخضرارها وللزهور عبيرها، سيرفانتي، صوت الناي، موسيقى القمر، ورشفات العسل، قبلاته.. عجبًا وكأنه لم يكن يوما هناك .

. خبيني في ضلوعك ..

دخلتُ متاهتي، وكلانا يدرك أنه مختنق بالآخر، يحترق بأوجاعه، كلانا يدرك أنه آت للمنعطف الأخير، تساءلت ..ما الذي انطفأ؟ نوبة من الضجر تلتهم كل شيء، استجمع طاقة تخذلني وتراكيب لاثنين غيرنا، لا صور تقدر على افتعالِ أي شررٍ، ينتفض الجسدُ بنوبةِ عرقٍ، للأنفاس رائحة غريبة، والحضن كئيب يبعث الضيق .

. هامشي .

. أنتِ سيلينا الجميلة .

. زمن مسروق .

. حبنا؟ !

. زمن مسروق، مجرد زمن مسروق .

واجهت خوفي من اقتراب يعقبه سفر، وكأن عمري يخشى الاكتمال، بتلك اللحظة أحرقت وأغرقت القارب ..قلت بتحدٍ :

. المرة دي هاختم الرواية .. أوعدك .

. تقصدي إيه ؟ !

لم يكن هناك من رد لسؤالٍ يعرف إجابته، سؤال واحد وإجابة واحدة تقدر على استعادة ما بيننا، نظر مسهدا، التبست ابتسامة حفزها تساؤل مدهش طغى على كل شيء.. هل كنا فعلا حقيقة؟ حين هممت بالذهاب انزلقت أوراق بروفة العدد الجديد، لم أجد بي رغبة للملمتها، كانت عيناه معلقتين بها .. جاءني صوته :

. لو مت ياجوري، هاتحضري العزا ؟ !

. سلام ياخالد .

obeikandi.com

انهارت علاقتنا، لا أملك شعورًا محددًا، ربما حفنة انفعالات متناقضة سأعتاد تمريرها مع أقراص الفاليوم، جزءٌ مني يرفض استعادتك بتلك الصورة، بالرغم أني أريدك دائما، لكنها رغبة في الحب أكبر من جملة "انتظرك بزايد"، أحبك في كل حالاتك. لكني أردت شيئا يبقى، ربما يتوتر أحيانا كبحيرة يربكها المد بليلة مقمرة، شيء يشبه مسافة بين ضجرين، وربما صوت بين صمتين؛ شيء أكثر من مجرد حروف افتضت بكارة الأوراق ليعبر فوقها المارون، شيء أبلغ من جملة شعر تترك نزفا بالروح... صوته يتردد بخفوت ..

. مستنيكي ف زايد .. !....

*****

أرغب أن أترك هنا..

في الطريق صادفت محلا جديدًا، قلت لنفسي سأجرب القهوة هناك.. مشيت بعمق أكثر من كل المرات، سمعت وقع قدميّ على الأرض، كان الشارع خاليا وكأنه لي وحدي.. دببت بخفة واستنشقت بعض المرح وكثيرا من النشوة ..في الداخل بدوا من عالم آخر، يتحركون كدمى بمشهد تتشكل فيه بؤر الضوء كزهور الماء، يمرون كالهوام بعالم أثيري يناسب زاوية الكاميرا ومساحة مفترضة من كادر ثابت، يخضعون لمؤثر صوتي وفق موسيقاي وليس من نوتة لأحدهم" .آخر أوجاع الشتاء" عنوان فصلي الأخير، وربما تبدو الجملة عنوانًا مناسبًا لرواية

ضخمة، سأجلس هنا لأحفز إرادتي كما ريح تشكل متاهة بقلب إعصار، تدور بقلب الركود، بالزوايا، بالطرقات، بين كل صمت وصمت، سأستعين بها لأدفع حضورك الشبحي، ولأؤجج شهوة قتل الحروف على مشانقِ الأوراقِ، سأعزف لحنًا أخيرًا بالمفردات المتاحة، سأتتبع الخيط الأخير للدخان هنا، وسط الناس. خلف مساحةٍ عريضةٍ من الزجاجِ ينظفونه يوميًا بلا كلل ليكشف عورة المدينة، أو ليكشف جنونهم، ربما في لحظة التحرر يمكن أن نكتشف كثيرًا من أشياء، ومذاقات أخرى لقضمات التفاح، ربما نستطيع أن ندرك السبب في أنهم يمنحون كل شيء صبغة من كل شيء، فحبك حلو كالسكر، فراقنا حزين كناي، ابتسامتك مدهشة ككرزة، دموعنا مجهدة كسفر، حروفك رقيقة كبيلسانة، غرامنا مربك كبحر، صمتك قاس كجبل، حنيننا قاتل كموت.

سكون غريب تؤطره الملامح، يقطعه - ذاك المؤقت الزمني المسمى بالحياة - رائحة الإسبرسو النفاذة تباغت كل شيء: فتبدد رغبة في النعاس وتجدد الحاجة للكتابة. سأمنح كل منهم لحظةً منتقاة، وعالمًا له القدرة على افتعال الضجيج، سألقي التحية على العابرين، والجالسين، والثائرين والصامدين والمتوارين خلف الجدار، سألتقط هزائم رجل الغياب، وشجون امرأة الكرسي، ومساحيق أنثى العلكة، ووجع الجرح المستعرض بالروح، وخطوات اللائذ بالرحيل، وانتكاسات رجل الهزائم، واحتراق سيدة الندوب، وانشطارات غيمة التصحر، ورقصة الباليرينا، وألحان الهارمونيكا، ومتوالية الكرسي الهزاز،

وخدعة قطعة السكر، وكلمات الرجل ذي الكلمات بلا نكهة، وخذلان صديقتي من الشارع . لكني حين فتشت عن شيء يناسبك، كانت الكلمات شيء أقرب لرسائل العزلة، وجدتني أكتب : " ابق بعيدًا كي أمارس متعة البحث عن مستحيل جميل".

هكذا تكون النهاية لائقة ..وكأن العالم كله يشهد تلك اللحظة، لم يكن عسيرًا أن أفعل، كانت آخر دفقات المشاعر، وما أغرب المفارقة، كنت من حفزني لكتابتها، واليوم أهديك سطورها، لعل الإهداء سيكون..

لهذا الرجل العالق أبدًا كشوكة بالجرح . خالص محبتي.

جوري عبد الحكيم.

oboeikandl.com

obeikandl.com

الأكثر جمالاً بيننا.

المتخلّي عن حضوره.

التارك فسحةً نظيفة بشغور مقعده.

جمالاً في الهواء بغياب صوته.

صفاءً في التراب بمساحته غير المزروعة.

الأكثر جمالاً بيننا: الغائب.

قاطعُ المكان وقاطع الوقت بخفَّةٍ.

لا يترك للمكان أن يسبيه ولا للوقت أن يذرّيه.

مُذَرٍّ نفسه في الهبوب السريع.

غير تارك تبنًا لبيدره ولا قمحًا لحقل سواه.

المنسحب من شرط المشي للوصول.

المنسحب من الوصول.

وديع سعادة

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

<u>الكاتبة فى سطور</u>

حاصله على ليسانس الآداب قسم اللغة الإنجليزية
عضو اتحاد كتاب مصر
عضو نادي أدب المنصورة
عضو نادي الأدب المركزي

<u>صدر للكاتبة</u>

ديوان نصوص نثرية بعنوان / عناقيد ملونة
مجموعة قصصية بعنوان/ ربما يكون مغلقا
رواية بعنوان/ سهر
مجموعة قصصية بعنوان/ بطعم التوت
تحت الطبع رواية / يجيدون الاختباء

obeikandi.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

نون للنشر والتوزيع

Noon_publishing@yahoo.com

ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧

obeikandl.com